الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 114 - July 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وأربعة عشر . السنة العاشرة . يوليه ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

جوئل بنين : عمال مصر .. المغانم والمظالم

ستيفن والت : إسرائيليون فى واشنطن

ناصر الرباط : نساء فى حياة المقريزى



السنة العاشرة
العدد ١١٤
يوليية ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- جمال محمد غيطاس.. محرر تكنولوجيا المعلومات بالاهرام ورئيس تحرير مجلة لغة العصر.
- جوئل بنين.. أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة ستانفورد - الولايات المتحدة.
- حسين عبد الله.. خبير اقتصاديات البترول والطاقة.
- خالد الحروب.. باحث في دراسات الشرق الأوسط بجامعة كامبردج - بريطانيا.
- ستيفن والت.. أستاذ العلاقات الدولية بجامعة هارفارد - الولايات المتحدة.
- سعيد توفيق.. أستاذ الفلسفة وعلم الجمال بآداب القاهرة.
- سيد هويدى.. كاتب وناقد تشكيلي.
- ماجد عثمان.. رئيس مركز المعلومات برئاسة مجلس الوزراء - مصر.
- ناصر الرباط.. أستاذ الأغاخان لتاريخ العمارة الإسلامية بمعهد ماساتشوستس (M.I.T)
- نيكلسون بيكر.. روائي وكاتب أمريكي.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصري.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص - ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

جـــــــــــوئـل بـنـيـــــــن

في زمـــن الاقتصـــــاد الجديـــد

تروس المغانم والمظـــــالم

منذ عام ٢٠٠٤، شارك حوالى نصف مليون عامل مصرى فى إضرابات واعتصامات مصانع ومظاهرات وأشكال أخرى من الاحتجاجات الجماعية(١). وكما كان الأمر فى الماضى، فإن الاتحاد الرسمى للعمال (الاتحاد العام لنقابات عمال مصر) والنقابات العامة المشكلة له وعددها ٢٣ نقابة، كان عموماً عقبة فى طريق تحقيق مطالب العمال. وقد ألهمت الحركة العمالية شعارات التضامن من مفكرى المعارضة المصريين وكذلك من الاتحادات العمالية والمنظمات السياسية الدولية. وأدى ذلك إلى إضرابات وتهديدات بالإضراب واحتجاجات جماعية من قبل الموظفين وأساتذة الجامعات والأطباء البشريين وأطباء الأسنان ومهنيين آخرين. وذلك الحراك هو أكبر وأقوى حركة اجتماعية فى مصر منذ الحملة لإنهاء الاحتلال العسكرى البريطانى بعد الحرب العالمية الثانية. وتستمد تلك الحركة قوتها من المطالب المتزايدة للديمقراطية واستمرار الاتجاه الجديد نحو الاقتصاد الحر، والذى يخلق مجتمعا مصريا جديدا يضم أقل من ١٠٪ من السكان.

منذ اندلاع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠ والغزو الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣ وتشكيل الحركة المصرية للتغيير (كفاية) عام ٢٠٠٤، شهدت مصر عددا كبيرا من المظاهرات والاحتجاجات العامة. كان معظمها فى البداية يتعلق بقضايا السياسة الخارجية. وخلال عامى ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ كانت القضايا الأبرز هى المتعلقة بالتعديلات الدستورية وسعى الرئيس حسنى مبارك لفترة رئاسة خامسة فى انتخابات عام ٢٠٠٥. وقد ركزت المظاهرات مؤخرا على القضايا الاقتصادية الداخلية مثل الارتفاع الحاد فى الأسعار وخاصة فيما يخص السلع الغذائية والوقود ونقص الخبز المدعم.

ومع ذلك، كان لدى الحركة العمالية وحدها القدرة على المثابرة والنمو والقيام بإضرابات واحتجاجات متكررة تستمر لعدة أيام أو حتى لعدة أشهر. وقد حدثت انتكاسة عندما قامت قوات الأمن بالتصدى لإضراب كان مرتبا له بشركة مصر للغزل والنسيج (المعروفة باسم غزل المحلة) والقمع العنيف للمظاهرات هناك فى ٦-٧ أبريل عام ٢٠٠٨. ومع ذلك، استأنفت الحركة الاحتجاجية العمالية نشاطها أواخر مايو بإضرابات واسعة فى مصنع ملابس المنصورة- إسبانيا فى طلخا بالدقهلية (قطاع خاص) وشركة العامرية للغزل والنسيج بالإسكندرية (قطاع عام).

فى عام ١٩٩١، أبرمت مصر مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى اتفاقيات لبرنامج الإصلاح الاقتصادى وإعادة الهيكلة. وبناء على ذلك، صدر القانون رقم ٢٠٣ لسنة ١٩٩١ لينص على خضوع ٣١٤ شركة قطاع عام للخصخصة. وبحلول منتصف عام ١٩٩٢ كان قد تم خصخصة عدد ١٩٠ من تلك المؤسسات(٢). وقد تباطأ معدل الخصخصة خلال العامين التاليين بسبب الركود الاقتصادى. وقد عهدت حكومة رئيس الوزراء الدكتور أحمد نظيف التى تولت مهامها فى يوليو ٢٠٠٤ بالحقائب الوزارية الاقتصادية إلى حاملى درجات دكتوراة تعلموا فى الغرب أو رجال أعمال مقربين من جمال مبارك(٣). وقد دشنوا موجة ثانية من بيع مؤسسات القطاع العام. فبيعت ١٩ مؤسسة خلال العام المالى الأول لحكومة نظيف(٤). ومنذ ذلك الوقت، جرى بيع بعض الثوابت التاريخية للاقتصاد المصرى أو إعدادها للخصخصة، مثل الشركة الشرقية للدخان وشركة الأسمدة المصرية وسلسلة متاجر عمر افندى وبنك القاهرة وبنك الإسكندرية. وقد بلغت عائدات الحكومة من بيع المؤسسات العامة خلال العام المالى ٢٠٠٦/٢٠٠٧ - ٥,٣٤ مليار دولار. وهو رقم أكبر من الـ ٣,١٢ مليار دولار حصيلة الحكومة من بيع المؤسسات العامة خلال عقد كامل قبل تولى حكومة أحمد نظيف رئيس الوزراء(٥).

كانت إضرابات ديسمبر ٢٠٠٦ وسبتمبر ٢٠٠٧ فى شركة غزل المحلة هى الأكثر أهمية من الناحية السياسية، رغم أنها لم تكن أولى الاحتجاجات العمالية الجماعية خلال موجة الإضرابات الحالية، حيث شارك فيها أكثر من ٢٥ ألف عامل يشكلون حوالى ربع قوة العمل فى صناعة الغزل والنسيج التابعة للقطاع العام. ولشركة غزل المحلة التى أنشأها طلعت حرب عام ١٩٢٧، أهمية سياسية كبيرة باعتبارها أول مصنع آلى لصناعة النسيج يملكه مصرى مسلم، وكانت الأحداث التى تقع بها هى عادة ما تحدد الأجور وظروف العمل الأخرى فى قطاع النسيج وغيره.

وقد أضرب عمال غزل المحلة فى ديسمبر ٢٠٠٦ لأن أحمد نظيف رئيس الوزراء أخفق فى تحقيق وعده المعلن فى شهر مايو الأسبق بأن عمال القطاع العام سوف يحصلون على علاوة سنوية متزايدة تتراوح بين مائة جنيه مصرى إلى أجر شهرين كاملين. وقد زعم أنه كان يقصد بذلك العاملين فى القطاع الحكومى فقط. وقد حقق العمال فوزاً حاسما، حيث حصلوا على أجر ٤٥ يوماً مع وعد بتوزيع ١٠٪ من الأرباح عليهم إذا ما حققت الشركة أرباحا تزيد على ستين مليون جنيه مصرى فى العام المالى ٢٠٠٦/٢٠٠٧ .

وقد شكل نجاح العمال إحراجاً embarassment للاتحاد العام لنقابات عمال مصر. وشن قادة العمال بعد الإضراب مباشرة حملة للتنديد بأعضاء اللجنة النقابية الذين عارضوا الإضراب والذين تم انتخابهم بالتحايل قبل شهر من الإضراب. وفى النهاية، وقع حوالى



ترجمة: عادل فتحى

١٤ ألف عامل طلبا موجها إلى النقابة العامة لعمال الغزل والنسيج يطالبون فيه بسحب الثقة من اللجنة النقابية وإجراء انتخابات جديدة. وقد عارض زعماء الاتحاد العام طلب سحب الثقة لأنه يلمح إلى أنه على الاتحادات العمالية فى الواقع أن تمثل العمال بدلا من أن تكون ذراعا للدولة. وبناء على ذلك بدأ الآلاف من العمال فى تقديم استقالاتهم بالبريد المسجل من النقابة العامة لعمال الغزل والنسيج.

وقد ترددت أصداء انتصار عمال غزل المحلة فى قطاع النسيج. فخلال الأشهر الثلاثة التالية شارك آلاف العمال فى عشرة على الأقل من مصانع النسيج فى الدلتا والإسكندرية فى إضرابات وأشكال أخرى من التباطؤ فى العمل كنوع من الاحتجاج وتهديدات باحتجاجات جماعية أخرى إذا لم يحصلوا على ما حصل عليه عمال غزل المحلة. وقد رضخت الحكومة بالفعل فى كل تلك الحالات. ومثلما حدث فى المحلة الكبرى، انتشرت قوات الأمن حول المصانع وطوقت المنشآت. ولكن فى جميع الحالات لم تنفذ قوات الأمن تهديداتها بفض الإضرابات بالقوة. وفى معظم تلك الحالات عارض أعضاء من اللجان النقابية تلك الإضرابات وحاولوا التنصل منها. وفى المقابل، قام المضربون فى مصانع كفر الدوار باحتجاز مسئولى الاتحاد داخل المنشآت لإجبارهم على الانضمام للإضراب.

وخلال عام ٢٠٠٤ كان هناك ٢٦٥ إضرابا واعتصاما واحتجاجا ومظاهرة، كان ١٩٣ منها فى أعقاب تولى حكومة الدكتور أحمد نظيف فى يوليو. وقد وقع حوالى ٢٥٪ من احتجاجات المصانع فى القطاع الخاص، وهى نسبة عالية لم تسجل من قبل[٦]. كما رصد مركز الأرض لحقوق الإنسان ٢٠٢ احتجاج جماعى عام ٢٠٠٥، و٢٢٢ عام ٢٠٠٦، ورقم صاعق بلغ ٦١٤ عام ٢٠٠٧[٧]. واستمر الحراك خلال عام ٢٠٠٨. حيث أعلن المرصد العمالى والنقابى المصرى أنه خلال شهر فبراير فقط من عام ٢٠٠٨ شارك ٤٢ ألف عامل فى ٦٨ احتجاجاً من بينها ١٠ إضرابات و٢٢ اعتصاماً و١٣ مظاهرة[٨].

فى أبريل من عام ١٩٨٧ أصدرت إحدى المحاكم حكما يقضى بأن حق الإضراب يكفله الدستور، كما أن قانون العمل الموحد رقم ١٢ لعام ٢٠٠٣ أضفى الشرعية على الإضرابات بوضوح. ومع ذلك، فلا يمكن ممارسة هذا الحق على أرض الواقع لأن تشريع عام ٢٠٠٣ يسمح بالإضرابات فقط فى حالة وجود موافقة مسبقة على الإضراب من قبل ثلثى أعضاء اللجنة التنفيذية للنقابة العامة المختصة. ونظرا لأن كل أعضاء النقابات العامة تقريبا هم أيضا أعضاء فى الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم فإنهم لا يوافقون على الإضرابات. ولذلك فإن كل الإضرابات منذ عام ٢٠٠٤ هى غير قانونية.

وقد انتشرت الإضرابات خلال عام ٢٠٠٧ من مركز ثقلها فى صناعة الغزل والنسيج لتشمل عمال مواد البناء والنقل ومترو الأنفاق بالقاهرة والصناعات الغذائية والمخابز والصحة والاتصالات وعمال البترول بالسويس ومصانع الحديد والصلب بحلوان والشركة القومية للأسمنت بحلوان وكثير غيرها. وقد شكل عمال الصناعة فى القطاع الخاص نسبة بارزة غير مسبوقة فى ذلك الحراك. واتسعت الحركة فى الصيف لتشمل أصحاب الياقات البيضاء (كناية عن الموظفين) وعمال الخدمات المدنية وأصحاب المهن. وقد وقع فى ديسمبر عام ٢٠٠٧ أكبر احتجاج جماعى على مستوى حركة الإضرابات، حيث أضرب حوالى ٥٥ ألفاً من موظفى الضرائب العقارية العاملين فى المحليات. فبعد أشهر من المظاهرات العامة قاموا بالإضراب لمدة عشرة أيام وحققوا مطالبهم بمساواة أجورهم مع نظرائهم العاملين فى وزارة المالية.

الفقر والأجور وظروف العمل

لم يستفد معظم العمال وموظفى الياقات البيضاء، وخاصة أولئك العاملين فى القطاع العام والفلاحين وفقراء القرى والعمال الموسميين والعاطلين من مزايا النمو الاقتصادى الذى حققته مصر منذ عام ٢٠٠٥/٢٠٠٦. وبالنسبة للنساء على وجه الخصوص لم يحقق النمو الجديد للاقتصاد الحر فى مصر أية مزايا[٩]. ويشير النموذج التركى - وهو أنجح مثال (لنمو الاقتصاد الحر الجديد) neo-liberal economic development فى الشرق الأوسط - إلى أنه فى أفضل الظروف قد تمر خمسة وعشرون عاما قبل أن يجنى معظم المصريين مكاسب معقولة من ذلك البرنامج.

فى الوقت نفسه، كشف تقرير البنك الدولى عام ٢٠٠٧ أن معدلات الفقر زادت فى الفترة بين عامى ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٥[١٠]. وهناك اعتقاد شائع بأن ٤٠٪ من المصريين يعيشون قرب أو تحت خط الفقر المقدر بدولارين يوميا. ولكن مؤتمرا عقد فى مايو عام ٢٠٠٧ تحت عنوان «قضايا الفقر والفقراء فى مصر» قدر نسبة المصريين الفقراء بـ ٥٥٪[١١]. وقد وجد تقرير التنمية البشرية لمصر عام ٢٠٠٨ أن ١٩.٦٪ من المصريين يعيشون على أقل من دولار يوميا، بما يعنى أنه ليس لديهم دخل يكفى لاحتياجاتهم اليومية. وقد انخفضت النسبة حوالى ١٪ سنويا منذ عام ٢٠٠٥. وفى الفترة نفسها زاد إجمالى الناتج القومى بمعدل ٧٪ سنويا تقريبا. ويعنى ذلك أن الفقراء يتلقون نصيبا ضئيلا فقط من عوائد هذا النمو.

وطبقا لدراسة حديثة للدكتورة منى سعيد، فإن الأجور الحقيقية عام ٢٠٠٦ هى أقل مما كانت عليه عام ١٩٨٨[١٢]. وفى مايو عام ٢٠٠٨ أعلن الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء أن معدل التضخم فى المدن وصل إلى ١٦.٤٪ فى ذلك العام بينما زادت أسعار الأغذية بنسبة ٢٢٪. ومن المتوقع زيادة التضخم إلى ٢٠٪ بحلول منتصف العام[١٣]. وقد استمر النقص فى الخبز المدعم حتى بعد أن تعهد أحمد نظيف رئيس الوزراء فى ٢٣ مارس عام ٢٠٠٨ بأن المشكلة سوف تنتهى خلال ستة أسابيع[١٤].



كانت إضرابات ديسمبر ٢٠٠٦ وسبتمبر ٢٠٠٧ فى شركة غزل المحلة هى الأكثر أهمية من الناحية السياسية، رغم أنها لم تكن أولى الاحتجاجات العمالية الجماعية خلال موجة الإضرابات الحالية

وتعد أجور العمال ضئيلة جدا ولا تواكب تلك الظروف المعيشية. وقد حدد القانون رقم ٥٣ لسنة ١٩٨٤ الحد الأدنى للأجور فى القطاع العام بمقدار ٣٥ جنيها شهريا. ويبقى الحد الأدنى للأجر الأساسى كما هو؛ ولكن نتيجة لزيادات عيد العمال منذ عام ٢٠٠١ وصل الحد الأدنى الفعلى للأجر الشهرى إلى ١٠٨.٥ جنيه اعتبارا من يوليو ٢٠٠٨[١٥]. وطبقا للغرفة التجارية الأمريكية بالقاهرة فقد وصل متوسط الأجر الشهرى الأساسى لعمال الغزل والنسيج فى السنوات الأخيرة إلى ٢٥٠ جنيها[١٦]. وفى القطاع العام رفعت الحوافز والعلاوات والمكافآت المختلفة إجمالى الأجر الشهرى إلى ٤٠٠-٤٥٠ جنيها. ويعمل عمال مؤسسات القطاع العام فى ورديات يومية تمتد إلى سبع ساعات (ولكنهم يعملون وقتا إضافيا فى العادة) لمدة ستة أيام فى الأسبوع، ويتقاضون نسبة ١٢٥٪ للوقت الإضافى[١٧].

وهناك صعوبة فى الحصول على المعلومات الخاصة بالأجور وظروف العمل فى شركات القطاع الخاص. ووفقا لأحد الشركاء فى شركة ناجحة للنسيج تابعة للقطاع الخاص، كان عامل النسيج يتقاضى عام ٢٠٠٥ حوالى ألف جنيه شهريا (شاملة أجرا أساسيا يبلغ ٥٠٠-٦٠٠ جنيه بالإضافة إلى الحوافز)، بينما كان عامل الغزل يتقاضى حوالى ٨٠٠ جنيه شهريا (شاملة أجرا أساسيا يبلغ ٤٠٠ جنيه بالإضافة إلى الحوافز). ويعمل عمال النسيج فى القطاع الخاص فى ورديات تمتد إلى اثنتى عشرة ساعة[١٨].

منذ منتصف عام ٢٠٠٤ كان انخفاض الأجور والتأخير الطويل فى دفع المكافآت والحوافز هو أهم الأسباب المباشرة للاحتجاجات الجماعية. وفى يناير وفبراير من عام ٢٠٠٨، تظاهر الآلاف من عمال شركة غزل المحلة وعائلاتهم ضد ارتفاع الأسعار، وخاصة أسعار الخبز. وقد أعلنت لجنة المندوبين المنتخبة - والتى قادت إضرابات ديسمبر ٢٠٠٦ وسبتمبر ٢٠٠٧ - عن المطالبة بحد أدنى قومى للأجور يبلغ ١٢٠٠ جنيه شهريا. ويبلغ ذلك أقل قليلا من دولارين يوميا للفرد فى أسرة مصرية يبلغ متوسط عدد أفرادها ٣.٧ شخص. وكان الاتحاد العام لنقابات عمال مصر قد أوصى برفع الحد الأدنى للأجور إلى ٤٠٠ جنيه شهريا، ولكنه رفع اقتراحه إلى ٦٠٠ جنيه كرد فعل لما طالب به

عمال غزل المحلة. ومن الواضح أن الاتحاد العام يستشعر الضغط من الحركة العمالية التي لا يسيطر عليها.

الحركة العمالية والقطاع الخاص

وكان (البرنامج الجديد للاقتصاد الحر) neo-liberal economic program قد أثار مخاوف العمال من احتمال فقدانهم لوظائفهم. وبالإضافة لذلك، ربما كان مستثمرو القطاع الخاص عازفين عن دفع مزايا اجتماعية طويلة المدى، مثل حصص أسهم يملكها العمال في المؤسسات أو مساهمات في صناديق التقاعد التي أهملها بعض مديري القطاع العام لفترة تمتد إلى عقد من الزمان. وعلى الرغم من أن قانون الخصخصة عام ١٩٩١ قد حظر التسريح الجماعي بعد خصخصة أي مؤسسة، إلا أن مديري مؤسسات القطاع العام المزمع خصخصتها عادة ما يحاولون زيادة جاذبيتها عن طريق الإقلال من حجم العمالة قبل بيعها. ويشير مسح لست عشرة مؤسسة تمت خصخصتها منذ عام ١٩٩٥ إلى أن اثنتين منها فقط - هما شركة الأهرام للمشروبات التي خصخصت عام ١٩٩٧، وفندق سان ستيفانو الذي خصخص عام ١٩٩٨ - زادتا من عدد العاملين لديهما على الرغم من تلقيهما استثمارات كبيرة جديدة في رأس المال. وقد زادت شركة المشروبات قوة العمل بها من ٣١٠٠ إلى ٥٥٠٠ عامل، بينما زادت الأجور بنسبة ٢٠٠-٣٠٠٪، وهي نتيجة فريدة للخصخصة لم تتكرر تقريبا. وبالنسبة لفندق سان ستيفانو فكان قد أغلق أبوابه عام ١٩٩٣، ولذلك فلم يكن من الصعب زيادة قوة العمل هناك بنسبة كبيرة استعدادا لإعادة افتتاحه في يونيو عام ٢٠٠٧. أما شركة أسمنت أسيوط التي انخفضت قوة العمل بها من ٣٧٧٤ إلى ٨٦٥ عاملا بعد خصخصتها عام ١٩٩٩، فتعد مثالا صارخا للاتجاه الأكثر شيوعا[١٩].

هناك عدد قليل من اللجان النقابية في القطاع الخاص. فهناك حوالي ١٣٠٠ منشأة خاصة في مدينة العاشر من رمضان، بينما ٢٥ منها فقط تقريبا بها لجان نقابية. وتضم مدينة السادس من أكتوبر ألف منشأة خاصة، بينما عدد من يضم منها لجانا نقابية لا يزيد على ١٢ تقريبا[٢٠]. ويشاع أن العمال يجبرون على توقيع خطابات استقالة غير مؤرخة قبل توظيفهم في منشآت القطاع الخاص، وذلك حتى يمكن فصلهم دون تعويضهم إذا ما تسببوا في أي مشاكل. وعادة ما توظف منشآت العمال بعقود مؤقتة وتفصلهم قبل أن يصبحوا دائمين.

ومع ذلك، فأثناء الموجة الحالية من احتجاجات الطبقة العاملة شكل عمال القطاع الخاص أحد العناصر البارزة للحركة أكثر من أي وقت مضى. وكان أكبر إضرابات القطاع الخاص قد وقع في



ترددت أصداء انتصار عمال غزل المحلة في قطاع النسيج. فخلال الأشهر الثلاثة التالية شارك آلاف العمال في عشرة على الأقل من مصانع النسيج في الدلتا والإسكندرية في إضرابات وأشكال أخرى من التباطؤ في العمل كنوع من الاحتجاج

الشركة العربية بولفارا للغزل والنسيج بالإسكندرية، وهي شركة ناجحة نسبياً كانت قد خصخصت في الموجة الأولى لبيع القطاع العام في منتصف التسعينيات. وفي ٢٤ مارس و٢ أبريل عام ٢٠٠٧، أضرب ما يقارب نصف عمال الشركة البالغ عددهم ١٢ ألف عامل احتجاجا على التمييز بين العمال والمديرين في تخصيص أسهم الشركة عند بيعها وعدم دفع ريع الأسهم للعمال وإلغاء العطلة الأسبوعية مدفوعة الأجر والإجازات المرضية مدفوعة الأجر. ومنذ عام ١٩٩٧ الذي حصل فيه العمال على ٦٠ جنيها، لم يحصلوا بعد ذلك على أية عوائد على أسهمهم. وقد رفضوا عائدا قدره ٢٢ قرشا للسهم[٢١]. وتشير مطالب عمال الشركة العربية بولفارا إلى أن عمال القطاع العام محقون في مخاوفهم من أنه حتى لو وافقت المؤسسات المخصخصة في البداية على دفع رواتب وامتيازات مجزية، فإن متطلبات المنافسة في السوق العالمية سوف تؤدي في النهاية إلى تآكل رواتبهم وظروف عملهم.

قضايا الجندر

تعد نسبة النساء في قوة العمل بالصناعات الرسمية في مصر منخفضة بالمقارنة بالمستوى الإقليمي والعالمي. ولكن تلك النسبة تضاعفت في العصر الجديد للاقتصاد الحر من ٩.١٠٪ عام ١٩٨١ (٩١٧ ألف عاملة) إلى ٨.٢١٪ عام ٢٠٠٢ (٣.٤ مليون عاملة). وتتأرجح النسبة منذ ذلك الوقت بين ٢٢-٢٣٪. ويرجع ذلك أساسا إلى الحاجة الاقتصادية. فثلث الأسر المصرية لا يمكنها أن تعيش على دخل واحد فقط، بينما وصلت نسبة الأسر التي تمولها المرأة إلى ٢٥٪ عام ١٩٩٥. وفي الوقت نفسه ارتفعت نسبة البطالة بين النساء من ١٩٪ عام ١٩٨١ إلى ٢٤٪ عام ٢٠٠٢[٢٢].

ومثلما هو الحال في كل مكان آخر، تركزت عمالة النساء في صناعة الغزل والنسيج وبأقل الأجور، وتصل نسبة النساء في صناعات الغزل والنسيج إلى ٣٥٪ من إجمالي العمال، وهي تفوق كثيرا نسبة ٥.٨٪ في صناعات المنتجات الطبية ونسبة ٥.٦٪في صناعات الأغذية[٢٣]. إن قطاعي الغزل وصناعة الملابس الجاهزة اللذين يدفعان أجورا أقل يستقطبان العاملات من النساء. فتبلغ نسبة النساء ٥١٪ في صناعة النسيج بالقطاع العام. أما في صناعة القمصان فنسبتهن ٤٠٪ وكلهن في القطاع الخاص، وتبلغ نسبتهن ٥٢٪ في كافة مصانع الملابس الأخرى التابعة للقطاع الخاص[٢٤].

وقد لعبت النساء دورا بارزا في المظاهرات والإضرابات العامة في كل من منشآت القطاعين العام والخاص. ففي إضراب شهر ديسمبر ٢٠٠٦ بشركة غزل المحلة كانت النساء القوة المحركة التي أوقفت العمل وساندت الإضراب. وفي مصنع المنصورة- إسبانيا للملابس الجاهزة كن القوة الرئيسية وراء الإضراب الذي استمر لمدة شهرين.

لقد أنشأت شركة المنصورة- إسبانيا منشأة خاصة عام ١٩٨٥، ولكن أحوالها لم تسر على ما يرام. وأصبحت الشركة مدينة للمصرف المتحد الذي استولى على الشركة بالتبعية. ولم تدفع الشركة مكافآت أو عوائد أرباح لعمالها في الفترة بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٦ وفي خلال عام ٢٠٠٧ تم تخفيض العمالة من ١٢٠٠ إلى ٢٨٤ عاملا[٢٥].

وكرد فعل لشائعات بتصفية الشركة وبيع أرضها لأكاديمية الدلتا، وهي مدرسة خاصة ملاصقة للمصنع، شرع العمال الباقون - وثلاثة أرباعهم من النساء - في إضراب اعتصامي في الفترة من ٢١ أبريل إلى ٢١ يونيو ٢٠٠٧، وكانت النساء اللاتي يتقاضين راتبا أساسيا يتراوح بين ١٣٥ -١٥٠ جنيها شهريا قد أصابهن الإحباط من إمكانية استمرار الشركة والحفاظ على وظائفهن. وقد بدأ الكثير منهن إضرابا عن الطعام وهددت خمس منهن بالانتحار. وانتهى الإضراب بانتصار ساحق. فقد تلقى العمال رواتبهم عن شهري مايو ويونيو ومنحة عيد العمال البالغة ١١٠ جنيهات، بالإضافة لمبلغ لا يقل عن ٣٠ جنيها في صورة علاوات اجتماعية لعام ٢٠٠٦ لكافة العاملين بمن فيهم العاملون بعقود مؤقتة (العقود المؤقتة هي آلية كثيرا ما تلجأ إليها مؤسسات القطاع الخاص لحرمان العمال من حقوقهم). ولم يعاقب أي من العاملين المشاركين في الإضراب، وتم إلغاء قرارات فصل ستة منهم. والأكثر أهمية أن البنك المصري المتحد تعهد بعدم تصفية الشركة. وسوف يضخ رأسمال جديدا أو يبيع الشركة إلى مشتر يوافق على استمرار الإنتاج دون فصل أي من العاملين أو تخفيض رواتبهم[٢٦]. ولم تمنع الوداعة المتوقعة أو الخلفية التقليدية تلك العاملات من المشاركة الفعالة في الإضراب. وفي صورة على الصفحة الأولى لجريدة «المصري اليوم» ظهرت العاملات من النساء يرتدين الحجاب والنقاب ويقفن كتفا بكتف متضامنات مع زملائهن من الرجال[٢٧].

ومع ذلك، فحتى يونيو ٢٠٠٨، لم يستطع عمال المنصورة- إسبانيا إجبار الحكومة على تنفيذ وعودها. وبعد تردد شائعات بأن المصرف المتحد سوف يبيع المصنع إلى رجل الأعمال وعضو البرلمان الذي يمتلك أكاديمية الدلتا، قام عمال المنصورة- إسبانيا يوم ٣١ مايو ٢٠٠٨ بالإضراب مرة ثانية احتجاجا على بيع الشركة دون تسلمهم تعويضاتهم المستحقة[٢٨].

وقد بدأت بعض الناشطات من النساء في المشاركة في أنشطة خارج نطاق عملهن. ففي يوم ٢٨ مارس ٢٠٠٨ نظمت مؤسسة المرأة الجديدة مهرجانا بالقاهرة لتكريم النساء اللاتي شاركن

بقوة فى حركة الإضراب عام ٢٠٠٧[٢٩]. وتم تكريم النساء الرائدات فى إضرابات شركة مصر للغزل والنسيج وموظفى الضرائب وشركة الحناوى للدخان بدمنهور. وبالإضافة لذلك، كرم الاحتفال امرأة من «وادى عمار» بالقرب من الإسكندرية والتى قامت بحشد جيرانها للاحتجاج على التلوث الناتج عن غبار الأسمنت المتولد من شركة أسمنت بورتلاند والذى كان يتسبب فى مرض الربو وأمراض أخرى. وبعد الاحتفال جلست النساء للقاء عدد من زملائهن الرجال لتنسيق الأنشطة المستقبلية. ويقال أن امرأة مجهولة الشخصية هى التى بدأت المظاهرات فى المحلة الكبرى يوم ٦ أبريل ٢٠٠٨[٣٠]. وقام عدد كبير من عاملات شركة غزل المحلة بحضور المؤتمر السنوى للجنة التنسيقية للحقوق والحريات النقابية والعمالية فى مايو ٢٠٠٨ . إن المشاركة فى الحركة العمالية مكنت بعض النساء من اكتشاف قدراتهن السياسية، وهذا فى حد ذاته تطور بالغ الأهمية. فلو كان مقدرا لمصر أى مستقبل ديمقراطى فعلى نصف السكان من النساء أن يشاركوا فيه بغير قيد.

الحركة العمالية ومستقبل الديمقراطية

إن نظام مبارك ليس معتادا على التعامل مع معارضة منظمة، وقد شعر بالتهديد بعد أن فاز ٨٨ من الإخوان المسلمين بمقاعد فى الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٥، وفى بداية عام ٢٠٠٧، شن النظام حملة قمع ضد الإخوان المسلمين. وقد ألقى القبض على ٨٠٠ من أعضاء الجماعة على الأقل منذ ذلك الوقت.

أما القمع الموجه للحركة العمالية – والتى لم يشكل الإخوان المسلمون فيها عنصرا هاما – فلم تسلط عليه الأضواء العامة أو العالمية إلى أن اندلعت مظاهرات المحلة الكبرى يومى ٦-٧ أبريل ٢٠٠٨. فقد دعا عمال شركة غزل المحلة إلى إضراب يوم ٦ أبريل لإجبار الشركة على تنفيذ وعودها السابقة وللتأكيد على مطالبهم بحد أدنى للأجور يبلغ ١٢٠٠ جنيه. وقد احتلت قوات الأمن المصنع يوم ٢ أبريل ومارست ضغوطا مكثفة على أعضاء لجنة المندوبين لإلغاء الإضراب. وفى الوقت نفسه استجابت الشركة لبعض مطالب العمال البارزة، بما فى ذلك زيادة البدل النقدى للوجبة الغذائية من ٤٣ إلى ٩٠ جنيها شهريا والالتزام بتنفيذ وعد سابق بتوفير مواصلات مجانية من وإلى العمل. لقد أجهض التلويح بالجزرة والعصا إضراب ٦ أبريل، رغم أن بعض العاملين كانوا مستاءين جدا لإلغاء الإضراب.

وبعد تغيير وردية الساعة ٣.٣٠ عصرا مباشرة، اندلعت مظاهرة فى «ميدان الشونة» معظمها من النساء والأطفال. وقد بدأ الجمع بالغناء «يا باشا، يا بيه، رغيف العيش بربع جنيه». وللرد على هذا الاحتجاج التلقائى، قام بلطجية النظام بإطلاق دفعات من الحجارة لتفريق الحشود بينما أطلقت قوات الأمن المركزى على المتظاهرين قنابل الغاز المسيل للدموع واستعدت لضربهم بالهراوات. وقد أوضحت الحشود وجهة نظرها السياسية عندما أحرقت شعارات مرشحى الحزب الوطنى الديمقراطى للانتخابات المحلية المقررة يوم ٨ أبريل ٢٠٠٨، وقد استمر العنف يوم ٧ أبريل عندما مزق حشد يتكون من عدة آلاف – أكبر كثيرا من اليوم السابق – ملصقا كبيرا لحسنى مبارك، وفى خلال هذين اليومين، اعتقلت قوات الأمن أكثر من ٣٣٠ شخصا وضربت المئات وأصابت تسعة بجراح خطيرة وقتلت صبيا عمره خمسة عشر عاما يدعى أحمد على مبارك برصاصة فى رأسه بينما كان يقف فى شرفة منزله.

بعد قمع المظاهرات، سارع وفد حكومى رفيع المستوى يقوده أحمد نظيف رئيس الوزراء بزيارة المحلة الكبرى لاستعادة الهدوء، وأعلن رئيس الوزراء عن مكافأة شهر لعمال الشركة ونصف شهر لكل عمال النسيج الآخرين. ووعد وزير الاستثمار محمود محيى الدين بتسهيلات نقل أفضل للعاملين ومخابز خاصة لتوزيع الخبز المدعم وإحياء الجمعية التعاونية لتوفير الأرز والزيت والسكر والدقيق بأسعار مدعمة. وبالإضافة لذلك فسوف يتلقى المستشفى العام بالمدينة معدات طبية جديدة بالإضافة إلى طاقم طبى إضافى متخصص. ويعتقد بأن معدات طبية معيبة ربما تسببت فى وفاة ثمانية مرضى بالقلب فى مركز القلب بالمحلة فى شهر مارس[٣١].

ومن بين الأهداف الأخرى التى استهدفها النظام بالقمع «دار الخدمات النقابية والعمالية» التى نشأت عام ١٩٩٠ فى أعقاب إضرابين بمصانع شركة الحديد والصلب بحلوان فى يوليو وأغسطس ١٩٨٩، وكان من بين زعماء العمال المضربين كمال عباس، الذى أصبح أحد الأعضاء المؤسسين لدار الخدمات النقابية والعمالية بعد فصله من العمل لمشاركته فى إضراب غير قانونى. وقد حاولت دار الخدمات لعدة سنوات أن تسجل نفسها كمنظمة غير حكومية طبقا للقانون رقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢، ولكن وزارة التضامن الاجتماعى رفضت طلبها للتسجيل حسب توصية جهاز الأمن. وبالتالى كانت دار الخدمات تعمل كشركة مدنية تقدم التدريب والدعم للعمال وتقوم بنشر أخبار كفاح العمال وتدافع عن حق الإضراب وتوفر الخدمات التى كان يتوجب على الاتحاد العام لنقابات عمال مصر أن يقدمها ولكنه لا يفعل.

منذ إنشاء الاتحاد العام سنة ١٩٥٧، كان يعمل كذراع للدولة بغض النظر عن التغيرات التى طرأت على النظام منذ ذلك الوقت. وقد حرمت كافة عناصر المعارضة بداية من الشيوعيين وانتهاء بالإخوان المسلمين من الترشح لانتخابات اللجان النقابية. وكان هناك دائما تلاعب بدرجة أو بأخرى فى انتخابات اتحاد العمال. وقد أعلنت دار الخدمات النقابية والعمالية عن الكثير من الانحرافات فى انتخابات خريف عام ٢٠٠٦ والتى أطلقت عليها «الأسوأ فى التاريخ المصرى»[٣٢].



نجحت الحركة العمالية وتظاهرات النخبة الفكرية فى المجتمع والتى نظمتها حركة كفاية واللجان الشعبية الأخرى المماثلة فى غرس ثقافة الاحتجاج فى مصر

وقد أغلق النظام مقار دار الخدمات النقابية والعمالية فى ضاحية حلوان الصناعية بالقاهرة فى ٢٥ أبريل عام ٢٠٠٧، وكان قد تم قبيل ذلك إغلاق مكتبيها الإقليميين فى نجع حمادى والمحلة الكبرى فى ٢٩ مارس و١١ أبريل ٢٠٠٧ على التوالى. وقد أبلغ عادل زكريا رئيس تحرير مجلة دار الخدمات «كلام صنايعية»، أبلغ فايزة راضى (الكاتبة بجريدة الأهرام ويكلى Al-Ahram Weekly) بأن «السلطات تضيق الخناق الآن على القلب المحرك للأحداث لأنها لا تعرف كيف تتعامل مع موجات الإضرابات التى هزت البلاد خلال الأشهر الستة الماضية. إنهم يحتاجون إلى كبش فداء، ولذلك فإنهم يتهموننا بتحريض العمال على الإضراب. ولكن كيف يتهموننا بالتحريض على كل الإضرابات التى وقعت عام ٢٠٠٦ والتى يقدر عددها بـ ٢٢٠ إضرابا»[٣٣].

من ناحية، ربما كان إغلاق مقار دار الخدمات النقابية والعمالية رد فعل غاضبا على خطاب تلقاه الرئيس حسنى مبارك فى ٢٠ أبريل ٢٠٠٧ من «جاى رايدر Guy Ryder»، الأمين العام للاتحاد الدولى لاتحادات العمال[٣٤]. وقد طلب «جاى رايدر» من الرئيس مبارك إصدار تعليماته للسلطات المصرية المختصة برفع الحظر عن أنشطة دار الخدمات. وقد تقدم الاتحاد العام لعضوية الاتحاد الدولى لاتحادات العمال. ولكن طلبه رفض مرتين لأنه لا يعتبر مستقلا عن النظام، وهى وجهة نظر أكدتها مرارا دار الخدمات ومنظمات عمالية تقدمية أخرى.

كان ينظر إلى الهجوم على دار الخدمات باعتباره تهديدا لكافة المنظمات غير الحكومية التى تنادى بالتحول الاجتماعى. ولذلك فقد تلقت دار الخدمات دعما قويا من ثلاثين منظمة غير حكومية أصدرت بيانا فى مؤتمر صحفى يوم ٢٤ أبريل عام ٢٠٠٧، وقام ممثلون عن العديد من المنظمات غير الحكومية باحتلال مكتب دار الخدمات فى حلوان فى اليوم التالى. ولكنهم لم يستطيعوا منع مئات من قوات الأمن المتجمعة بالخارج من تنفيذ أمر الغلق فى النهاية.

وقد حكم مجلس الدولة فى ٣٠ مارس ٢٠٠٨ بأنه ليس لدى الحكومة الحق فى رفض

طلب دار الخدمات النقابية والعمالية بالتسجيل كمنظمة غير حكومية أو في إغلاقها. ومن الجدير بالذكر أن المحكمة قررت بأن اعتراض قوات الأمن ليس سببا وجيها لرفض طلب تسجيل منظمة غير حكومية. ومع ذلك فقد رفضت الحكومة الانصياع لحكم المحكمة على الرغم من انتهاء مهلة الاستئناف. كما أصدر قسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بمنظمة «مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch» الأمريكية تصريحا بشأن القضية. فقد ذكر «جو ستورك Joe Stork» نائب مدير القسم: «لقد تحدت الحكومة المصرية السلطة القضائية بوقاحة لمدة تزيد على شهرين، وتواصل قمع الأنشطة السلمية للجمعية العمالية. إن ادعاء الحكومة بأن مصر تلتزم بحكم القانون قد فقد أية مصداقية كانت له في يوم من الأيام»[٣٥].

حتى الآن، لم تتعرض اللجنة التنسيقية للحقوق والحريات النقابية والعمالية - وهي منظمة ذات أهداف وأنشطة مشابهة لدار الخدمات النقابية والعمالية لمثل تلك الإجراءات القمعية. وقد أنشأت اللجنة التنسيقية عام ٢٠٠١ لمراقبة انتخابات اتحاد العمال المنعقدة في ذلك العام. وبناء على المخالفات التي سجلتها، قام صابر بركات وخالد على عمر بكتابة تقرير بعنوان «عمال بلا نقابات ونقابات بلا عمال». ومنذ ذلك الوقت، عقدت المنظمة اجتماعات شهرية في مكتب مركز هشام مبارك للقانون بالقاهرة، وكل ذلك بهدف تعريف العمال والنقابيين العماليين بحقوقهم القانونية وتبادل المعلومات والخبرات.

وقد نجحت الحركة العمالية وتظاهرات النخبة الفكرية في المجتمع والتي نظمتها حركة كفاية واللجان الشعبية الأخرى المماثلة في غرس ثقافة الاحتجاج في مصر. وقد ساهم ذلك في تشكيل الوعي بالمواطنة والحقوق بصورة أعمق كثيرا من كل ما جرى على ساحات السياسات الحزبية أو أنشطة المنظمات غير الحكومية. ومع ذلك، كانت الحركة العمالية وحدها قادرة على تحريك أعداد كبيرة من المواطنين لفترة طويلة والفوز بكل ذلك الحجم من التأييد.

ويرجع ذلك - جزئيا - إلى أن العديد من العمال يواجهون ظروفا اقتصادية تعترف الغالبية العظمى من المصريين بأنها ظالمة، وليس أمامهم من خيار سوى الكفاح في سبيل حقهم الأساسي في إطعام عائلاتهم. ومن جهة أخرى، يعود ذلك إلى أن العديد من العمال قد تمركزوا بأعداد كبيرة في مقار عملهم، ولذلك فقد تعلموا من عملهم الحاجة للتعاون والمحافظة على وحدتهم، وهو ما عجزت عنه الأحزاب السياسية والمنظمات الأخرى التي يقودها مفكرون. ومن جهة ثالثة: يرجع ذلك إلى قدرة العمال على استعادة ثقافة الكفاح التي تعود إلى بداية القرن العشرين والتي تتضمن المشاركة البارزة في كل أهم الحركات السياسية والاجتماعية في تاريخ مصر الحديث.

ولكن على الرغم من وجود الإمكانية، فلا يمكنلغاية الآن تكوين بديل متماسك يحل محل الاتحاد العام لنقابات عمال مصر أو الحزب الوطني الديمقراطي أو النظام الحالي. وقد أثبت العمال بالفعل قدرتهم على لعب دور قيادي في حركة الاحتجاج الحالية. ولو قدر أن تكون هناك حركة فاعلة للديمقراطية في مصر، فيجب أن يكون العمال جزءا أساسيا فيها. ※



العديد من العمال يواجهون ظروفا اقتصادية تعترف الغالبية العظمى من المصريين بأنها ظالمة، وليس أمامهم من خيار سوى الكفاح في سبيل حقهم الأساسي في إطعام عائلاتهم

الهوامش

١- نقلا عن مصطفى البسيوني وعمر سعيد، رايات الإضراب في سماء مصر: ٢٠٠٧، حركة عمالية جديدة (القاهرة: مركز الدراسات الاجتماعية ٢٠٠٧)، صفحة ١٣ . شارك ما يقارب ٢٠٠ ألف عامل في إضرابات في الفترة من ٧ ديسمبر ٢٠٠٦ إلى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٧، وهما تاريخا بداية الإضرابين الرئيسيين بشركة مصر للغزل والنسيج.

٢- مؤسسة «كارانا CARANA»، : الخصخصة في مصر: مراجعة ربع سنوية، أبريل-يونيو ٢٠٠٢ (القاهرة)، صفحة ٨ .

٣- رشيد محمد رشيد وزير التجارة الخارجية والصناعة، والدكتور بطرس غالي وزير المالية، والدكتور محمود محيي الدين وزير الاستثمار، والدكتور طارق كامل وزير الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات.

٤- صندوق النقد الدولي. نشرة المعلومات العامة رقم ٠٥/٧٢، ٧ يونيو ٢٠٠٥، على الموقع http://www.imf.org/external/np/sec/pn/2005/pn0572.htm

٥- مجموعة أوكسفورد للتجارة: التقرير: صمود مصر (لندن، ٢٠٠٨)، صفحة ٥٢ .

٦- مركز الأرض لحقوق الإنسان، إصدارات الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، رقم ٣٥: احتجاجات العمال بين إهمال الحكومة وحديث الإصلاح (يوليو ٢٠٠٤)، ورقم ٣٦: احتجاجات العمال في النصف الثاني من عام ٢٠٠٤ (فبراير ٢٠٠٥).

٧- المصدر نفسه، رقم ٣٩ (أغسطس ٢٠٠٥)، ورقم ٤٢ (يناير ٢٠٠٦)، ورقم ٥٣ (فبراير ٢٠٠٧)، ورقم ٥٥ (يوليو ٢٠٠٧)، ورقم ٥٨ (فبراير ٢٠٠٨). أعلن «المرصد العمالي والنقابي» المنشأ حديثا عن أكثر من ٥٨٠ احتجاجا جماعيا عام ٢٠٠٧ .

٨ - الموقع http://arabist.net/arabawy/wp-content/uploads/2008/04/feb-2008-report1.pdf

٩- راجي أسعد، «تشغيل الذكور والإناث في الدول المتأقلمة: مصر من منظور مقارن»، من كتاب «إليانور دوماتو Eleanor Doumato، ومارشا بريبستاين بوساسني Marsha Pripstein Posusney»، (النساء والعولمة في الشرق الأوسط العربي: التحول الديناميكي بين الجنسين، دار بولدر للنشر: لين راينر Lyme Reiner، ٢٠٠٣)، صفحة ١١٩-١٤١ .

١٠- جمهورية مصر العربية: تحديث لتقييم الفقر، تقرير رقم ٣٩٨٨٥ (البنك الدولي: واشنطون العاصمة، ٢٠٠٧).

١١- تنشر في جريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٣ مايو ٢٠٠٧ .

١٢- منى سعيد، «انهيار وارتفاع المكاسب والظلم في مصر»، من كتاب راجي أسعد «زيارة جديدة لسوق العمل المصري» (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، تحت الطبع).

١٣- وائل جمال، «التضخم في مصر يرفع أسعار الأغذية لأعلى مستوى منذ ثلاث سنوات»، وكالة رويترز للأنباء، ٨ مايو ٢٠٠٨ .

١٤- المصري اليوم، ١٣، ١٧، ٢٣ مايو ٢٠٠٨ .

١٥- صابر بركات، الحق في الأمل وحقوق العمال (القاهرة: مركز هشام مبارك للقانون، ٢٠٠٧) صفحة ١٧٨-١٨٠ .

١٦- غرفة التجارة الأمريكية في مصر، صناعة الغزل والنسيج في مصر (القاهرة، أغسطس ٢٠٠٤) صفحة ٣٣ .

١٧- طبقا لإيصال استلام مرتب أحد العمال بشركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى لشهر فبراير ٢٠٠٧، مقابلة، ٩ مارس ٢٠٠٧ .

١٨- مقابلة، ١٩ مارس ٢٠٠٥ .

١٩- ليونيل نايت (Lionel Knight)، تقييم آثار ما بعد الخصخصة: التقرير النهائي - مراجعة لسبعة عشر شركة (القاهرة: الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID، ٢٢ مارس ٢٠٠٧).

٢٠- مصطفى البسيوني (المراسل العمالي لجريدة الدستور)، محاضرة في مركز دراسات الشرق الأوسط، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٣ أكتوبر ٢٠٠٧ .

٢١- المصري اليوم، ٤ مايو ٢٠٠٧ .

٢٢- الهيئة العامة للتعبئة والإحصاء، مسح لعينة من قوة العمل في هيئة الاستعلامات المصرية: «المرأة المصرية والاقتصاد»، الموقع http://www.sis.gov.eg/En/Women/Society/Economy/10030400000000001.htm هالة شكر الله «من البيت إلى موقع العمل: دراسة عن ظروف العمالة النسائية في مصر» مجلة طيبة: العدد ٨ (ديسمبر ٢٠٠٦): صفحة ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥ .

٢٣- هالة شكر الله، «من البيت إلى موقع العمل» صفحة ٣٦ .

٢٤- الهيئة العامة للتعبئة والإحصاء: إحصاء على الإنترنت للإنتاج الصناعي، ٢٠٠٠/٢٠٠١، «أعداد المنشآت وأعداد المشتغلين حسب فئات السن والنوع».

٢٥- ليام ستاك (Liam Stack)، «عمال المنصورة يهاجمون بيع المصنع، الاعتصام يصل إلى اليوم العشرين»، جريدة «ديلي ستار The Daily Star»، ١١ مايو ٢٠٠٧ .

٢٦- الموقع http://arabist.net/arabawy/2007/06/21/victory-for-the-mansoura-espana-%d8%a5%d9%86%d8%aa%d8%b5%d9%80%d9%80%d9%80%d8%a7%d8%b1-%d8%b9%d9%85%d8%a7%d9%84-%d8%a7%d9%84%d9%85%d9%86%d8%b5%d9%88%d8%b1%d8%a9-%d8%a3%d8%b3%d8%a/8%d8%a7%d9%86%d9%8a

٢٧- المصري اليوم، ٥ مايو ٢٠٠٧ .

٢٨- مقابلة مع مجموعة من عمال مصنع المنصورة أسبانيا في منشأة، ٩ فبراير ٢٠٠٨ . المصري اليوم، ٢٢ أبريل ٢٠٠٨ . الدستور، ٢٢ أبريل ٢٠٠٨ . المصري اليوم، ٣١ مايو ٢٠٠٨، البديل، ١-٢ يونيو ٢٠٠٨ .

٢٩- «مؤسسة المرأة الجديدة» هي منظمة غير حكومية مناصرة لحقوق المرأة أنشأت عام ١٩٨٤، ترأس المؤسسة الآن نولة درويش ابنة الراحل يوسف درويش الذي كان محاميا عماليا وناشطا شيوعيا.

٣٠- الموقع http://arabist.net/arabawy/2008/06/13/mahalla_women_intifada

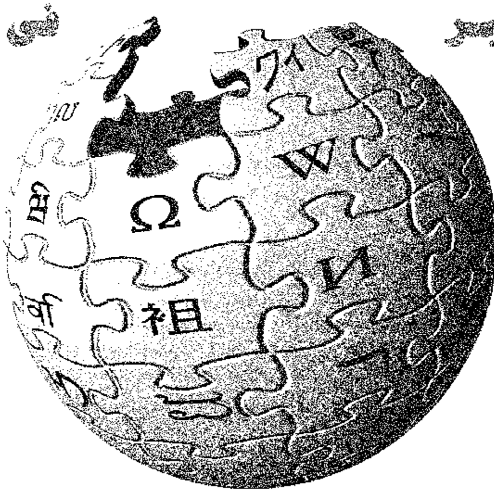
٣١- جريدة «ديلي نيوز إيجيبت Daily News Egypt»، ٧ أبريل ٢٠٠٨ .

٣٢- فايزة راضي، «بديل يعتمد عليه»، جريدة الأهرام ويكلي، ٢٩ مايو - ٤ يونيو ٢٠٠٨ .

٣٣- فايزة راضي، «العمال مازالوا صامدين»، جريدة الأهرام ويكلي، ٣-٩ مايو ٢٠٠٧ .

٣٤- النص على الموقع http://www.ituc-csi.org/IMG/pdf/EGYPT_-_ITUC_protest_re_CTUWS_20_April_2007_FORMATTED__2_.pdf

٣٥- منظمة مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch، «مصر: امتثلوا للمحكمة، واعترفوا بجمعية العمال»، ٦ يونيو ٢٠٠٨ .



سحر الويكيبيديا
Wikipedia

نيكلسون بيكر

يعقد المؤتمر الدولى
الرابع لمشاركى ومحررى
الويكيبيديا Wikimania 2008 فى مكتبة
الإسكندرية هذا الشهر
(من ١٧ إلى ١٩ يوليو)

إن الويكيبيديا ببساطة شيء لا يصدقه عقل. إنها موسوعة ضخمة تنقل الباحث عن الحقائق فى دوائر لا متناهية، ذات خصوصية فى البيئة، دقيقة، فوضوية، مضحكة، صادمة، حافلة بالمناظرات الجياشة - وهى مجانية وسريعة. بإمكانك الكشف فى خلال ثوان معدودة عن معنى كلمات مثل، «Diogenes of Sinope» أو «turnip» أو «Crazy Eddie» أو «Bagoas» أو «quadratic formula» أو «Bristol» أو «Beaufighter» أو «squeegee» أو «Sanford B. Dole» وسوف تتوفر لديك معرفة لم تتح لك من قبل. إنها أشبه بمدينة جوية فسيحة تعج بأناس يذهبون ويجيئون بخطوات رشيقة فوق ممرات ضيقة، يحملون سلالاً للنزهات مليئة بالوجبات الخفيفة المغذية.

يستخدم الويكيبيديا عدد من الناس يفوق مستخدمى الأمازون Amazon والإى باى eBay - الحق أنها تحتل مكانًا بين العشرة الأوائل فى قائمة شركة اليكسا Alexa بصحبة تلك المواقع الترفيهية القائمة على الربح من أمثال ماى سبيس MySpace وفيسبوك Facebook ويوتيوب YouTube. لماذا؟ لأنها تضم ٢,٢ مليون مقالة، ولأن موقعها غالبًا ما يحتل مقدمة قائمة محرك البحث جوجل، ولأنها ببساطة تبعث فى الباحث الرضا لعثوره على مراده فيها - حتى وإن كانت المقالة الموجودة تعوزها الحرفية قليلاً. إن أى فشل أو غلطة مطبعية أو أثر لتخريب متعمد للموقع سوف يذكرك بأن هذه الموسوعة الهائلة ليست منتجاً تجارياً. فالمتصفح لا يجد بها علامات تعلن عن موقع إى تريد TRADE×E أو classmates.com، ولا تتفرق بصفحات الموقع إعلانات جانبية عن آد سينس AdSense. لقد أسس الموسوعة غرباء مختلفون تمام الاختلاف وذلك خلال أقل من ثمانية أعوام إلا أن شيئًا ما جذبهم إلى غرض مشترك لا يبغى الربح. وقد اجتذبهم لأن الويكيبيديا بدت، رغم كونها مرجعًا، فى منتهى التواضع. إذ طلبت المعونة. وحين طلبتها، استخدمت كلمة مؤثرة كل التأثير: «بذرة». ففى أسفل أية مقالة قصيرة عن أى موضوع، تعلن: «هذه المقالة عن X مجرد بذرة. بوسعك مساعدة الويكيبيديا من خلال توسيعها. فتفكر فى قرارة نفسك: تلك البذرة التعسة الهزيلة، سوف أعاون. ليس فى التو، فأنا أؤلف كتاباً، لكنى سوف أحاول بحق المساعدة فى يوم من الأيام.

وحينما عاون الناس بالفعل، حملوا اسماً يشبع غرورهم. فالويكيبيديا لم تطلق عليهم اسم «معاونى الويكيبيديا الصغار»، بل «المحررين». لقد كانت أشبه بمشروع اجتماعى ضخم لتجميع أوراق الشجر حيث يفوز الجميع باسم حماة الحديقة. جلب بعضهم أدوات معدنية حرفية باهظة الثمن - بل إن بعضهم أحضر أجهزة يحملونها على ظهورهم لنفخ الأوراق - فيما كان البعض مجرد أولاد يدفعون الأوراق بأقدامهم أو يدسون حفن الأوراق فى جيوب ستراتهم بيد أن ثمة تقديراً لكل ما جاءوا به إلى الكومة من أوراق. وهكذا تزايدت الكومة ووثب الكل إليها وقضوا أسعد الأوقات. ثم تزايدت أكثر فأكثر لتصبح أكبر كومة رأتها عين على الإطلاق فى أى مكان، أعجوبة من أعاجيب العالم. وبعدها ظهر حراس لكومة الأوراق، يروجون لأنفسهم مشككين فى الكومة ومنتقصين من قيمتها. ينظرون شزرًا إلى ما قدمته من حفن ثم يهزون رؤوسهم قائلين إن أوراقك متغضنة زيادة عن اللازم أو مهلهلة زيادة عن اللازم أو عادية زيادة عن اللازم، ثم يرمونها جانبًا. يا للأسف. ويطلق على حراس كومة الأوراق اسم «الحاذفين».

إلا أن هؤلاء الحاذفين أقبلوا فى مرحلة متأخرة. إذ كانت الموسوعة فى البداية مجرد تسلية ليس إلا. كتب أحد المساهمين المجهولين فى تلك الفترة المبكرة:

لقد أحببت الويكيبيديا حباً جماً مع انطلاقتها الأولى وساهمت بعدد من المقالات المستفيضة، باسم مستعار دائماً. قام على الويكيبيديا وقتها تشكيلة متنوعة من المساهمين، يضيف كل واحد منهم عبارات بسيطة إلى المقالات المألوفة لديهم، دون أن تلوح فى الأفق أبداً أية إدارة أو محرر.

لقد نجحت الويكيبيديا ☞

Wikipedia: The Missing Manual
(الويكيبيديا: الكتيب المفقود)
by John Broughton
Pogue Press/O'Reilly 477 pp.,
$29.99 (paper)

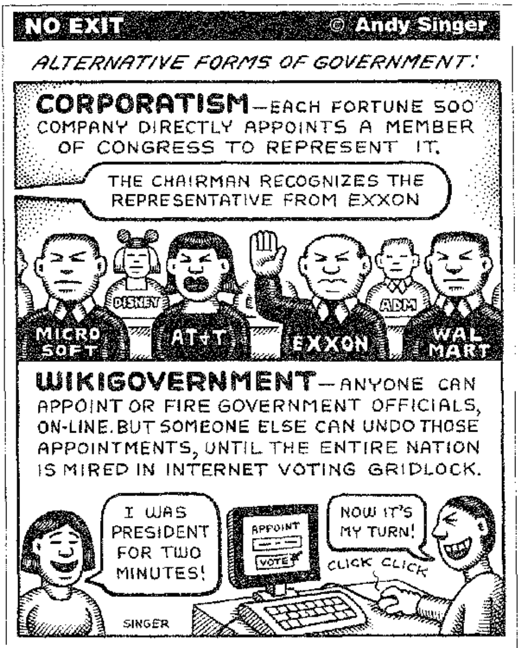
بترتيب مع مجلة:
The New York Review of Books

ترجمة: هالة صلاح الدين

وتضخمت لأنها قامت على همم لم تنتظم بعد لأشخاص يفتقرون إلى المؤهلات المطلوبة. إن أصحاب الأطروحات والمهتمين بالتاريخ والمعجبين المتحمسين للعوالم البديلة لـ جارث نيكس Garth Nix أو روبوتيك Robotech أو العمر النصفي Half-Life أو بي. جي. ودهاوس G.P. Wodehouse أو باتلستار جالاكتيكا Battlestar Galactica أو بافي قاتلة مصاصي الدماء Buffy the Vampire Slayer أو تشارلز ديكينز Charles Dickens أو ألترامان Ultraman - كل هؤلاء الأشخاص الذين رجوا ألا تصبح سنوات تجميع الرسوم الهزلية أو قراءة الروايات أو التحديق في شاشات التليفزيون مضيعة للوقت - سوف يصبون ثمرات عقولهم في الويكيبيديا لأنها انتجت شيئاً ذا بال. وتختلف الويكيبيديا عن كتابة المراجعات على موقع أمازون Amazon حيث يصير الزائر مجرد واحد من بين ملايين يبسطون بالحاح وجهات نظرهم البسيطة بالإضافة إلى قوائم ما يفضلونه من كتب أمام العالم. لقد مثلت جهداً لتشييد شيء ذي مغزى بعيداً عن آراء الفرد، شيء ساعد على تقدم القضية الإنسانية بأكملها.

جسدت الويكيبيديا نقطة التقاء من علّموا أنفسهم بأنفسهم ومن التحقوا بالمؤسسات العلمية باهظة المصاريف. وقد كان من الضروري أن ينسجم أصحاب الآراء الغريبة مع أصحاب الاتجاهات السائدة ليعرضوا بدقة كل الموضوعات. بينما غاب عن الجميع عما يتحدث عنه الآخرون لأن هوية الكل قد توارت وراء اسم مستخدم مضمحل. كل ما ألّم به الجميع هو أن الناتج النهائي ينبغي أن يخرج منطقياً مقروءاً ويبدو موسوعياً للآذان. يجب أن يتبدى صريحاً قليلاً - شاملاً قليلاً - محايداً - مضغوطاً - نزيهاً - لا يهدف إلى الترويج. لقد خففت الحاجة إلى إنتاج جمل مقروءة متجردة - إلى حد ما - من العداوة الطبيعية بين المحررين.

وهكذا تكون هذا الشعور المبهج بأن على المرء إنجاز مهمة ما - ألا وهي إثبات عظمة الإنترنت من خلال تعاون غير مسبوق. تخلى بضعة أشخاص غاية في الذكاء عن مساع أخرى وأنفقوا أياماً وأسابيع وأحياناً سنوات من حيواتهم بغية



إنشاء «ذخيرة من البذر»، وكتابة برنامج إضافي وتصنيف المواضيع وإنشاء الروابط وكتابة المقالات ثم إعادة كتابتها وتهذيبها - بدون نيل أي تقدير عدا نجمة تهنئة على صفحاتهم من حين لآخر وكذا إشباع رغبتهم في الشهرة السرية. إن جانباً من ازدهار الويكيبيديا يكمن في كونها مزاراً لصفة الإيثار - مكاناً للخجولين من المتعلمين لإيداع نتائج أبحاثهم.

كذلك أصبحت عظيمة لأنها بدأت بداية مبكرة: فقد استوعب المشروع منذ البداية مقالات من نسخة ١٩١١ الشهيرة من الموسوعة البريطانية، وهي نسخة متاحة للعامة. ولم تكتف بالموسوعة البريطانية ١٩١١ فقط، إنما احتوت أيضاً قاموس السيرتين اليونانية والرومانية لسميث، وموسوعة ١٩٠٦ لناتال، وموسوعة تشامبر، سيرة إيكن العامة، وقاموس روز السيري، وقاموس إيستين الإنجيلي، والكثير غير هذه المصادر. إذ لاحظ أحد مستخدمي الويكيبيديا الأوائل في أغسطس عام ٢٠٠١ مجموعة مقالات من كتاب سرد موجز لتاريخ الرياضيات لدابليو. دابليو. راوز بول - نشرها على الإنترنت أحد أساتذة كلية ترينيتي بدبلن. كتب مستخدم الويكيبيديا لزملائه من المتطوعين: «هل تلك المقالات صيدة سهلة لأخذها كمادة للويكيبيديا؟ أعلم أننا نلتهم المقالات من موسوعة ١٩١١، هذه من ١٩٠٨، لذا من المفروض ألا يكون عليها هي الأخرى حظر...» ولم يكن عليها حظر بالفعل. كتب راوز بول أن بيير فارينون كان صديقاً حميماً لنيوتن وليبنيتس وآل بيرنولي، وقد اُعتبر - بعد لوبيتال - أول المناصرين وأقواهم في فرنسا لاستخدام حساب التفاضل.

وفي يناير عام ٢٠٠٦، أخذت الويكيبيديا هذا المقال من عام ١٩٠٨، ومعه إضافة وإعادة صياغة حديثة للعبارات ليطالعه القارئ الآن على النحو التالي:

كان فارينون صديقاً لنيوتن وليبنيتس وأسرة بيرنولي. انحصرت إسهاماته الأساسية في علم السكون البياني والميكانيكا. وفيما عدا لوبيتال، كان فارينون أول المناصرين الفرنسيين وأقواهم لاستخدام حساب التفاضل.

إلا أن المقالة أطول الآن بثلاث مرات. إذ تلحق بها إضافات مثيرة للاهتمام، وتتضمن رابطاً لمقالة أخرى تناقش نظرية فارينون الميكانيكية حول الجاذبية.

لقد أنعش التدفق المطرد للمصادر الغزيرة المنمقة لهجة الويكيبيديا. إذ لم تكن مجرد موسوعة مدرسية أو أخرى محلية. فالباحث يفتش عن الفيلسوف دايوجينيس وفي غمضة عين يعثر على ناتج مهذب تهذيباً من الموسوعة البريطانية، نسخة عام ١٩١١ . هكذا كانت نقطة الانطلاق لدايوجينيس. وفي غضون عدة شهور خضع الفيلسوف اليوناني لكل صنوف التغييرات ومئات من التعديلات - نظريات غريبة ونثر يناقش عادات الفلاسفة الكلبيين وإعادة صياغة للجمل وتصحيح للتصحيحات. سوف يجد القارئ الآن في الويكيبيديا الملخص التالي لما بدر من دايوجينيس من استفزازات:

يقال إن دايوجينيس أكل (بل واستمنى) في ساحة السوق وبال على من أهانوه وتبرز في المسرح وأشار إلى الناس بإصبعه الأوسط.

ومع ذلك وسط الناتج الإجمالي الحديث، نجا شيء من النثر الطنان من الموسوعة البريطانية ١٩١١ بدون تغيير حرف:

لقد أعجب النحاتون والرسامون أيما إعجاب بشخصيته في كل من العصور القديمة والحديثة.

لقد مكثت أجزاء من المصادر الأصلية كما تمكث تلك الأحجار الصغيرة في المباني الكلاسيكية المدمجة في حائط يرجع إلى القرون الوسطى.

إلا أن المصادر وصفة الخيرية لا تفسر بالكامل سر ازدهار الويكيبيديا كل هذا الازدهار. لاحظ أحد المؤسسين - جيمي

الويكيبيديا

«جيمبو» ويلز - السبب الحقيقى لنموها المتسارع خلال سنتها الأولى. «إن أكثر ما يميز الويكيبيديا هى أنها مسلية ومحرضة على إدمان البحث» كتب ويلز. محرضة على الإدمان، أجل. إن كل كيانات الإنترنت الناجحة - البريد الإلكترونى وأميركا أونلاين تشات وفيسبوك وجوكر وساكند لايف ويوتوب وديلى كوس وورلد أوف ووركرافت - تتمتع بخاصية تدفع المتصفح إلى إدمانها - فهى تحوز اهتمامك لأنها توفر طريقة منزوية للاختلاط بالناس: فأنت لا تمسك عن تصفحها ناظراً إليها خلسة كما يرنو المرء إلى حفلة صاخبة فى الطابق السفلى من منزله بينما يحاول النوم.

كان بريون فيبر خلال فترة من الفترات الموظف الوحيد المشتغل ساعات عمل كاملة فى الويكيبيديا. فسر فيبر جاذبية الموسوعة فى حوار أجراه مع موظفى جوجل عام ٢٠٠٦ . تُعتبر الويكيبيديا بالنسبة للباحثين مكاناً للتنقيب عن المعلومات، على حد قوله، لكنها تعد بالنسبة للمحررين «تقريباً لعبة من ألعاب الإنترنت، فهى مجتمع تقضى فيه وقتاً وتقوم فيه بشىء ممتع: تهزم بعض سخفاء الإنترنت وتضيف بعض المواد، إلى آخره». إن الغاية من عودة بعض محررى الويكيبيديا إلى الموقع هى هزيمة هؤلاء السخفاء.

هب مثلاً أنك تعمل على كتابة مقالة حول الشيخوخة. تنجح فى إخراج لغة علمية جيدة وتبدأ المقالة بالفعل فى اتخاذ شكلها النهائى.

عقب فترة تجدد يدنو من المثالية (ما بين ٢٠ سنة و٥٠ سنة فى الإنسان): تتميز شيخوخة الأعضاء بضعف القدرة على الاستجابة للتوتر واختلال متزايد للاتزان البدنى وتصاعد خطر الإصابة بالأمراض، وتنتهى تلك السلسلة من التغييرات المحتومة إلى الموت.

كلام معقول!

ثم يأتى أحدهم - مستخدم عنوانه ١٩٠ و١٧، ٨٢، ٢٠٦ وهو أحد المخربين - ليستبدل المقالة بالكامل بجملة واحدة وحيدة: «الشيخوخة هى ما يصيبك لَمّا تعجز جداً جداً جداً». وقع هذا فى ٢٠ ديسمبر من عام ٢٠٠٧ . وبعد مرور دقيقة: تعكس بعدة خطوات ما حرره المحرر المجهول: إذ تعيد التاريخ لتصبح المقالة كما كانت من قبل. لقد حافظتَ للتو على مقالة الشيخوخة آمنة، حتى الوقت الحاضر. لكنك لا بد أن تظل يقظاً لأن شخصاً قد ينقض ثانية فى أية لحظة، وسوف تضطر إلى تعطيل أذاهم باستخدام أشعتك القوية العاكسة. أنت الآن مدمن. لقد غدوت قوة للدفاع عن الخير بمجرد حراستك ومراقبتك لأفعال الجانحين اليافعين.

لا تنال بعض المقالات أى اهتمام وبالتالى لا ينزل بها سوى القليل من التخريب. (ومع ذلك عدلتُ فى مرة من المرات صفحة قصيرة حول فطر نباتى يصيب اللبلاب الإنجليزى: فقد ادعى شخص قبلى أن ٤٠٪ ممن أصيبوا به فارقوا الحياة. بعض المقالات تطولها يد التخريب كثيراً. فى ١١ يناير ٢٠٠٨، تبدل المدخل الرائع الخاص بخنزير الأرض بعبارة «حيوان قبيح»؛ وفى فبراير تم وصف خنزير الأرض فى إيجاز بأنه «موزة منتفخة متوسطة الحجم». وفى ٧ ديسمبر ٢٠٠٧، بدل أحدهم المقالة الطويلة بخصوص بق الفراش لتبدو وكأنها فيلم من أفلام الرعب.

غالباً ما ينشط بق الفراش فى الفجر فقط، وتنحصر ذروة هجومه قبل الفجر بساعة: وإن يحاول أكل دماغك فى أوقات أخرى لو اتيحت له الفرصة.

وبعد انصرام عدة أسابيع، استبدل أحدهم كل شىء بالتالى:

بق السرير ابن الكلب يا أولاد الكلب سفلة مزعجون أغبياء.

عكس أحد البرامج المضادة للتخريب، VoABot II: هذا التحرير بعد أقل من دقيقة من كتابته.

تزايدت عمليات التخريب فى أغسطس ٢٠٠٦ بعد أن دعا الكوميدى ستيفن كولبير - فى أعقاب مقالة ستيسى شيف الرائعة إنما المتحفظة قليلاً عن الويكيبيديا بمجلة ذا نيو يوركر - مشاهدى برنامجه إلى إدراج حقائق من تأليفهم عن زيادة أعداد الفيلة الأفريقية كدليل على وجود شىء اسمه «الواقيبيديا» wikiality وليس «الواقع» - محاولة مبتذلة لكنها لم تخل من فكاهة. لم ينفك الناس يدخلون صفحة الفيل، لذا أُغلقت لفترة من الوقت، لكن لفترة محدودة، ثم تواصلت الحفلة.

وغالباً ما تتأرجح صفحة «الكعك المحمص «بوبتارتس»». إذ تقول صفحة الكعك المحمص اليوم (٨ فبراير ٢٠٠٨) إن استراليا توقفت عن توزيع الكعك المحمص بوبتارتس عام ٢٠٠٥؛ عله كلام صحيح. كما ذكرتْ قبلها أن كوريا توقفت عن توزيع ذلك الكعك، وقبلها أستراليا. ومنذ عدة أيام مضت أشارت إلى أن: البوبتارتس ثنائية: يا له من كعك صغير مثلج، آه يا ألمانيا!» وقد علمتُ من نسخ سابقة أن ثمة ما يزيد على تريليونين من البوبتارتس يباع كل عام، ابتدعه جورج واشنطون، وقد تطور شكل الكعك المحمص بالصين فى بداية العقد السابع من القرن العشرين. أكثر الطعوم شعبية هى «الشراولة المثلجة والقرفة البنية المسكرة. إن البوبنارتس «كعك مسطح»، لا : «البوبتارتس فطيرة مسطحة، كيفين ماكورميك خاسر كبير، هذا غير شذوذه»، لا : «البوبتارتس واق ذكرى مسطح». وفى الخريف الفائت تبدلت الصفحة بأكملها لتعلن : «حلم وبروكلى!!!!!».

يبدو الوضع هكذا فوضوياً لكن حتى صفحة البوبتارتس تخضع إلى السيطرة أكثرية الوقت. إن التغييرات «غير المفيدة» أو «غير الملائمة» - وأحياناً المخدرة والعنصرية والعنيفة - تتغير سريعاً على أيدى الماكينات البشرية والبرامج الحسابية المعاونة. تلك لعبة. إن مستخدمى الويكيبيديا يعدون المخربين مشكلة، وهى بحق مشكلة: غير أن ثمة مراقباً يقترب تفكيره من تفكير الفيلسوف دايوجينيس يؤكد أن الويكيبيديا لم تكن لتحقق أبداً كل هذا النجاح المذهل بدون شياطينها.

إنه كتاب مرجعى قد يخذلك من حيث لا تدرى. فمن العالم ماذا سيظهر لك حين تفتش عن رئيس جامعة هارفارد المحارب، جيمز برايانت كونانت: هل ستجد مقالة عادية تتصف بالتجرد عن شخصه، أم ستجد الصفحة كلها تصرح بأنه «رجل غبى تماماً» (كما حدث خلال ١٧ دقيقة فى ٦ أبريل ٢٠٠٦). كان جيمز كونانت برغم كل شىء رجلاً غبياً تماماً من عدة نواح. إذ وقف موقف المعادى المتعمد للسامية والمؤمن بكل قوة باستخدام الأسلحة غير الدقيقة - كان رجلاً سعيداً لأنه توصل إلى وسائل جديدة لقتل البشر فيما يدير جامعة عظيمة. ومن غير المجانين والشاتمين والصفحات المبتذلة، قد تمسى الويكيبيديا أكثر الموسوعات إفادة على الإطلاق. لكنها أصبحت بدلاً من ذلك لعبة يقذف الناس فيها الآخرين بكرات الدهان.

ويقدر حاجة الويكيبيديا إلى المخربين - حتى هذه اللحظة - يحتاج المخربون أيضاً إلى ويكيبيديا منظمة. فبدون نظام: سوف يفتقر «اعتراضهم الثقافى» إلى السياق. ولو تم الحكم على الويكيبيديا بأنها مفعمة كلية بالفوضى والفحش، لن يشعر المستخدم مثلاً بالبهجة عند استبدال جزء من مقالة أرشميدس بهذا:

أرشميدس مات.
لقد مات.
سوف يموت أناس آخرون أيضاً.
فلتحيا الفراخ.
الجوالون الأقوياء يقولون «أهلاً».
النهاية.

بل إن ثمة مقالة ممتعة

إن جانباً من ازدهار الويكيبيديا يكمن فى كونها مزاراً لصفة الإيثار - مكاناً للخجولين من المتعلمين لإيداع نتائج أبحاثهم

أنا ويكيبيديا

من «الاعتراض الثقافي» -citure jamming أصيبت عدة مرات. إذ قيل في مايو ٢٠٠٧ إن «الاعتراض الثقافي» هو «حشر أطنان من الثقافات في غرفة واحدة ساخنة جداً».

حينما درس بعض علماء الكمبيوتر بجامعة ميتيسوتا ملايين من صفحات الويكيبيديا المحررة في العام الماضي، وجدوا أن معظم الصفحات الجيدة - تلك التي ظلت كلماتها بلا مساس عبر العديد من المشاهدات التالية - كتبتها نسبة صغيرة من المساهمين. لقد اضافت أعداد هائلة من المستخدمين عبارات قليلة لتغني الويكيبيديا من حين لآخر - وبدون معرفة المتفرجين تلك، لم تكن الويكيبيديا لتتقدم وتنمو. بيد أن القليل نسبياً من المستخدمين على علم بكيفية أطر مساهماتهم في صيغة تستمر وتدوم.

كيف تستطيع إذن أن تصبح واحداً من زبدة مستخدمي الويكيبيديا - واحداً من عدة آلاف سوف تستمر كلماتهم لبرهة قصيرة، قبل أن تنحت المناقد البركانية اللفظية ما كتبته؟ تلك ليست بالمهمة اليسيرة. لا بد أن تكون رابط الجأش فلا تنخرط في نزاعات قد تحطم روحك، كما أنك في حاجة إلى قدرات عملية على الكتابة وعين تلتقط الأشياء سريعاً وموهبة في التأليف. تحتاج كذلك إلى الكثير من الوقت - وقت كي تبرع في الأعراف الغريبة والمفردات غير المألوفة (كلمات مثل «الدمج البسيط» و«المقاتل عن وجهة نظره» و«تسوق المحكمة» و«الملحوظات القصيرة» و«الدمية المستأجرة» و«للهواة فقط» و«التضمين») ووقت لقراءة الدليل وصفحات السياسة العامة والمقالات وتسجيلات لا نهاية لها لمشادات كلامية قديمة - ووقت كي يذكرك المحررون الآخرون برقة أو بحزم أو ربما بحدة بكيفية التصرف. أمامك تمرين طويل على التجربة والخطأ.

على الأقل هكذا كان الحال في الماضي. هناك الآن طريق أسرع يفضي إلى البراعة: كتاب جون بروتون الويكيبيديا: الكتيب المفقود. جزء من سلسلة «الكتيب المفقود» التي يشرف عليها خبير الإلكترونيات المرح بمجلة ذا نيو يوركر، ديفيد بوج. «يساعدك هذا الكتيب المفقود على تجنب أخطاء المبتدئين الفادحة ويجعلك تبدو كالمحترف من أول صفحة تحررها» يعلن الكتاب على غلافه الخلفي. إن بروتون - الذي حرر بنفسه ما يربو على ١٥٠٠٠ صفحة بالويكيبيديا مما جعله واحداً من زبدة محررين يبلغ عددهم ١٢٠٠ - يعد في مقدمته بتقديم «معلومات تحتاج إليها بشدة كي تتحاشى خرق القواعد». وهو أمر صحيح: إن هذا الكتيب ينير أعين المستخدمين، فهو بالغ الترتيب وحافل بالأفكار السديدة. وقد يُعين نشره مرحلة جديدة من تاريخ الويكيبيديا؛ ربما يشتاق بعض من قرءوه إلى أيام «افعل ما تشاء» المجنونة عندما كان المشروع برمته في مستهله. ففي أكتوبر ٢٠٠١، ظهرت أول قاعدة في الويكيبيديا.

وقد كانت:

تجاهل كل القواعد: لو جعلتك عصبياً محبطاً وأخمدت رغبتك في المشاركة في الويكي، إذن تجاهلها تماماً وافعل ما تشاء.

كتب قاعدة «تجاهل كل القواعد» أحد مؤسسي الويكيبيديا ويدعى لاري سانجر ووقعها مؤسس آخر ألا وهو جيمبو ويلز بالإضافة إلى واجبوب وأيسباي وأوبرجاج وإنفيكتيس وكورياتيس كاتسي وبينكيونيكورن وسجك ومايك ديل وتو وجوو وإنشانتر. تضمنت الصفحة اثنين من المعترضين: تيبس وأكسيليولت.

أما الآن فهناك قواعد وعلامات لشرح السياسة العامة عند كل منعطف - ثمة تحذيرات قوية اللهجة ومهام مطلوبة وإجراءات قياسية وتعليمات مهمة ومعايير معقدة لشتى القرارات - وهو عرض من أعراض ما يسمى بالتعليمات المزعجة: عرفت الويكيبيديا التعليمات المزعجة بأنها «تعليمات تزايدت مع الوقت في العدد والحجم لدرجة حالت دون استيعابها». يختصر كتاب جون بروتون - المؤلف من ٤٧٧ صفحة فقط لا غير - تلك التعليمات المزعجة. إذ يشتمل الكتاب على فصل كامل عن كيفية كتابة مقالات أفضل («لا تقمع الجدل ولا تعزله») وآخر عن «التعامل مع الفظاظة والهجوم الشخصي».

ينصحك بروتون بعدم كتابة مقالة في الويكيبيديا عن فكرة أو اختراع توصلت إليه بنفسك؛ إذ ينبغي أن تبتعد مقالاتك عن أشياء أو أشخاص تحبهم أو تكرههم: فالويكيبيديا لا يجب أن تقوم بدور أداة من أدوات الدعاية - لفرقة روك جديدة مثلاً أو ممثلة صاعدة. أحياناً ما تبدو كلمات بروتون ككلمات مدرس لغة إنجليزية مبتدئ، فهو متيقن زيادة عن اللازم من وجود طريقة صائبة واحدة وطريقة خاطئة واحدة لإنجاز الأمور: أي أشبه بكتاب ويليام سترانك بدون تعديلات إي. بي. وايت. لكن الحقيقة هي أن الويكيبيديا قد تبث الحيرة في المستخدم، وأنت في حاجة إلى مثل تلك الثقة من دليل المستخدم.

أول شيء قمت به في الويكيبيديا (تحت اسم ويدجليس) هو تحرير صفحة هرمون النمو البقري تحريراً لم يكن بالرائع. ضغطت على رابط «عدل هذه الصفحة»، فنزل بي في الحال إحساس غريب بالدوار وكأنني عبرت مرآة وتم السماح لي بالعبث بأحد المحركات الضخمة أو قطعة دقيقة من معدات طبية حيوية. تراءى لي أن إحداث الضرر في منتهى السهولة؛ وتسألني: ولماذا لم أفعله؟ لا تلبث مع ذلك أن تعتاد الموقع. سوف تستحضر تعليم ويكيبيديا الأساسي: «كن جريئاً» وستبدأ في الإعجاب بالحياة من الداخل.

وبعد الانتهاء من مقالة الهرمونات البقرية، غيرت قليلاً في تلخيص حبكة فيلم مسهد في سياتل أثناء مشاهدتي له. صرت هنيهة ثم أدخلت بعض التعديلات في مقدمة مقالة السائل الهيدروليكي - وبعدئذ حسّن أحدهم مشكوراً تعديلاتي. وفي إحدى الليالي بحثت أنا وزوجتي عقب تناول الحلوى عن وصفات لعمل فطيرة الفاكهة ثم عملت لوهلة في مقالة فطيرة الفاكهة وإن لم تصبح سليمة بعد. قمت بكتابة بعض الجمل في مقالة تقسيم العصور. وبحلول ذلك الوقت بدأت أقف بكمبيوتر مفتوح على طاولة المطبخ محملقاً في قائمة مراقباتي المتزايدة: أتفقد حال الصفحات وألقي عليها نظرات خاطفة. انقضى نحو أسبوع ثم كنت في سبيلي إلى أول مرحلة من مراحل الاعتماد على الويكيبيديا.

إلا أن ما جذبني حقاً هو محاولة إنقاذ المقالات من الحذف. فاخترت أن تكون تلك هي مهمتي. هكذا بدأت الحكاية. طالعت مقالة قصيرة عن شاعر من شعراء ما بعد جيل «البيت» -post Beat ورئيس تحرير دار نشر صغيرة يدعى ريتشارد دينر. كان دينر طالباً ببيركلي في الستينيات وقد نشر بعد عدة سنوات من الضياع العديد من الكتيبات باستخدام آلة طباعة يدوية وذلك في الشمال الغربي من البلاد. اعتزم أحد المستخدمين واسمه بايراتمينك حذف المقالة، إذ ادعى أن دينر لم يكن شخصية جديرة بالذكر أياً كان قصده! (هناك كم مهول من الجدل حول ما يمكن تعيينه «جديراً بالذكر» في الويكيبيديا؛ ولن يقدم أحد على الإطلاق على حسم المسألة). وافق مستخدم آخر يدعى ستورمباي - بايراتمينك في الرأي: ما لجأ أحدهما إلى مصادر أخرى ثالثة، وهكذا إذن أصبح الشاعر غير جدير بالذكر.

وقع دينر في مشكلة عويصة. حاولت

جسدت الويكيبيديا
نقطة التقاء من علموا
أنفسهم بأنفسهم ومن التحقوا
بالمؤسسات العلمية
باهظة المصاريف

أن أجعل المقالة أقل عرضة للحذف بأن أدمجت استشهاداً من مقابلة صحافية بجريدة ذا بيركلى ديلى بلانيت - أفضى فيها ديتر إلى المراسل بأنه حاول فى الستينيات أن يكون شاعراً من شعراء الشوارع، «مستخدماً الأقلام السحرية للكتابة على مناديل المائدة فى «كافيه ميد» وأذرع الفتيات وأقدامهن». (لو زخرت مقالة من المقالات ببعض الاستشهادات من مصادر خارجية، قد يصعب حذفها). كما صوتت للإبقاء عليها فى صفحة «مناقشة الحذف» مبيناً أن العديد من الشعراء لم ينشروا سوى كتيبات: ما هو الضرر الناجم عن الاحتفاظ بذلك المدخل؟».

استغرق أحد المسئولين عن الويكيبيديا ويدعى باكون - واحد من ألف متطوع ترشحوا ليكونوا مسئولين عنها دقيقة كى يفحص صوتى «الحذف» وتصويت «الإبقاء» ثم قضى على المقالة. لقد راح دينر. نزل بى الفزع فرحت اخذ عينات من المقالات الموجودة بصفحات الحذف وصفحات «الحذف السريع» - وهى الأكثر إلحاحاً - وصفحات من المحتمل حذفها لبنود تبدو فى خطر لا مبرر له: حاولت إنقاذ تلك المواضيع. كانت تيكوانج للصناعات - شركة منسوجات فى كوريا الجنوبية - واحدة من تلك المواضيع. «نخسها» مستخدم اسمه كوسونوز - أى أنه وضع علامة حمراء الطرف فى أعلى المقالة مقترحاً إلغاءها فى غضون خمسة أيام. حذفت العلامة إشارة إلى اعتراضى ثم ما لبثت أن نمقت النص مبيناً أن الشركة تصنع الأقمشة الصناعية ومعاطف المطر والمظلات وسيانيد الصوديوم وأقمشة العباءات السوداء. لم تختف المقالة: يا لسعادتى.

وهكذا واصلت العمل. وجدت تعليقات صحافية فشددت على الإبقاء على هاتف «جيتيرباج»، هاتف محمول مزود بمفاتيح كبيرة الحجم وبسماعة اذن ناعمة لكبار السن من المتصلين؛ وفلاديمير ناريت، شاعر روسى ينتمى إلى الحركة الشعرية المسماة بالأكمية. كانت الشرطة قد صادرت كتابه الثانى المعنون بـ الحمد للرب؛ وسارة ميدنيك، عالمة أعصاب من مدينة سان دييجو ومؤلفة كتاب خذ قيلولة! غيِّر حياتك؛ وبيرو بوى، شخص محدود الشهرة حول نفسه إلى مفرقعة نارية على خشبة المسرح. كما نهضت بصفحة منظمة «أريفز»، أسرة تركية-قبرصية ضليعة فى الإجرام مركزها لندن (أنبأنى موقع ليكسيسنيكسيس أن جريدة أيريش ديلى ميرور أطلقت عليها لقب «الأسرة الإجرامية الأولى فى بريطانيا»)؛ وكرة قدم الكوتشينة، وهى لعبة ورق تشبه البوكر وتحاكى كرة القدم؛ وبول كاراسون، رجل بحمالة بنطلون تحول لون وجهه إلى الأزرق من جراء شرب محلول الفضة؛ وجيم كارا، مرمم آلات جيتار أصاب رأسه إصابة خطيرة فى إحدى مسابقات الجليد؛ والكاتب أوين كينج، ابن الكاتب المعروف ستيفن كينج؛ وشراب «ويتلى تيل جين» المحلى بنكهة نباتين من نباتات جنوب أفريقيا؛ وورلد نيوز تونايت، فرقة تقدم عروضاً ارتجالية فى شيكاغو؛ وميشيل ليونارد، كاتب أغان أوروبى شارك فى كتابة أغنية ناجحة حديثة اسمها «أغانى الحب (إنها تقتلنى)».

لقد اعتبر محررون آخرون كل هؤلاء الأشخاص والأشياء غير جديرين بالذكر، وذلك بتسرع يخلو أحياناً من التفكير - إذ زعم أحدهم أن مقالة ميشيل ليونارد تحوى «أكاذيب فجة» (معلومة غير صحيحة كما أوضح محرر آخر اسمه بونديجيزو، وهو أكثر اطلاعاً على قوائم البوب الأوروبية). عندما كنت أتمكن من المعاونة على إنقاذ صفحة ما، تتولانى إثارة هادئة - أسير مرفوع الرأس كهنرى فوندا فى فيلم «اثنا عشر رجلاً غاضباً».

وبينما انهمكت فى هذه المشادات الصغيرة الساحرة (بالنسبة لى) للحفاظ على الصفحات، واصل المئات عملهم فى طول ويكيبيديا وعرضها. سجلت اسمى فى «سرية إنقاذ المقالات» بعد أن قرأت عنها فى كتيب بروتون: و«سرية إنقاذ المقالات» هى جماعة صغيرة تعارض «الحذف المتطرف». كما عثرت على مشروع اسمه «مشروع مراقبة الحذف المقترح فى الويكى»، حيث يراجع الناس المقالات المقترح حذفها بغرض إيجاد مقالات لا ينبغى لها الاختفاء. وبما أن حوالى ١٥٠٠ مقالة يتم حذفها يومياً، قد يستهلك هذا العمل حياة المستخدمين بسهولة ما بعدها سهولة، غير أن بعض المحررين (على سبيل المثال مكتبى صبور يدعى دى جى جى) قادرون فيما يبدو على القيام بهذا العمل بانتظام، الأسبوع بعد الآخر، فى الوقت الذى يظلون فيه عقلاء. أما أنا فقد استهلكت العملية حياتى بالكامل. إذ توقفت عن الإنصات إلى ما ينبس به أفراد عائلتى - وتقريباً تواريت داخل شاشة الكمبيوتر زهاء أسبوعين محاولاً إنقاذ سير موجزة دعائية أحياناً، إنما ذات قيمة، وذلك بإعادة صياغتها فى لغة محايدة والتنقيب فى قواعد بيانات الصحف وكتب جوجل عن مراجع ربما تزيد من حصتها فى الأهمية. لقد أصبحت «مناصراً للإدماج».

ولا يعنى هذا أنى اعتقدت أن كل المقالات تستحق الكفاح من أجلها. أنشأ أحدهم مقالة تحت عنوان بلامين أوجنيانوف كامينوف. وتنص المقالة بالكامل على الجمل التالية: «أهلاً. اسمى بلامين أوجنيانوف كامينوف. أنا بلغارى. أنا ذكى». ذهب المقال بلا رجعة: مفهوم. ألف مستخدم آخر - طفل على ما يظهر - قصة جميلة حول امرأة خيالية تدعى الإمبراطورة ألاموندا. كانت ألاموندا تكن كراهية لخادمات زوجها. «تملكتها الغيرة تملكاً حتى إنها كانت تغيب عن الوعى»، أعلنت المقالة. «ماتت ألاموندا فى ٦,٠٠ مساء بغرفتها فى ٤ أغسطس من عام ١٨٩٦ ». وقد ذهبت ألاموندا هى الأخرى بالطبع.

ومع ذلك فإن الكثير من الكتابات الجيدة - الموضوعية، المثقفة، الغريبة، المحفزة للعقل - يلقيها ذوو أفق ضيق لا يتجاوز أفق الأطفال خارج موسوعة إلكترونية قابلة للتوسع اللانهائى.

بإمكان أى شخص أن «يطلق الرصاص» على أية مقالة (كما يعبر بروتون عن الموقف). لكن الصعب هو إدخال التحسينات على مقالة مكتوبة بالفعل أو الكتابة عن موضوع جديد تماماً. ثمة الآن بعض المستخدمين فى الويكيبيديا ممن لا يزيدون على متنمرين، مستخدمين يستمتعون بتحطيم أعمال الناس والسخرية منهم - لدرجة الاستهزاء من «الانجليزية» غير الفصحى. إنهم يقحمون التحذيرات فى المقالات ويضيفون ملحوظات عن الحاجة إلى الاستشهادات إلى أن تختفى المقالة.

إن نصيحتى لكل من يفكر فى أن يصير مساهماً فى الموسوعة هو شراء كتاب بروتون الكتيب المفقود والبدء فى الإضافة والتأسيس والإنقاذ. أظن ما صنعته يكفينى فى الوقت الحاضر لكنى أضمر أملاً سرياً. فقد اقترح أحدهم إنشاء ويكيمورج Wikimorgue - صندوق من الأحلام المكسورة حيث يتمكن المتصفح من قراءة الصفحات المرفوضة طالما لا تشهر بالأفراد أو تخرق القانون بأى حال من الأحوال. ومثلها مثل جميع المزابل الأخرى، سوف تبوح إلينا بمرور الوقت بالكثير والكثير. يمكننا أن نسميها ديليتوبيا Deletopedia. ※

تجاهل كل القواعد:
لو جعلتك عصبياً محبطاً
وأخمدت رغبتك فى المشاركة
فى الويكى، إذن تجاهلها
تماماً وافعل ما تشاء

حجب .. وقصف .. وانتخابات

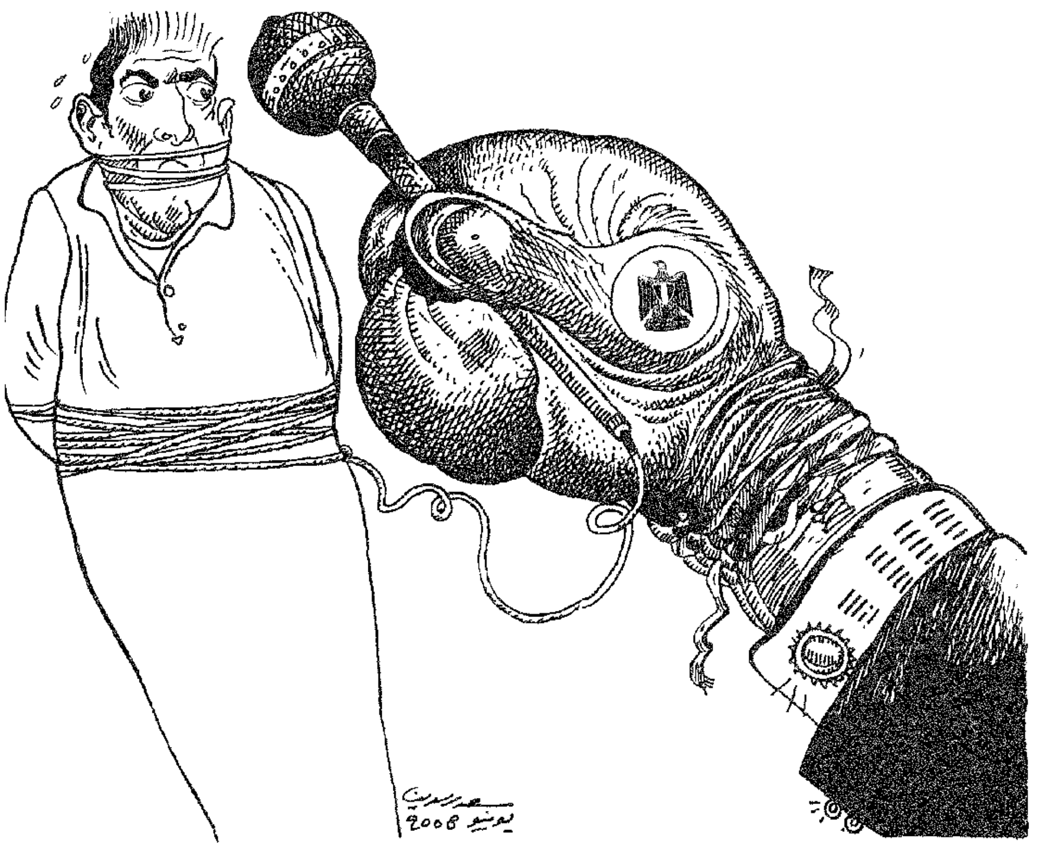
جمال محمد غيطاس

■■ هل ثمة علاقة بين العنف والمعلومات؟ وهل يمكن أن يكون هنالك «عنف معلومات» أو استخدام عنيف للمعلومات؟ وهل يمكن للدولة أن تمارس «عنف المعلومات» ضد مواطنيها؟

إن العنف ظاهرة خاصة بالإنسان ككائن اجتماعي يتفاعل مع غيره ضمن صراعات اجتماعية واقتصادية وسياسية، وأبسط التعريفات التي ذكرت بشأن العنف تعريفا يقول أنه «كل استخدام للقوة بطريقة غير شرعية وغير مبررة من قبل طرف ضد آخر ينجم عنه أذى أو ضرر بشكل دائم ومستمر أو لمرة واحدة»، وهذا التعريف هو ما سنستخدمه كنقطة انطلاق وحلقة ربط ما بين العنف والمعلومات، وكأساس نستند إليه في رصد ظاهرة «عنف المعلومات» لدى الدولة.

أما المعلومات فأبسط تعريف لها يقول أنها «نتاج يتشكل من الظواهر والحقائق المحسوسة، أي البيانات، ومن التعليمات المطلوبة لفهم وتفسير هذه البيانات وإعطائها معنى، ثم يكتسب أهميته من وظيفته، وهذا كله يجعل المعلومات متميزة ومختلفة تماما عن التكنولوجيا وأدواتها، وإن كان كل ما نفعله مع المعلومات يعتمد على التكنولوجيا المستخدمة في الملاحظة وتجميع البيانات وتركيزها وتخزينها والسرعة في معالجتها.

وفي ضوء هذا التعريف لمعنى المعلومات يمكننا القول أنه منذ بدء الخليقة وحتى اليوم اعتمدت حياة الإنسان على توليد وتداول وتوظيف المعلومات بشكل أو بآخر، فكل قراراته بدءا بقرار تحديد موعد استيقاظه في الصباح إلى تحديد موعد نومه ليلا هي قرارات تتغذى على المعلومات، سواء كان الإنسان يعي ذلك أم لا، فهو حينما يقرر الاستيقاظ في السادسة مثلا، لابد أن تكون لديه معلومة تبرر له اتخاذ هذا التوقيت موعدا للاستيقاظ كارتباطه بوسيلة مواصلات تنقله للعمل، وحينما يقرر الذهاب للنوم لابد أن تكون لديه معلومة تؤكد له أنه لم يعد لديه ما يجعله مستيقظا، وهكذا الحال في بقية تفاصيل حياته وعلاقاته وتفاعلاته مع محيطه المجتمعي سواء على مدار اليوم أو الشهر أو السنة أو العمر كله، ومن هنا



... عنف المعلومات فى مصر !!

المعلومات أشبه «بالروح» التى تجعل من الإنسان الفرد والمؤسسة والمجتمع كيانات نابضة بالحياة

فإن الإنسان الفرد يعيش دوما وسط تيار من المعلومات تحدد له كل تصرفاته ويتخذ على أساسها كل قراراته.

وإذا انتقلنا إلى المجتمع الواسع لا نجد جوهر الصورة مختلفا، فالمجتمع الكبير هو فى النهاية مجموعات من الأفراد، وبالتالى فجميع قرارات المجتمع وكل تفاصيل الحياة فيه تتغذى طوال الوقت على تيارات متنوعة من المعلومات التى تتدفق فى أوصاله بلا انقطاع بوسائل وقنوات مختلفة، فتتوازى أحيانا وتتقاطع أحيانا، لكنها فى النهاية تتجمع لتنشىء ما يمكن أن نطلق عليه «المحتوى المعلوماتى المجتمعى المشترك» الذى يضم التفاصيل الكاملة لحياة الأفراد والجماعات والمؤسسات.

وعمليا لا يتجمع المحتوى المعلوماتى المجتمعى المشترك فى نقطة واحدة، بل يتفرع فى اتجاهات مختلفة ليكون محتويات معلوماتية مجتمعية فرعية متنوعة،كل منها يتعلق بقطاع من المجتمع أو فئة من فئاته أو نشاط من أنشطته، ووفقا لهذا المنظور يمكن تحديد «التنوعيات» الفرعية للمحتوى المعلوماتى المجتمعى العام فى:

١. المحتوى المعلوماتى العسكرى الأمنى.

٢. المحتوى المعلوماتى الاجتماعى.

٣. المحتوى المعلوماتى الفكرى والسياسى.

٤. المحتوى المعلوماتى الاقتصادى والخدمى.

٥. المحتوى المعلوماتى العلمى والبحثى.

انطلاقا مما سبق يمكن القول أن كل القرارات التى تتخذ على مستوى الفرد او المؤسسة أو المجتمع طوال اليوم ترتبط ارتباطا وثيقا بجودة وسلامة ما يستخدم فيها من معلومات، وتوقيتات الحصول على هذه المعلومات والوعى بكيفية توظيفها والحفاظ على سلامتها.

والمعلومات أشبه «بالروح» التى تجعل من الإنسان الفرد والمؤسسة والمجتمع ككل كيانات نابضة بالحياة، بل لا نبالغ إذا قلنا أن المحتوى المعلوماتى أصبح أصلاً من الأصول الثابتة، سواء للفرد أو المنشأة الخاصة أو الدولة والمجتمع ككل، وفى كل الأحوال يتعين عدم المساس به أو تعريضه للأذى والضرر، وأى فعل يحدث ضررا بجودته أو آمنه أو سلامته أو يحجبه ويعوق وصوله لمستحقيه هو شكل من أشكال العنف، باعتبار انه فعل سيتولد عنه بالضرورة أذى لفرد أو مجموعة من الأفراد أو قطاع من المجتمع او المجتمع بأسره.

وإذا ما عدنا إلى تعريف العنف ومؤداه أن العنف «كل استخدام للقوة بطريقة غير شرعية وغير مبررة من قبل طرف ضد آخر ينجم عنه أذى أو ضرر بشكل دائم ومستمر أو لمرة واحدة»، ثم وضعنا هذا التعريف أمام الوضعية التى اكتسبتها المعلومات فى ظل عصر ثورة المعلومات، سنخلص إلى أن المعلومات والمعرفة أصبحت أكبر أشكال القوة تأثيرا وأسهلها استخداما وأوسعها انتشارا، وبالتبعية أصبحت المعلومات جاهزة دوما لأن تكون من أكبر أدوات ممارسة العنف وأسهلها استخداما واوسعها انتشارا، لأنه بالإمكان استخدامها للإضرار وإلحاق الأذى بالفرد أو المؤسسة او المجتمع ككل، وفى هذا السياق يمكننا تعريف عنف المعلومات على أنه:

«كل استخدام للقوة بطريقة غير شرعية وغير مبررة أو بها إساءة استخدام من قبل طرف ما . فرداً كان أو مؤسسة أو حكومة أو دولة . من شأنه ان يحجب أو يتلاعب أو يضر بسلامة او جودة أو صحة او إتاحة المعلومات او توقيتات الوصول إليها ويقع بسببه اذى او ضرر بشكل دائم ومستمر او لمرة واحدة على من يحتاج هذه المعلومات او يستهلكها أو يستخدمها فى اتخاذ قرار أو يستفيد منها فى قضاء حاجة».

وتتخذ القوة هنا ثلاثة اشكال: الأول القوة الناجمة عن امتلاك المعلومات والقدرة على حجبها كما هو الحال فى الجهات المالكة للمعلومات وقواعد بياناتها، والثانى القوة الناجمة عن امتلاك أدوات توليد المعلومات ونشرها كما هو الحال مع أجهزة الإعلام وغيرها، والثالث القوة الناجمة عن امتلاك أدوات التلاعب فى المعلومات وتخريبها وسرقتها وإفسادها كما هو الحال مع جرائم المعلومات ومحترفيها.

وتتسع أنماط وصور عنف المعلومات لتشمل طيفا واسعا من الممارسات السائدة، ويمكن تقسيم عنف المعلومات إلى ثلاثة أنماط رئيسية هى العنف الذى يمارسه الأفراد والجماعات سواء فيما بين بعضهم البعض أو بينهم وبين المؤسسات والهيئات الخاصة والعامة، والعنف الذى تمارسه البيروقراطية وأجهزة الدولة المختلفة فى تعاملها مع مواطنيها، والعنف الذى تمارسه مجتمعات ضد آخرى أو دول ضد أخرى؛ والنوع الثانى هو ما نتناوله فى هذه المقال.

البيروقراطية والدولة وعنف المعلومات

بحكم طبيعة الأمور ومجرياتها فى الواقع العملى فإن الحكومات وأجهزتها الإدارية والتنفيذية المختلفة فى أى بلد فى العالم هى المسئولة أكثر من غيرها عن إنتاج المعلومات ومن ثم المسئولة عن حيازة المعلومات وامتلاكها، وبالتالى تمتلك القدرة على التحكم فى إتاحتها أو حجبها، وهذا الوضع يؤسس لأهم أسباب ظاهرة عنف المعلومات لدى الدولة وأجهزتها البيروقراطية، لأن امتلاك المعلومات يؤدى تلقائيا لإحكام قبضة الأجهزة البيروقراطية والأمنية على المعلومات ويفسح المجال أمام استخدامها استخداما عنيفا يضر بالمجتمع أفرادا ومؤسسات، سواء بالحجب أو التأخير أو الإنقاص، بمعنى آخر يعطى صلاحيات واسعة للدولة وأجهزتها فى استخدام قوة امتلاك المعلومات وبالتالى إساءة استخدام هذه القوة، مما يعزز تلقائيا من وتيرة العنف فى استخدامها.

فى هذا السياق فإن الدولة وأجهزتها البيروقراطية فى مصر تحتكر ما يزيد على ٨٠٪ من المحتوى المعلوماتى المجتمعى بأوجهه العسكرية والأمنية والسياسية والفكرية والاقتصادية والبحثية والاجتماعية، وحتى الآن لا تزال الغالبية الساحقة من مؤسسات الدولة وهيئاتها البيروقراطية والإدارية تعتبر أن الأصل فى الأمور هو حجب المعلومات لا الإفصاح عنها وتداولها بحرية، وأن المعلومات ملك للدولة وليس للمواطن أو المنشآت والمؤسسات المختلفة حقوق فيها، بل إن على الاخرين أن يتلقوا فقط المعلومات التى ترى هى أنهم بحاجة إليها أو أنهم يستحقونها أو يمكن ان تحقق لهم منفعة أو تدفع عنهم ضررا، بعبارة أخرى لا تزال الدولة تعتبر نفسها «الولى والوصى» على الناس فيما يتعلق بملكية وإدارة المحتوى المعلوماتى المجتمعى وتوظيفه واستخدامه وطرق تداوله.

وعمليا عزز هذا الوضع من ظاهرة «عنف المعلومات» بتجلياتها المختلفة، وجعلها تتفشى وتصبح هى الحالة السائدة فى علاقة الدولة وجهازها الإدارى والبيروقراطى مع جماهير المواطنين والعديد من المؤسسات والهيئات والكيانات الأخرى، ولذلك أصبح من السهل على المراقب أن يتتبع ويرصد عشرات من حالات «عنف المعلومات» فى علاقة الدولة وأجهزتها البيروقراطية مع المجتمع بمواطنيه وهيئاته.

عمليا أحجمت قطاعات واسعة من المواطنين - ولا تزال تحجم - عن المبادرة وتسجيل أنفسهم بسبب سوء سمعة الانتخابات وسوء المعاملة بأقسام الشرطة

* عنف المعلومات فى مصر **

وعلى الرغم من أن حالة «عنف المعلومات» بين الدولة ومواطنيها يكتوى بنارها الجميع، إلا أنها على قسوتها غير محسوسة وغير مفهومة والوعى بها وبأبعادها قد يكون شبه معدوم بالنسبة للكثيرين، وهذا الوضع يجعل أفضل طريقة لشرحها وتوضيحها هى تقديم نماذج أو لمحات حية لحالة عنف المعلومات التى تسود علاقة الدولة وجهازها البيروقراطى مع مجتمعها ومواطنيها، باعتبار أن الأمثلة الحية النابعة من الحياة اليومية وتفاعلاتها المختلفة هى أوضح وأقصر الطرق لرصد الظاهرة ورسم ملامحها، وفيما يلى نقدم بعض نماذج عنف المعلومات من الدولة ضد مواطنيها.

عنف معلومات الانتخابات

تقدم الجداول الانتخابية فى مصر نموذجا حيا لحالة «عنف المعلومات» الناشئة عن عدم الاعتداد بحق الجماهير فى الحصول على المعلومات والتراخى فى إعداد المعلومات وتركها عرضة للنقص والتشويه وتدنى الجودة، ويمكننا القول أن المحتوى المعلوماتى المتعلق بالعملية الانتخابية فى مصر يتعرض لعمليات تشويه وإفساد عميقة ومستمرة منذ سنوات طويلة، ينجم عنها أضرار وأذى لملايين الناخبين وللمجتمع ككل، وهى أضرار تبدأ بالممارسات والسلوكيات العنيفة أثناء الانتخابات سواء من جانب السلطة أو بعض الناخبين أو جماعات البلطجة وتجار وسماسرة الانتخابات وتنتهى بتزييف إرادة الناخبين وإفراز نتائج تزيد من الاحتقان السياسى وتعمق حالة فقدان الثقة بين الشعب والحكومة والنظام، الأمر الذى يسهم بصورة أو بأخرى فى رفع مستوى العنف المادى بالمجتمع بشكل مباشر أو غير مباشر، وانطلاقا من التعريف الذى قدمناه سابقا لظاهرة «عنف المعلومات» يمكن تناول عنف معلومات الانتخابات على النحو التالى:

فى الانتخابات نحن أمام محتوى معلوماتى فائق الأهمية، وطبقة الأساس أو البنية الأساسية لهذا المحتوى هى الجداول الانتخابية التى تضم أسماء الناخبين وتحدد هوياتهم ويتم على أساسها إجراء عملية التصويت وفرز النتائج، وأى إخلال متعمد أو نتيجة تجاهل بهذا المحتوى يسبب تلقائيا ضرر وأذى يصيب جموع الناخبين ويؤثر عليهم سلبا سواء فى مراحل التصويت أو إظهار النتائج.

ومعلوماتيا تتعامل الدولة وأجهزتها البيروقراطية والأمنية والسياسية مع جداول الانتخابات وكشوف الناخبين طبقا لإطار قانونى تتحدد أهم ملامحه فى نصوص القانون رقم ٧٣ لسنة ١٩٥٦ الخاص بتنظيم مباشرة الحقوق السياسية ، والمواد التى وردت ضمن تعديلات القانون رقم ١٧٣ لسنة ٢٠٠٥ من اختصاصات اللجنة العليا للانتخاب.

ودون خوض فى المواد والنصوص الواردة بهذه القوانين يمكن القول أنه من منظور التطبيق العملى أفرز هذا الإطار القانونى نظاما لتداول وإدارة البيانات والمعلومات المستخدمة فى كشوف الناخبين يستند إلى دورة معلومات «رأسية» مغلقة إما تتصاعد فيها المعلومات من القاعدة إلى إدارة الانتخابات أو تهبط منها المعلومات من إدارة الانتخابات إلى أقسام الشرطة ومقار الانتخاب، وهذه الدورة مكونة من الخطوات التالية:

١. يتوجه المواطن الراغب فى قيد نفسه أو تعديل موطنه الانتخابى لقسم الشرطة فى الوقت المنصوص عليه فى القانون ويتقدم بطلب القيد أو التعديل مصحوبا ببياناته من واقع البطاقة الشخصية والمستندات الرسمية الأخرى

٢. تتلقى الأجهزة المعنية بالداخلية بيانات الراغبين فى القيد وتقوم معالجتها وتدوينها كما تتلقى بيانات الراغبين فى النقل من دائرة لأخرى عبر إجراءات روتينية طويلة تشبه إجراءات تغيير محل الإقامة

٣. تتلقى الداخلية بيانات بالوفيات من وزارة الصحة وتدونها

٤. يفترض أن تتلقى من العدل والدفاع والهجرة والخارجية بيانات حول العسكريين ومن صدرت بشأنهم أحكام مؤثرة على حقهم الانتخابى ومن هاجروا

٥. يجرى تجميع وفهرسة وتنظيم كل البيانات السابقة فى وقت محدد وتستخدم فى تحديث وتنقية الجداول بناء عليها.

٦. تتكرر هذه الدورة كل فترة وفى الأغلب كان يتم فيها تداول ومعالجة وإدارة المعلومات الانتخابية يدويا.

السؤال الآن: أين مظاهر العنف فى كل ذلك؟

قياسا على التعريف السابق لعنف المعلومات فإن هذا الإطار وضع البلاد فى أتون حالة «عنف معلومات مستعرة» لها ستة منابع كالتالى:

أولا: جعل الدولة ـ ممثلة فى وزارة الداخلية ـ هى المالك والمحتكر الوحيد لمعلومات الناخبين، وكما قلنا من قبل فإن احتكار المعلومات يضع فى يد المحتكر أول صور القوة التى يمكن استخدامها فى ممارسة عنف المعلومات، وهى قوة امتلاك المعلومة والقدرة على حجبها والتلاعب فى توزيعها وعرضها وفى توقيت إتاحتها لمحتاجيها، ولست فى حاجة إلى القول بأن جميع صور العنف السابقة من . كالحجب والتلاعب فى التوزيع والعرض وتوقيتات الإتاحة ـ تمارس على نطاق واسع من قبل الدولة وأجهزتها فيما يتعلق بالجداول الإنتخابية، ولا توجد تقريبا انتخابات جرت فى مصر دون شكاوى تضرر فيها المرشحون والناخبون على السواء من صور العنف هذه.

ثانيا: أن النصوص القانونية جعلت المواطن هو مصدر التغذية الرئيسى بالبيانات، وعمليا أحجمت قطاعات واسعة من المواطنين ـ ولا تزال تحجم ـ عن المبادرة وتسجيل أنفسهم بسبب سوء سمعة الانتخابات وسوء المعاملة بأقسام الشرطة والسجل المدنى وصعوبة الإجراءات، والنتيجة أن عدد المسجلين بالجداول أقل كثيرا من عدد الذين لهم حق التصويت، وهذه أول فجوة معلوماتية بالجداول الانتخابية نتج عنها مصدر للتشوه وعدم الدقة، وقد أتاحت هذه الفجوة فرصا واسعة لشيوع حالة عنف معلومات واضحة للعيان، وهى القيد العشوائى لمواطنين بغير علمهم أو باختلاق أسماء وهمية وإضافتها للجدول على اعتبار أنها بيانات مواطنين سجلوا أنفسهم حديثا «حدثت وقائع عديدة للقيد الجماعى مؤخرا استغلالا لهذه الثغرة».

ثالثا: لا يوجد بهذا النظام كود تعريفى غير متكرر للناخبين بالجداول على مستوى الجمهورية ويكون مرتبطا باسم الناخب سواء كان ثنائيا أو ثلاثيا أو رباعيا وجزءا من هويته الانتخابية، والأسماء التى ترد حاليا من قاعدة بيانات الرقم القومى ينزع عنها الرقم ككود تعريفى، وهذا من أفدح نقاط الضعف المعلوماتية بالجداول لأنه يجعل من اسم الشخص أداة للتعريف بهويته الانتخابية، ومن ثم يفتح بابا ملكيا لحالة أخرى شائعة من حالات عنف المعلومات فى قضايا الانتخابات تتمثل قدرة مئات الموظفين والأمنيين التابعين لجهاز الدولة الإدارى والأمنى على إضافة الموتى والمغتربين والأطفال وتكرار أسماء الأحياء ... إلخ.

رابعا: أدى التدوير الرأسى المغلق للبيانات الانتخابية إلى عدم وجود صلات مناسبة بين نظام بناء الجداول وجهات ومؤسسات المجتمع ذات العلاقة بالبيانات الانتخابية المسئولة عما يمكن تسميته بالحق التصويتى المتغير «الذى يمنح أو يمنع عن المواطن لفترة مؤقتة، كتأدية الخدمة العسكرية الالزامية أو الانتماء لمؤسسة عسكرية وأمنية أو الوقوع تحت طائلة أحكام قضائية تمنعه من التصويت أو الهجرة والعمل بالخارج، وهذه الجهات هى: الدفاع، الأمن القومى، العدل، الهجرة، الخارجية وليس الصحة فقط».

وقد أفرز هذا الوضع حالة عنف معلومات ثالثة داخل الجداول تتعلق بأوضاع هذه الفئة من الناخبين الذين تتغير أوضاعهم الانتخابية من وقت لآخر دون أن يؤخذ ذلك فى الاعتبار بالنسبة لأوضاعهم داخل الجدول، وهو ما يفتح بابا للتزييف، إذ لا يعرف على وجه الدقة كيف يتم التصرف فى أسماء وأصوات هؤلاء وهم بالملايين.



خامسا: أدى تلقى بيانات الناخبين مباشرة من أصحابها يدويا إلى تدنى الجودة المعلوماتية للبيانات الخام المستخدمة فى إنشاء الجداول، وهذه حالة من حالات العنف الناجمة عن الإهمال فى توليد وإدارة المعلومات، ويتجسد العنف هنا فى أن نسبة كبيرة من أسماء الناخبين مسجلة بالاسم الثلاثى أو الثنائى أحيانا ومن ثم لا تدل بشكل قاطع على هوية الناخب مما يفتح المجال للتزوير أثناء التصويت، كما يظهر العنف المرتبط بهذا الأمر مع شيوع ظاهرة تكرارية الأسماء التى تصل فى بعض الأحيان لأكثر من ١٠٪ من المسجلين بالجداول.

سادسا: لا تتوافر لنظام بناء الجداول الحالى مرجعية معلوماتية قومية مركزية موحدة موثوق فيها من قبل الجميع يتم على أساسها مراجعة وتدقيق بيانات الجداول عند التنقية، وهذه المرجعية تتكون من:

. القوائم الكاملة الدقيقة للوفيات وتحديثاتها المستمرة.

. القوائم الكاملة للعسكريين والأمنيين والمغتربين وتحديثاتها المستمرة.

. القوائم الكاملة لمن تنقلوا من مكان لآخر داخل الجمهورية وتحديثاتها المستمرة.

. القوائم الكاملة لمن صدرت ضدهم أحكام تمنعهم من التصويت ومن انتهت مدة محكوميتهم وأعيد لهم حق التصويت.

. القوائم الكاملة لمن بلغوا السن القانونية وتحديثاتها.

ومن شبه المؤكد أن القوائم الأربع الأولى غير متاحة بشكلها الكامل وبتحديثاتها الدورية لدى للعاملين فى النظام الحالى، أما القائمة الخامسة فتتم الآن من قاعدة بيانات الرقم القومى لمواليد ما بعد عام ١٩٨٢ فيما يعرف بالقيد التلقائى بالجداول، وهذا يثير التساؤل التالى: على أى أساس يتم تحديث الجداول أو تنقيتها وأربعة أخماس مرجعيات التحديث غير متوافرة؟ بالطبع لا يوجد أساس وهنا مكمن ومنبع للعنف، لأن معلومات بلا مرجعية للقياس والمعايرة والضبط هى بطبيعتها مادة خام مرضة للتشويه والحذف والإضافة والتعديل حسب هوى من يقوم على استخدامها وتوظيفها، أى تكون فى التحليل الأخير أداة لممارسة العنف تجاه من يحتاجونها ويستهلكونها أو يقعون تحت طائلة تأثيرها.

حجب المعلومات .. وتبادل «القصف الإعلامى»

يتربع عنف المعلومات السائد فى وسائل الإعلام المصرية، خاصة المطبوعة منها، على قمة ظاهرة عنف المعلومات التى تمارسها الدولة ضد مواطنيها وهيئاتها، فالدولة بأجهزتها التنفيذية والإدارية والبيروقراطية تملك وتحتكر كما سبق القول أكثر من ٨٠٪ من البيانات والمعلومات المتعلقة بالمحتوى المعلوماتى المجتمعى الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والأمنى والعسكرى والبحثى، وهى وحدها التى تملك قوة إتاحتها وحجبها، ولأن الدولة اختارت الحجب قاعدة والإتاحة استثناء فقد وقعت وسائل الإعلام، التى هى فى الأصل قنوات لتوصيل المعلومات، فى ضائقة معلوماتية جعلت ما تقدمه من معلومات ساخنة وطازجة وكاملة فى توقيتها المناسب ضئيل جدا أمام ما تضخه من معالجات قشرية سطحية وانطباعية واستنتاجات وتخمينات شخصية لعشرات من القضايا والهموم الوطنية فائقة الأهمية، وهو وضع قادنا جميعا إلى حالة عنف معلومات احتدت حتى أصبحت قصفا متبادلا بين أطراف عديدة، حكومة ومعارضة وصحف خاصة وقومية، والمحزن أنه قصف عشوائى أحيانا غير برىء أحيانا أخرى عبثيا فى أحوال ثالثة، لكنه فى كل الأحوال يشعل حرائق ضحيتها الأولى جمهور المتلقين والمجتمع الذى ترتفع فيه درجة الاحتقان وتحتد به حالة الاستقطاب، ولعل الأمثلة التالية تلقى مزيداً من الضوء على هذه النقطة:

قضية جريدة الوفد ووزير العدل

تتعلق هذه القضية بآراء وكلمات قالها وزير العدل بمجلس الشورى بحق جهات قضائية، أى أن الوزير والمجلس هما الجهة التى وفرت المادة الخام الأولية للوجبة التى رأت الصحيفة أن تعدها وتقدمها للناس، وبعد النشر أبدى البعض إصابته «بمغص» من هذه الوجبة وذهب للمحكمة مطالبا بحقه وانتهى الأمر بعقوبة الحبس كجزاء على ما رئى أنه «سوء طهو» من جانب الصحيفة، وفى هذه السلسلة المتوالية من الأحداث لم يتمكن أحد من الوصول إلى «المعلومة الأولية للوجبة» والتى بإمكانها حسم

> **الدولة المصرية تحتكر ما يزيد على ٨٠٪ من المعلومات العسكرية والأمنية والسياسية والفكرية**

> **تحول عنف المعلومات إلى قصف عشوائى بين الحكومة والمعارضة والصحف الخاصة والقومية**

النزاع برمته ألا وهى التفريغ الصوتى لكلمات الوزير بالمجلس الذى يحدد هل الصحيفة نقلت ما قاله فعلا أم أساءت الطهو فقدمت وجبة غير سليمة لقرائها.

ولو كان لدى المجلس نظام معلوماتى محكم للتسجيل والتفريغ والتوثيق ويضمن تقديم معلومات «عالية الجودة» فى مثل هذه الحالات لتوافر لجميع الأطراف «مرجعية» محايدة تستخدم فى معرفة مدى الصواب والخطأ فيما نشر، ولو كانت هناك آلية مستقرة متعارف عليها للحصول على مثل هذه «المواد المعلوماتية الأولية» وتداولها على الملأ سواء عن طريق موقع المجلس على الإنترنت أو بوسيلة أخرى حسب الطلب ولو بمقابل مادى لتم حسم الأمر عند أول دقيقة ثار فيها خلاف حول ما نشر.

قضية المبيدات الزراعية المسرطنة

فى هذه القضية لم تكن هناك آلية تضمن للصحافة الوصول إلى الوثائق الحقيقية المتعلقة بالقضية من داخل وزارة الزراعة وأجهزة الدولة الأخرى، فلم ينشر مثلا نص قرار إلغاء لجنة المبيدات ولا حيثيات صدوره لأنها ببساطة كانت معلومة محجوبة عن النشر ولا تزال، ولم تتح للصحافة معرفة الأعداد الدقيقة والحقيقية للمبيدات التى دخلت البلاد بصورة مخالفة ومتى، وأسماء من وقعوا على أمر استيرادها، والأخطر من ذلك أنه لا توجد معلومات أو وثائق ترسم خريطة واضحة لمسار هذه المبيدات بعد دخولها منذ لحظة خروجها من الموانىء وحتى رشها فى الأرض، من الذين تداولوها وما المحاصيل التى استخدمت فيها ومتى، والمواقع الجغرافية التى وصلتها هذه المبيدات ونسب الاستخدام فى كل منطقة وكم شخص تعامل معها، ونسب بقاياها فى التربة والمحاصيل والخضروات والفاكهة. فى ضوء الوقائع السابقة، وغيرها الكثير مما يتداول فى سوائل الإعلام، يمكننا تلخيص مشهد عنف المعلومات الإعلامى ككل فى العناصر التالية:

. جهات يفترض أنها منتجة للمعلومات فى شتى القطاعات والإدارات والهيئات سواء بالجهاز الإدارى للدولة أو خارجة، لكنها إما لا تنتج أصلا معلومات وبيانات من النوع الذى تحتاجه الصحافة فى تقديم وجباتها للناس أو الذى يحتاجه المجتمع ككل كمرجعية للحكم عند

الاختلاف، أو تنتج معلومات متدنية الجودة تارة بسبب النقص وتدنى المهارات وتارة بسبب شهوة الاعتقال وعدم الاقتناع بحرية التداول.

. صحف قائمة على «طهو» وإعداد الوجبات الصحفية ولابد من الاعتراف بأن العديد منها لا يبذل الجهد الكافى فى تقديم صحافة مستندة إلى معلومات، بل يستسهل السلق اعتمادا على الاستنتاجات والانطباعات والنميمة والمحتوى السماعى غير الموثق بما فيه من تجاوزات وتهور .

. مجتمع عريض يتلقى الوجبات الصحفية كل صباح وبات كمن وقعت رقبته بين طرفى مقص، الأول غياب وتدنى المعلومات عالية الجودة أو اعتقالها لدى الجهات المنتجة، والثانى سوء الطبخ والطهو لدى بعض الصحف، وأى تحرك لهذا الطرف أو ذاك يعنى «حز» الرقبة وإسالة دمائها وإشعال حرائق من الألم فى بقية الجسد.

هذه الحالة الواضحة من عنف معلومات تبعها الأساسى هو موقف الدولة من مبدأ حرية تداول المعلومات والحق فى الحصول عليها، ويشهد على ذلك ترسانة القوانين والتشريعات التى تحض جميعها على اعتقال المعلومات وحجبها عن العلانية ووسائل الإعلام، وهى متعددة ولا مجال لذكرها الآن، ويضاف إليها الإجراءات العملية والقناعات الشخصية والممنهجة الراسخة لدى القطاع الأكبر من موظفى الدولة، خاصة نوعية الموظفين والمسئولين المنتشرين فى شتى المؤسسات والهيئات العامة والخاصة والذين يتعاملون مع المعلومات بمنطق التكويش والاعتقال، لأنهم نشأوا ومارسوا حياتهم الوظيفية وفق قاعدة الحجب التلقائى للمعلومات فى أكوام الورق والمستندات وأرتال الملفات، ولم يسمعوا بعد بالتغييرات الدرامية فى مجال الحريات السياسية وحقوق الإنسان عالميا ومحليا، وإن سمعوا لا يتقبلون وإن تقبلوا فعلى مضض وبروح متربصة بالجديد وتواقة للقديم، ولم يعد هناك مفر سوى التعامل معهم بقوة القانون.

حريق أسعار الحديد والاسمنت

صباح الأحد ٤ مارس ٢٠٠٧ نشرت وزارة التجارة والصناعة إعلانا بالصفحة الأولى للأهرام كان نصه كالآتى: «فى اطار جهود الوزارة لمتابعة حركة تداول حديد التسليح فى السوق وتنفيذا لقرار وزر التجارة والصناعة رقم ١٤٣ فى شأن تنظيم وتداول حديدد التسليح والذى يلزم كافة المصانع وكذلك تجار حديد التسليح بإخطار قطاع التجارة الداخلية بوزارة التجارة والصناعة يوم الأحد من كل أسبوع ببيانات هذه السلعة بدءا من يوم الأحد الموافق ٤ مارس ٢٠٠٧ وذلك على النحو التالى:

الالتزام بالإعلان عن الأسعار: يلزم القرار كافة مصانع إنتاج حديد التسليح ووكلاء وتجار حيد التسليح بالإعلان فى مكان ظاهر عن أسعار البيع «بالنسبة للمصانع أسعار البيع فى أرض المصنع أو اسعار تسليم المحافظات وبالنسبة للوكلاء والتجار أسعار البيع للمستهلك»، كما يلزم المصانع والوكيل والتاجر بالإخطار عن البيانات التالية:

. بالنسبة للمصانع: كميات الإنتاج والكميات المصدرة وأسعار التصدير وأسماء المتعاملين مع كل مصنع وعناوينهم والمحافظات التابعة لها والكميات الموجهة للسوق المحلى والمسلمة لكل وكيل أو تاجر أو مستخدم على حدة وأسعار التسليم والمخزون.

. وبالنسبة للوكلاء وتجار حديد التسليم: الكميات المستلمة من كل مصنع على حدة. أسماء المتعاملين مع كل منهم . والكميات المباعة لكل عميل وسعر البيع والمخزون.

وفى رأيى أن الإعلان بصيغته السابقة يحمل فى طياته العديد من النقاط الدالة على أن الدولة. ممثلة وزارة التجارة كجهاز بيروقراطى . تمارس نوعا من عنف المعلومات على مواطنيها فى هذه القضية، وذلك على النحو التالى:

أولا: أن الإعلان يطلب «تجميع بيانات» من المصانع والوكلاء والتجار عن حركة إنتاج وتوزيع وبيع الحديد والأسمنت، وهذا معناه أن الوزارة حتى لحظة نشر الإعلان لا تملك هذه البيانات والمعلومات عن حالة الحديد والاسمنت بالاسواق، وبالطبع فإن هذا «نقص» كبير فى محتوى معلوماتى اقتصادى حيوى كان يفترض أن يكون لدى الدولة آلية لإنتاجه وإنشائه باستمرار، وغيابه يشكل ضرر لمستهلكى هاتين السلعتين أى يمثل نوعا من «عنف المعلومات».

ثانيا: أن أدوات التعامل مع البيانات التى اعتمدها هى الورق والدورات المستندية التقليدية، بل وبعض الأدوات البدائية، فهو يطلب مثلا الإعلان عن السعر بأماكن التصنيع والبيع طلب «فى مكان ظاهر» أى يمكن أن يتم كتابة معلومة السعر على «ورقة لحمة» وتعليقها على حائط، وبالنسبة لإرسال البيانات للوزارة طلب وضعها «فى مظروف ورقى مغلق» وتسليمها عبر مندوب إلى مقر الوزارة، وهذا معناه ان البيانات المرسلة عن حركة البيع والإنتاج والتوزيع من واقع الدفاتر تفتقر إلى مرجعية لحظية سريعة للتحقق من صحتها عبر مقارنتها بالبيانات الموثقة فى دفاتر ووثائق التجار والمصنعين والوكلاء، الأمر الذى يمهد لنشأة فجوة معلوماتية بين ما يصل للوزارة وما يتم فعليا على أرض الواقع، ولا يمكن عمليا تجاوز هذه الفجوة إلا بنزول مسئولى الوزارة للاطلاع على الدفاتر الأصلية، وبالتالى فإن الدولة تطلب معلومات من تجار ومصنعى الحديد والأسمنت وغيرهم بأسلوب يحمل فى طياته ثغرات يمكن استغلالها فى التلاعب بالمعلومات، أى الإضرار بجودة وسلامة المحتوى المعلومات المطلوب بناؤه ثم استخدامه فى اتخاذ قرارات لها تأثير صاعق على ملايين المواطنين، والإضرار بجودة المحتوى هى إحدى صور عنف المعلومات كما أوردنا سابقا .

ثالثا: يطلب الإعلان أن يتم تسليم المظاريف عبر مندوبى الجهات، وبالتالى فإنه عند التنفيذ العملى سيتعين على مئات من المندوبين السفر من محافظاتهم إلى القاهرة أسبوعيا لتسليم «حضرة المظروف» المحتوى على البيانات، وعمليا ستنشأ ثغرة أخرى يمكن من خلالها ممارسة «عنف المعلومات» إن لم تكن بسبب سوء النية ومحاولة التهرب من جانب التجار فستكون بسبب ضغوط ومتطلبات السفر أسبوعيا للعاصمة للإبلاغ عن المبيعات.

رابعا: يعكس الإعلان رؤية احتكارية محدودة الأفق للغاية فيما يتعلق بحرية تداول المعلومات الخاصة بهذه القضية، لأنه يضع المعلومات الخاصة بأسعار الإنتاج والتوزيع والبيع فى حوزة الوزارة والمنتجين والمصنعين والوكلاء فقط، أما الجمهور العام صاحب المصلحة الأولى فى القضية برمتها فهو خارج نطاق تداول المعلومات الذى يحدده الإعلان، وفى هذا تغول وجور فاضح على حق بحق المجتمع فى الحصول على المعلومات المتعلقة بهذه السلعة وحقه فى الاختيار واتخاذ القرار بناء على هذه المعلومات، ولذلك فالإعلان ينحاز إلى فكرة احتكار الدولة للمحتوى المزمع إنشاؤه، واحتكار المعلومة فى حد ذاته حالة من حالات عنف المعلومات كما أوضحنا، لأنه يفتح الباب للحجب والإتاحة دونما مراعاة لحقوق مستهلكى المعلومات فى الحصول عليها.

خامسا: أن دورية جمع البيانات هى «مرة أسبوعيا» وليس على مدار اليوم، أى أن الدولة . ممثلة فى وزارة الصناعة كجهاز بيروقراطى . تساهلت فى المعيار الخاص بتوقيت المعلومة وأخذت بقاعدة الأسبوع بدلا من اليوم، فى حين أن أسواق الحديد والأسمنت فى مصر تتغير وتنقلب رأسا على عقب كل يوم وليس كل أسبوع، وهذه النظرة تعكس تدنيا فى التعامل مع المعلومات وتفريطا فى جودتها الزمنية، هو أمر يفتح بابا للتلاعب وعدم القدرة على التوظيف السليم فى التوقيت السليم، أى يفتح بابا للعنف المعلوماتى يتغذى على التفريط فى الجودة، وهنا لا يسعنا سوى القول بأن الدولة تمارس العنف ضد فئة واسعة من مواطنيها هم مستهلكو الحديد والاسمنت لصالح فئة أضيق تضم المنتجين والتجار.

هكذا عكس الإعلان فكرا تقليديا متخلفا وجامدا وخاطئا فى إدارة المعلومات المتعلقة بهذه الأزمة، وهذا نوع من العبث لأنه يكشف عن أن وزارة



التجارة تمارس عنف المعلومات بسبب قلة وعيها، فالإعلان يدل على أنها لم تسمع بعد عن نظم المعلومات ولا شبكات نقل البيانات ولا نظم المحاسبة الإلكترونية ولا شبكة الإنترنت ولم يخطر على بالها أن كل هذه الأمور أصبحت أمرا واقعا معاشا من حولها.

والحقيقة أن وزارة التجارة لم تكن هي الجهة الوحيدة بالدولة التي تورطت في ممارسة هذه الحالة من عنف المعلومات على المواطنين، بل كانت هناك وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات ووزارة التنمية الإدارية المعنيتان بنشر المعلوماتية وتطوير الأداء الحكومي، فقد سكتتا ولم تحاولا التدخل لمساعدة وزارة التجارة وتركتاها وحدها مع أساطين صناعة الحديد والأسمنت بأدوات وأسلحة متحجرة خارج الزمن، ولم تحاولا تطويق أزمة أسعار الحديد والاسمنت بعلاج معلوماتي يستثمر ما تم إنفاقه على شبكات الاتصالات مترامية الأطراف والحاسبات التي دخلت البلاد بمئات الآلاف وغيرها، وهنا تكون مشاركة الوزارتين في هذه الحالة من عنف المعلومات ناجمة عن التجاهل وافتقاد المبادرة والقدرة على الإبداع في تطبيق حلول وتكتيكات من شأنها تخفيض مستوى عنف المعلومات ودوره في إشعال أزمة أسعار الحديد والأسمنت.

حوادث القطارات والعبارات

لو دققنا النظر «معلوماتيا» فيما جرى من حوادث النقل الشهيرة التي تشهدتها مصر من آن لآخر، كغرق العبارة واحتراق قطار الصعيد وحوادث التصادم بين القطارات وحوادث الطرق البرية، سنكتشف أننا أمام كيانات مؤسسية تعيش حالة «ضبابية معلوماتية» تفرز حالة «عنف معلومات» تغرقنا جميعا في كوارث مؤلمة .. كيف؟

في حالة غرق العبارة السلام ٩٨ كان ثمن الساعات القليلة الفاصلة بين غرق العبارة فعليا ووصول معلومة الغرق لجهات الإغاثة هو الزج بأكثر من ١٠٠٠ شخص إلى قاع البحر الأحمر ليلاقوا حتفهم، وكان البطء وتأخر وصول هذه المعلومة في توقيتها المناسب للجهات المفترض أن تصل إليها هو «قمة العنف» الناشيء عن اهتراء منظومة المعلومات داخل أجهزة الموانى وهيئة السلامة البحرية والشركة المسئولة وجهات الإنقاذ والإغاثة وبقية أجهزة وزارة النقل ككل، وهو ما تأكد في الساعات والأيام اللاحقة بشكل كان أقرب إلى اللطمة القوية على وجه جهود التحول لمجتمع المعلومات التي لا يمل البعض من تكرارها ليل نهار.

بشيء من التفصيل أقول: أين كانت المعلومات الدقيقة في حادث العبارة بدءا من المعلومات الأساسية عن الحالة الفنية للعبارة منذ لحظة شرائها ثم وصولها للمياه الإقليمية المصرية ثم التفتيش عليها ومراجعتها والتصريح لها بالعمل، من حصل على هذه المعلومات وهل احتفظ بها لنفسه أم قام بتمريرها للجهة المعنية، هل كانت هذه المعلومات دقيقة أم مضللة. وحينما وصلت للجهات المسئولة ماذا فعلت بها هل قامت باعتقالها وتخزينها أم تجاهلتها أم تعاملت معها كما ينبغي؟.. ألا يعني كل ذلك أننا أمام حالة عنف معلومات بامتياز ولدت ونشأت وترعرعت على أكتاف اللامبالاة الإدارية واهتراء الأداء بهذه الجهات البيروقراطية؟

وحينما رقصت العبارة رقصة الموت وتأخرت عن موعد وصولها لسفاجا .. لماذا لم ترسل رسائل استغاثة تحمل معلومة الغرق في التوقيت المناسب؟ ولماذا لم تصل إلى الجهات المعنية في موعدها؟ ثم كيف تصل معلومة الغرق لأحد مراكز الطوارئ البريطانية بأقصى شمال الكرة الأرضية ولا تصل للموانيء المصرية التي تقع على بعد عشرات الأميال من موقع الغرق؟ أليست فضيحة أن يقوم الميناء بالنداء على السفينة حينما تأخرت عن موعد وصولها بعدة ساعات فلا ترد ثم لا يعتبر ذلك معلومة لها دلالة تستدعي التحرك؟.

وحينما توافرت بعض المعلومات حول العبارة لم نقم بترجمتها وتفعيلها في صورة قرارات على الأرض ترحم الفقراء وتنقذ رؤوس الأبرياء من الموت والأطفال من اليتم، بل قمنا باعتقالها وحجبها عن العيون والتغاضي عنها من أجل عيون البعض، فالواضح مما نشر عقب الحادث أنه كان لدى الهيئات المعنية معلومات غزيرة مؤكدة عن تهالك العبارة وتقادمها وسوء إمكاناتها وانتهاء عمرها الافتراضي وعدم كفاءة أجهزة السلامة عليها، لكن ما حدث أن هذه المعلومات اعتقلت وحجبت وأهملت تحت وطأة زواج المال بالسلطة، فقد نشرت إحدى الصحف معلومة تقول أن وزير النقل السابق أحدث تغييرا في بعض اللوائح والقوانين بما يسمح لهذه العبارة وغيرها بالعمل، وهذه المعلومة بالذات تؤكد أن المعلومات التي توفرت لدى الجهات المعنية جرى توظيفها عمليا بشكل

قسوة عنف المعلومات غير محسوسة وغير مفهومة والوعي بها وبأبعادها قد يكون شبه معدوم بالنسبة للكثيرين

حينما رقصت العبارة رقصة الموت وتأخرت عن موعد وصولها لماذا لم ترسل رسائل استغاثة تحمل معلومة الغرق في التوقيت المناسب؟

عكسي، أي استخدمت المعلومة في لي ذراع اللوائح لتتلاءم مع حالة العبارة، بدلا من استخدامها في إخراج العبارة من الخدمة.

وفي مرحلة الغرق لم تكن لدينا معلومات، فالثابت أن الجميع لم تتوافر له معلومة في توقيت مناسب حول لحظة الغرق، وأن معلومة الغرق لم تتوفر ويتنبه لها الجميع إليها إلا بعد مرور أكثر من ست ساعات، وبعد الغرق وأثناء جهود الإنقاذ عشنا مرحلة المعلومات المضللة والمنقوصة والخاطئة بل والمدمرة، فقد ظل آلاف البسطاء من أهالي ركاب العبارة ينتظرون بلهفة لساعات طويلة في ظل أجواء قاسية أي معلومة عن ذويهم تريح نفوسهم المكدودة المكتوية بنار الخوف على الأب والابن والأخ والزوجة القادمين من الغربة، ورأينا كيف كان الفشل في توفير المعلومات لهؤلاء ذريعة ذات أنياب لا تعرف الرحمة، فبدلا من أن يتلقى الأهالي الملهوفون معلومات عن ذويهم، تلقوا ضربات من هراوات الأمن على رؤوسهم لأنهم تجرأوا وصرخوا من الألم وتدافعوا عفويا مدفوعين بألمهم وجراحهم نحو بوابة الميناء.

إذا وضعنا ذلك كله أمام التعريف الذي سقناه سابقا لعنف المعلومات نخلص إلى أن منظومة معلومات وزارة النقل قد مارست العنف ضد الضحايا وذويهم، وذلك بأنها سمحت بإنتاج البيانات الخاصة بحالة العبارة ثم اعتقالها في نطاق أضيق كثيرا من نطاق استخدامها، ثم أعادت توليدها في صورة معلومات جرى تضليلها ثم الدفع بها بعد تضليلها لكي يتم توظيفها وفقا لما فيها من تضليل، وكانت النتيجة اتخاذ قرار بإبحار العبارة رغم ما فيها من عيوب فنية، وفي ساعات الغرق عجزت هذه المنظومة عن توفير ممر آمن وسريع وفعال ينقل معلومة الغرق للجهات المعنية، وحينما يكون لدينا منظومة معلوماتية بكل هذا العجز والقصور، فالأمر لابد أن يتعدى طبيعة ونوع أدوات ومعدات ونظم وبرمجيات إدارة المعلومات في هذه المنظومة إلى البيئة المؤسسية وبيئة العمل الشاملة التي تعمل فيها هذه الأدوات، وهنا تتولد الحاجة إلى التفتيش عن أشياء أخرى إضافية إلى جانب كفاءة النظام الإداري ونظام التدريب وقواعد نزاهة وشفافية المعلومات وضوابط تدقيقها وأمانة نقلها وتصحيح مسارات توظيفها وعقوبات عدم تفعيلها وتوظيفها على النحو الأمثل. ■

قياسات الرأى العام:

ماجد عثمان

※ ربما يكون أول من استخدم كلمة الرأى العام هو الفرنسى مونتانى (Montaigne) عام ١٥٨٨، كما اشار الاقتصادى آدم سميث إلى «الرأى العام» فى كتابه Theory of moral sentiments ثم توالت كتابات الفلاسفة وعلماء الاجتماع بفروعه المختلفة لتأصل المفهوم.

وصاحب هذا الاهتمام بالرأى العام اهتماماً موازياً بقياسه ومحاولة فهم أبعاده وجوانبه المختلفة وكيف يتشكل ويتطور ربما من أجل التنبؤ المستقبلى به وربما أيضاً للتأثير عليه وتوظيفه لتحقيق مكاسب سياسية او اقتصادية.

ولعل أول استطلاع رأى موثق هو استطلاع محلى اجرته صحيفة The Harrisburg Pennsylvanian فى عام ١٨٢٤ وأظهرت تفوق أندرو جاكسون على جون كوينسى أدامز قبيل الانتخابات الأمريكية. وقد توافقت نتائج الانتخابات الأمريكية مع التوقعات المبنية على الاستطلاع إلا أن جاكسون والذى حصل على أعلى الأصوات لم يصل إلى ٥٠٪ من الأصوات، وبناء على الملحق الثانى عشر للدستور الأمريكى فى ذلك الوقت تم اختيار الرئيس بواسطة مجلس النواب والذى اختار ادامز ليصبح فى عام ١٨٢٥ الرئيس السادس للولايات المتحدة الأمريكية. واستمر إجراء استطلاعات الرأى العام على مستوى محلى (مدن ولاية) حتى عام ١٩١٦ حين تم إجراء أول استطلاع للولايات المتحدة بأسرها بواسطة صحيفة The Literary Digest (والتى اندمجت عام ١٩٣٨ فى الـ Time) والذى نجح فى توقع فوز وودرو ويلسون برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.

إلا أن استطلاع الرأى الذى قامت به الصحيفة بعد عشرين سنة كان بمثابة الضربة القاضية التى أودت بمصداقية الـ Digest حيث توقعت وقبل انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام ١٩٣٦ بأسبوع واحد بفوز «ألف لاندون» حاكم كنساس والمرشح الجمهورى على «فرنكلين روزفلت» وهو ما لم يحدث بل إن النتيجة التى حصل عليها «لاندون» فى الانتخابات كانت من ضمن الأسوأ فى تاريخ الانتخابات الأمريكية حيث لم يفز إلا فى ولايتين فقط (فيرمونت ومين) وجاء نجاح روزفلت كاسحاً. وقد أثار هذا الاستطلاع كثير من التداعيات التى أدت إلى تعديل أساليب استطلاعات الرأى العام ونبهت إلى أهمية استخدام الأساليب الإحصائية الرصينة فى اختيار العينات وتدارس التحيز المحتمل من جراء ارتفاع نسب عدم الاستجابة. ويذكر أن هذا الاستطلاع والذى توصل إلى نتيجة عكسية إعتمد على تحليل نتائج عينة ضخمة جداً بلغت نحو ٢.٣ مليون مواطن أمريكى وهو ما لفت الأنظار إلى أن كبر حجم العينة (كسر المعاينة) لا يشكل الضمان الكافى لتمثيل العينة للمجتمع المستهدف.

وقد تبين عند تحليل أسباب الإخفاق أن العينة المستهدفة كانت تبلغ نحو ١٠ مليون مواطن استجاب منهم ٢.٣ مليون مواطن إلا أن خصائص المستجيبين - والذين تم الاعتماد عليهم فى تحليل النتائج - كانت مختلفة عن خصائص غير المستجيبين.

ويرجع الخطأ الذى وقعت فيه الصحيفة إلى أن العينة المختارة اعتمدت على ثلاث شرائح وهى المشتركين فى الصحيفة بالإضافة إلى قائمة أصحاب الهواتف وقائمة أصحاب السيارات الخاصة، وهو ما شكل عينة من أصحاب الدخول الأعلى فى الولايات المتحدة فى النصف الأول من الثلاثينات وهى فترة شهدت كساداً اقتصادياً. ومن المعروف أن أصحاب الدخول الأعلى يكونون أكثر تعاطفاً مع الحزب الجمهورى وبالتالى جاءت نتائج الاستطلاع المبنى على عينة (حتى ولو كانت كبيرة) متحيزة للحزب الجمهورى ومختلفة عن نتيجة الانتخابات الأمريكية التى اسفرت عن



"من يخـــاف الحقيقـــة؟!"

قياس الرأى العام فى مجتمعات لم يعتد مواطنوها على قدر كاف من حرية التعبير عن الرأى يجب أخذها بحذر.

فوز كاسح للمرشح الديمقراطى فرانكلين روزفلت والذى يعتبره الكثيرين أعظم الرؤساء الأمريكيين.

وقبل هذه الواقعة بعام واحد أى فى عام ١٩٣٥ تم تأسيس المعهد الأمريكى للرأى العام بواسطة جورج جالوب الأستاذ الجامعى والخبير المعروف بإسهاماته فى توظيف الأساليب الإحصائية فى دراسات السوق. وقد قام جالوب بإجراء استطلاع رأى أعتمد عليه فى توقع فوز فرانكلين روزفلت ولم تتجاوز العينة المختارة ٥ آلاف بخلاف النتيجة التى توصلت إليها The Digest الصحيفة ذات الصيت الذائع والتى اعتمدت على عينة كبيرة الحجم ولكن سيئة التصميم.

وشكلت هذه الواقعة منعطفاً هاماً فى مسار صناعة استطلاعات الرأى العام وأكدت أهمية الاعتناء بالتفاصيل المنهجية المرتبطة بالمنهج الإحصائى لاسيما أساليب العينات الاحتمالية وأرست فكرة رئيسية مفادها أن تصميم العينة أكثر أهمية من حجمها وأن جمع عينة ضخمة لا يُصلح تصميم منهجى فاسد، وأن الاستثمار فى تصميم العينة أجدى من الإنفاق على زيادة حجمها.

وجاءت انتخابات ١٩٤٨، إلا أن الانتخابات الرئاسية الأمريكية هذه المرة خذلت جالوب الذى صنع مجده من انتخابات عام ١٩٣٦ وانقلب السحر على الساحر. فقد توقع جالوب فوز «توماس ديوى» على «هارى ترومان» والذى كان نائباً للرئيس فرنكلين روزفلت وهو ما لم يحدث وأصبح ترومان رئيساً للولايات المتحدة واستمر فى البيت الأبيض لفترتين (١٩٤٥ - ١٩٣٥). وعلى الرغم من هذه السقطة، إلا أن سجل مؤسسة جالوب يحتوى على العديد من النجاحات، وأحد النجاحات البارزة حققتها فى المملكة المتحدة عندما توقعت فوز حزب العمال فى انتخابات عام ١٩٤٥ وبعكس كل التقديرات التى أصدرها المحللين السياسيين والذين توقعوا فوز تشرشل صاحب الانجازات العسكرية فى انتخابات تجرى بعد إعلان فوز الحلفاء بأشهر قليلة فى الحرب العالمية الثانية. وجاءت النتائج صادمة لتعلن فوز حزب العمال برئاسة «كليمنت اتلى» بالأغلبية وهو ما فسره المحللون السياسيون بأن الشعب البريطانى لم يختر حزب المحافظين على الرغم من أنه حقق النصر العسكرى فى أعتى الحروب لاعتقاده بأن حزب العمال أكثر قدرة على إعادة بناء بريطانيا فى مرحلة ما بعد الحرب.

وقد شهد النصف الثانى من القرن العشرين نمو مطرداً فى صناعة استطلاعات الرأى العام تمثلت فى زيادة أعداد المؤسسات والشركات العاملة فى هذه الصناعة مع نمو ثقافة استطلاعات الرأى العام وتأثيرها فى صنع السياسات العامة وفى قياس درجه الرضا تجاه هذه السياسات وتجاه المؤسسات والسياسيين أنفسهم. وأصبحت استطلاعات الرأى جزء من نسيج العالم الحر. وبدأت فى التغلغل وبقوة فى المجتمعات التى شهدت إصلاحات سياسية وانتخابات حقيقية، كما بدأت فى التسلل على استحياء فى المجتمعات التى تخطو خطوات متباطئة فى طريق الإصلاح السياسى لعلها تجد موطئاً لقدم فى بيئة لا ترحب إلا بالحد الأدنى من التغيير.

الاستطلاعات والحكم الرشيد

يُعرف الحكم الرشيد بشروط من بينها أن يسود المجتمع مبادئ المساءلة والمشاركة والشفافية والتوافق. وتحقق هذه الشروط يرتبط إلى حد كبير باتجاهات الرأى العام ومن ثم فإن قياسات الرأى العام والتفاعل الإيجابى معها من قبل السلطة السياسية يسهم فى انتقال المجتمع فى اتجاه الحكم الرشيد.

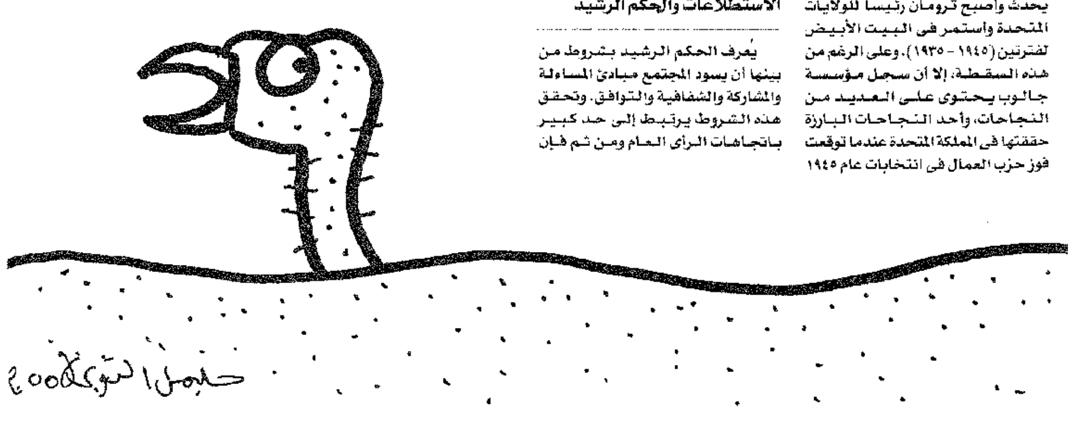
وتسهم استطلاعات الرأى العام فى تحقيق مبدأ المساءلة من خلال الاهتمام برأى المواطن فى أداء أجهزة الدولة وكفاءة تقديم الخدمات وفى كشف جوانب الفساد. وتسهم استطلاعات الرأى العام فى تحقيق مبدأ المشاركة من خلال التعرف على رأى المواطن فى تحديد الأولويات وفى اقتراح الحلول بحيث يصبح جزء من الحل وليس جزء المشكلة. ومن ناحية أخرى تسهم استطلاعات الرأى العام فى تدعيم مبدأ الشفافية من خلال الإفصاح عن تقييم أداء المؤسسات الحكومية والإفصاح عن شكاوى المواطنين وهمومهم. وأخيراً تسهم استطلاعات الرأى العام فى تحقيق التوافق المجتمعى حول القضايا الهامة من خلال خلق الحوار حول هذه القضايا استناداً إلى معلومات موثقة عن تفضيلات المواطنين ومن خلال التغذية الراجعة حول السياسات والإجراءات المطبقة فعلاً وتلك التى تنوى الحكومات تطبيقها.

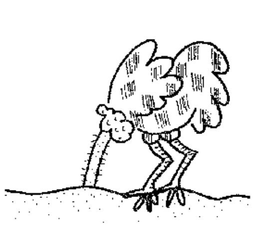
إن معرفة توجهات الرأى العام واتجاهاته نحو القضايا التى تهم المواطن وكيفية التعامل معها هو أحد المصادر التى يجب أن يعتمد عليها السياسيون لصياغة سياسات عامة يكتب لها النجاح، كما أن القياس الدورى والسريع للرأى العام نحو القضايا المطروحة على المجتمع والتفاعل الإيجابى دون إبطاء مع مؤشرات الرأى العام يرسى مبادئ المشاركة والمساءلة ويساعد فى خلق إحساس بأن الدولة تضع المواطن فى بؤرة اهتمامها (Citizen Centered Approach). وتنامى هذا الإحساس يمكن توظيفه فى بناء جسور الثقة بين المواطن والدولة. وهذه الثقة المتبادلة هى شرط ضرورى لإنجاح السياسات العامة التى تتبناها وتسوق لها أى حكومة. وهذه البيئة التى تسودها الثقة المتبادلة تضفى على المعادلة التى تحكم العلاقة بين الدولة والمواطن قدراً أكبر من العدالة التى لا تخلو من الواقعية وقدراً أكبر من الشفافية التى لا تخلو من الإنصاف.

اتخاذ القرار

تجرى العديد من المؤسسات الحكومية والخاصة والمستقلة والأكاديمية استطلاعات لقياس الرأى العام وعادة ما تتاح نتائج هذه الاستطلاعات لمتخذى القرار على المستوى القومى والمحلى وفى مجالات متنوعة سياسية واقتصادية واجتماعية ويحدث ذلك بدرجات متفاوته فى دول العالم المتقدم والنامى على حد سواء.

والسؤال الذى يطرح نفسه وبإلحاح، كيف يتعامل متخذ القرار مع هذه النتائج؟





ويمكن القول أن مدى تفاعل السياسيين ومتخذي القرار مع نتائج استطلاعات الرأي يعتمد على العوامل الآتية:

١- مدى احترام السياسيين للرأي العام وفي بعض الأحيان ينظر السياسي نظرة متعالية للرأي العام تنطلق من إحساس ربما يصل إلى اليقين باحتكار الحكمة والقدرة على اختيار الصواب.

٢- مدى مرونة السياسيين واستعدادهم لتقبل الرأي المخالف لقناعاته.

٣- مدى قدرة السياسيين على تفهم وتذوق الأساليب العلمية في قياس الرأي العام.

٤- مدى القوة النسبية التي يتمتع بها السياسي مقارنة بمنافسيه، وكلما زادت قوته كان أكثر استعداداً لتقبل نتائج لا تتوافق مع قناعاته الشخصية أو الأيديولوجية.

٥- مدى الاتساق بين نتائج الاستطلاعات ومصادر المعلومات الأخرى.

أساليب قياس الرأي

من الأهمية بمكان أن يتم تطبيق الأساليب العلمية في قياس الرأي العام وعدم الانزلاق في سلسلة من التنازلات بحجة ضيق الوقت أو قلة الموارد تنتهي بنتائج لا تعكس الواقع الفعلي المراد قياسه، وفيما يلي المراحل الأساسية التي يجب أن تمر بها أي محاولة لقياس الرأي العام من خلال الاستطلاعات.

١) تحديد واضح للغرض من استطلاع الرأي العام والجوانب التي يسعى لقياسها.

٢) توافر إطار نظري لموضوع الاستطلاع يتم من خلاله تفكيك جزيئاته وفهم العلاقات التشابكية بينها والتعرف على المؤشرات التي تشكل الرأي العام فيما يتعلق بالموضوع محل الدراسة.

٣) تصميم أداة (أو أدوات) القياس واختبارها ودراسة درجة الصدق والثبات المقترنة بهذه الأداة.

٤) تحديد واضح للمجتمع المستهدف وللإطار المستخدم لسحب العينة.

٥) تحديد واضح للتعريفات والمفاهيم المستخدمة.

٦) تصميم جيد للعينة يتسق مع أهداف الاستطلاع ونطاقه.

٧) حساب خطأ المعاينة وهو الهامش الذي يسلم الباحث بأنه الحد الأقصى للفارق بين مؤشرات العينة ومؤشرات المجتمع محل القياس.

٨) استخدام الآليات والإجراءات التي تحد من أخطاء التحيز ويشمل ذلك: عدم شمول إطار العينة لشرائح اجتماعية معينة - الأخطاء الناتجة عن صياغة الأسئلة - سوء أداء الباحثين - أخطاء تكويد وإدخال النتائج - عدم الحيدة المقصودة أو غير المقصودة في تصميم العينة.

٩) التأكد من أن الخصائص الديموجرافية للعينة التي تم جمعها تتطابق مع خصائص المجتمع وفي حالة عدم تقارب واحد أو أكثر من هذه الخصائص يتم حساب أوزان نسبية لبناء العينة الموزونة Weighted Sample التي يعتمد عليها في حساب المؤشرات من واقع عينة افتراضية تتطابق خصائصها مع المجتمع المدني محل الدراسة.

١٠) دراسة ورصد نسب عدم الاستجابة والتفاوتات في هذه النسب بين الشرائح الاجتماعية المختلفة والتعرف على اتجاهات التحيز التي يمكن أن تقترن بها وأخذها في الاعتبار عند تحليل النتائج.

١١) عرض النتائج بشفافية وحيادية وتجنب الانتقائية في إبراز بعض النتائج وإخفاء البعض الآخر.

١٢) رصد محدودية الدراسة والإفصاح عنها بشفافية.

من النظرية إلى التطبيق

تبدو المنهجيات التي يجب أن تحكم استطلاعات الرأي العام وكأنها صيغت في أبراج عاجية بعيدة عن الواقع الفعلي لقياس الرأي العام بكل تعقيداته. وعادة ما تعتمد المنهجيات الإحصائية على افتراضات يرى الممارسين لقياس الرأي العام أن تحققها نادر الحدوث ومن ثم تتكون لديهم قناعات بأن الالتزام بالمنهجيات الإحصائية من قبيل لزوم مالا يلزم وأن التحلل منها هو تبسيط غير مخل.

ومع تسليمنا بالواقع المعقد لقياس رأي البشر، إلا أن الإخلال بالمنهجيات الإحصائية - وليس الالتزام بها - هو الذي يزيد هذا الواقع تعقيداً بل يرسم علامات استفهام حول المقاييس الكمية المستخرجة سواء في مدلولها المطلق أو حتى في مدلولها النسبي عند عقد المقارنات الزمنية أو المكانية أو المقارنات بين الفئات الاجتماعية المختلفة (النوع - العمر - الحالة الاجتماعية - ...)، ناهيك عن التحليلات التي تحاول تلمس العلاقات السببية والتشابكات والتأثيرات المتبادلة بين الظواهر.

ومع التسليم بأن الواقع العملي لا يسمح في بعض الأحيان بتطبيق المنهجيات الإحصائية بحذافيرها، إلا أن هناك خطوط حمراء يجب عدم تجاوزها عند إجراء استطلاعات الرأي العام وهي:

١) الحرفية في تصميم أدوات الاستطلاع ومحاولة الوصول إلى درجة عالية من الصدق والثبات وتجريب الأداة من خلال الاختبارات القبلية التي تسبق إجراء الاستطلاع.

٢) توافر إطار يسمح بالوصول إلى المجتمع المستهدف.

٣) عدم وجود اختلاف كبير بين المجتمع المستهدف والمجتمع المعاين.

٤) الالتزام باستخدام عينات احتمالية والبعد عن العينات العمدية.

٥) تقدير خطأ المعاينة لمعرفة المدى الخاص بكل مقياس يتم تقديره من البيانات مع ملاحظة أنه لا يمكن حساب خطأ المعاينة إذا كانت العينة المستخدمة غير احتمالية.

٦) الحد من التحيز الناشئ عن الاختيار Selection bias.

٧) التحفظ في إجراء المقارنات الزمنية أو المقارنات بين المجتمعات المختلفة إذا لم تكن أدوات القياس متطابقة ومراعاة الاختلاف في الخصائص بين المجتمعات محل المقارنة عند الإشارة إلى التفاوتات بينها.

خبرات عملية من الواقع المصري

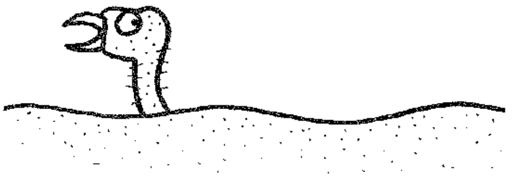
ونشير فيما يلي إلى بعض الخبرات العملية التي أبرزتها الممارسة في إجراء استطلاعات الرأي في المجتمع المصري والتي قد لا تنطبق بالضرورة على مجتمعات أخرى.

النوع الاجتماعي: تلعب العلاقة بين نوع الباحث ونوع المبحوث دوراً هاماً في الدراسات الميدانية ولم يلق هذا البعد اهتماماً كافياً في أدبيات العلوم الاجتماعية وربما أيضاً لا يتم رصده وتحليله حتى تتاح الفرصة لإجراء هذا التحليل.

وعادة ما يهدف تصميم العينة إلى تجنب «تحيز الاختيار» من خلال إعطاء احتمالات معروفة للشرائح الاجتماعية المختلفة، كأن يتطلب تصميم العينة تحديد نوع المبحوث بشكل عشوائي من خلال مثلاً إعطاء ترقيم مسلسل للمقابلات وتستهدف المقابلة ذات الرقم الفردي مقابلة مع أنثى وتستهدف المقابلة ذات الرقم الزوجي مقابلة مع ذكر.

ويشير واقع تجربة مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار في مصر في إجراء استطلاعات الرأي العام بواسطة الهاتف إلى أن وجود تفاعل بين نوع الباحث ونوع المبحوث يؤثر على مدى الالتزام بشروط تصميم العينات المتعارف عليها في الأدبيات العالمية. وقد أظهرت الممارسة الفعلية أن نسبة غير قليلة من المقابلات التي تتم من خلال الهاتف تتعرض لاحتمال رفض الإجابة إذا ما طلب الباحث إجراء المقابلة مع مبحوث من الجنس الآخر. فمثلا إذا كان الباحث ذكراً واتصل هاتفياً لإجراء استطلاع ورد عليه أحد الذكور المقيمين بالمنزل وطلب الباحث توصيله بإحدى الإناث في المنزل

أظهرت الممارسة الفعلية أن نسبة غير قليلة من المقابلات التي تتم من خلال الهاتف تتعرض لاحتمال رفض الإجابة إذا ما طلب الباحث إجراء المقابلة مع مبحوث من الجنس الآخر



قد يؤدي ذلك إلى رفض إجراء الاتصال ويزداد هذا الاحتمال بين الشرائح الاجتماعية الأكثر محافظة.

توقيت الاتصال: يلعب توقيت الاتصال دوراً في تحديد خصائص العينة المستجيبة، وزيادة الفجوة بين خصائص العينة وخصائص المجتمع المستهدف. فبالنسبة للمسموح الميدانية المعتمدة على الزيارات المنزلية أو بالنسبة لاستطلاعات الرأي المعتمدة على المحادثة الهاتفية فإن إجراء المقابلات أو الاتصالات في الفترة الصباحية يؤدي إلى أن تتضمن العينة نسبة من الإناث غير العاملات ومن أرباب المعاشات تفوق نسبة تمثيلهم في المجتمع المستهدف وهو ما يشكل تحيزاً في النتائج يتزايد كلما تفاوتت استجاباتهم عن باقي شرائح المجتمع.

الموضوعات ذات الصبغة السياسية: عند استطلاع رأي الجمهور عن موضوعات ذات طبيعة سياسية تميل الشرائح الاجتماعية الأقل تمكيناً إلى الإجابات المتحفظة التي لا تعكس معارضة أو عدم رضا عن النظام وكأنهم يؤثرون السلامة. وهو ما يدعو إلى تحليل نتائج الاستطلاعات ذات الطبيعة السياسية بقدر أكبر من الحرص في تفسير استجابات الشرائح المهمشة، وعادة تضم هذه الشرائح الفئات الأقل تعليماً والأقل دخلاً.

قياس الرضا عن الخدمات: تظهر نتائج استطلاعات الرأي العام بشكل منتظم أن الشرائح التي تتمتع بخدمات أفضل تكون أقل رضا عن مستوى هذه الخدمات وهو ما يبدو تناقضاً يدعو للدهشة. فقد أظهرت استطلاعات الرأي العام التي تحاول قياس درجة الرضا عن خدمات التعليم والصحة والمواصلات والمرافق أن درجة الرضا تزيد في الريف عن الحضر وتزيد بين الأسر التي ينتظم أبنائها في المدارس الحكومية عن الخاصة وتزيد بصفة عامة في المناطق التي تتمتع بخدمات أسوأ. وعلى الأرجح أن الشرائح الاجتماعية التي تحصل فعلاً على خدمات أفضل يرتفع سقف تطلعاتها لأنها أكثر انفتاحاً على العالم الخارجي وأكثر معرفة - من خلال وسائل الإعلام أو من خلال تجارب شخصية - بمستوى الخدمات المقدمة للمواطن في الدول المتقدمة وبالتالي تكون أقل رضا عن مستوى الخدمات التي تقدم لها. ويظل المواطن الذي يحصل على مستوى متدني من الخدمات - راض بقليله - ويسجل درجة أعلى من الرضا حتى وإن قدمت له خدمة متردية.

هل تؤثر الاستطلاعات في الرأي العام؟

يفترض في استطلاعات الرأي العام أنها أداة لقياس الرأي العام ويمكن استخدامها بالإضافة لأدوات أخرى ومصادر بيانات أخرى لتحليل اتجاهات الرأي العام وتفسير هذه الاتجاهات، وذلك في إطار من الحيادية وباستخدام أساليب منهجية منضبطة تسمح باستخراج نتائج لا يشوبها العوار العلمي أو الأخلاقي. ومع ما اكتسبته استطلاعات الرأي العام من قوة وتأثير في الحياة السياسية في المجتمعات الديمقراطية يثير كثير من الباحثين إشكالية ما إذا كانت قوة وتأثير استطلاعات الرأي العام قد تحولت لتلعب دوراً مختلفاً وتجاوزت دورها المفترض في القياس المحايد لتؤثر وربما لتتلاعب بالرأي العام. ويرى البعض أن هناك علاقة تفاعلية قد نشأت بين استطلاعات الرأي العام والرأي العام نفسه. وبعبارة أخرى لم يقتصر دور استطلاعات الرأي العام على دور الراصد لقياس الرأي العام بل أصبح له دوراً خفياً يفترض ألا يلعبه وهو التأثير في الرأي العام ذاته.

وهنا يجب أن نفرق بين نوعين من التأثيرات: الأول تأثيرات مقصودة تتم بأسلوب تآمري لتحقيق فائدة معينة لأحد الأطراف أو أحد جماعات المصالح أو الضغط وهذه التأثيرات هي تأثيرات مرفوضة أخلاقياً كأن يتم عمل استطلاعات رأي حول مرشح انتخابي بناء على عينة متحيزة بهدف المبالغة في شعبيته أو التقليل منها لتحقيق أهداف انتخابية.

والنوع الثاني هو تأثيرات غير مقصودة ناتجة عن رد فعل بعض شرائح من الرأي العام لنتائج الاستطلاعات. وعلى سبيل المثال فإن تأثير اللحاق بالفائز والذي يطلق عليه الـ Bandwagon Effect يحدث بين الناخبين الذين لم يحددوا موقفهم وعندما ترجح استطلاعات الرأي أحد المرشحين تنضم إليه هذه الشريحة من منطلق الانضمام للفريق الفائز (خليك مع الرايجه).

وفي المقابل قد يكون سلوك الناخبين معاكس لنتيجة استطلاع الرأي العام من قبيل تحدي الاتجاه العام وهو ما يطلق عليه Under dog Effect وربما يكون علامة تحدي من قبل شريحة من الناخبين التي استفزتها نتيجة استطلاعات الرأي وشجعتها على مساندة الخاسر (خالف تعرف).

وهذان النوعان من التأثيرات لا يمكن التنبؤ بهما بشكل قطعي في غياب دراسات اجتماعية نفسية للمجتمع محل الدراسة ولاستجابته لموضوع الاستطلاع من خلال الأساليب الكيفية المكملة مثل المجموعات البؤرية. ويظل التحدي الأكبر هو كيفية تقدير تأثير كل منهما وهل يتكافآن؟ ومن ثم يزيل أحدهما تأثير الآخر. أم يطغى أحدهما على الآخر على نحو يؤثر في النتائج.

قياسات الرأي وضعف التنشئة السياسية

كثيراً ما يشكك المحللون السياسيون في صدق نتائج استطلاعات الرأي العام في المجتمعات التي مازالت في بدايات الإصلاح السياسي، ويرى هؤلاء المحللون أن قياس الرأي العام في مجتمعات لم يعتد مواطنوها على قدر كاف من حرية التعبير عن الرأي يجب أخذها بحذر. وتشير نتائج استطلاعات الرأي العام التي أجريت في مصر في السنوات الثلاثة الأخيرة والتي تناولت موضوعات ذات صبغة سياسية أن درجة الإفصاح عن عدم الرضا تقل بين الأقل تعليماً والأقل دخلاً. ويتسق ذلك مع ما سبق الإشارة إليه من أن الشرائح الاجتماعية الأكثر هشاشة تكون في بدايات مسيرة الإصلاح السياسي أكثر حذراً في التعبير عن رأيها بحرية وصراحة لاسيما إذا ما تعلق الأمر بأمور سياسية كانت في الماضي القريب من المحرمات. يضاف إلى ذلك أن انتشار ثقافة استطلاع الرأي العام هي في ذاتها عملية تحول لا يستجيب لها الجميع بنفس السرعة. وتجدر الإشارة إلى أن وجود شرائح متخوفة من إبداء رأيها ينتج عنه تأثير يطلق عليه «التأثير التراكمي للصمت» Spiral of Silence Effect وهو التأثير الناتج عن صمت فئة «مستضعفة» أو «مهمشة» تعارض الموضوع المطروح في استطلاعات الرأي العام ولكنها متخوفة من الإفصاح عن رفضها له وتؤثر الصمت لإحساسها بأن هناك قوة تسانده ومن ثم لا تظهر نتائج استطلاع الرأي العام هذه الشريحة بوزنها النسبي الحقيقي.

هل تتسم أدوات القياس بالثبات؟

قضية مدى الثبات الذي يجب أن يتوافر في أدوات قياس الرأي العام هو أحد التحديات التي تواجه الباحثين العاملين في مجال قياس الرأي العام. ونؤكد هنا على أن الثبات مقصود به ثبات الأداة المستخدمة في قياس الرأي العام وليس المقصود به ثبات (أو عدم تغير) اتجاهات الرأي العام. ويقاس ثبات الأداة من خلال تكرار تطبيقها على نفس الجمهور لمعرفة مدى التغير الذي يطرأ على الاستجابات من مرة إلى أخرى، ويعتبر عدم تغير الاستجابات عند التكرار مؤشراً عن ثبات الأداة. وتتطلب الحبكة العلمية أن يقيس الباحث درجة ثبات الأداة وهو أمر شائع في الاختبارات المستخدمة في فروع علم النفس بدرجة أكبر من باقي فروع العلوم الاجتماعية الأخرى.

تسهم استطلاعات الرأي العام في تحقيق التوافق المجتمعي حول القضايا الهامة من خلال خلق الحوار حول هذه القضايا استناداً إلى معلومات موثقة عن تفضيلات المواطنين

كتاب الزاوية

رفاعة الطهطاوى

المرشد الأمين للبنات والبنين

فى السنة التى غادرت فيها الحملة الفرنسية مصر (١٨٠١) وُلد رفاعة الطهطاوى فى بلدة طهطا بصعيد مصر ليساهم بعد ذلك بجهود غير مسبوقة فى تحويل مصر ثقافيًا وعلميًا من حالة التخلف وحياة العصور الوسطى إلى بدايات النهضة والتقدم.

وفد رفاعة عام ١٨١٧ إلى الأزهر طلبًا للعلم واقترب من شيخ الأزهر آنذاك حسن العطار الذى احتضنه واختصه بمزيد من الرعاية لما أحس فيه من الذكاء وحب العلم.

وفى عام ١٨٢٤ أصبح رفاعة واعظًا وإمامًا لإحدى فرق الجيش المصرى، ثم رشحه الشيخ العطار للوالى محمد على لكى يكون إمامًا للمبعوثين المصريين إلى باريس عام ١٨٢٦، وهناك بدأ فى تعلم الفرنسية ودرس العلوم المقررة على طلاب البعثة ووجهه المشرفون إلى إتقان الفرنسية. وانتهز الشيخ فرصة وجوده فى باريس فأمعن النظر فى كل ما رآه، وتغلغل فى الحياة الفرنسية فعرف عن الدستور والانتخابات ومجامع العلماء وعاد إلى مصر عام ١٨٣١ وترقى فى الوظائف وعمل فى الصحافة واتجه إلى التأليف. ومن أشهر مؤلفاته: «خلاصة الإبريز والديوان النفيس»، و«تخليص الإبريز فى تلخيص باريز»، و«مباهج الألباب المصرية فى مناهج الألباب المصرية»، و«تعريب القانون المدنى الفرنساوى»، و«تاريخ قدماء المصريين»، ورسالة المعادن»، وكذلك «المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين» الذى طبع لأول مرة فى مطبعة بولاق عام ١٨٧٢، وهو كتاب عن التربية.

وقد أعادت مكتبة الآداب بالقاهرة عام ٢٠٠٨ طبع كتاب «المرشد الأمين» وقدم له محمد على حسن وأحمد على حسن، واختارت «وجهات نظر» مقتطفات منه.

شهدت الدول النامية انفراجة تدريجية سمحت بهامش من الحرية صاحبه ازدهار نسبى فى صناعة استطلاعات الرأى العام

وفى كثير من الأحيان يواجه قياس ثبات الأسئلة المستخدمة فى استطلاعات الرأى صعوبات عملية مرتبطة بالعثور على نفس المفردة مرة أخرى. وفى بعض الأحيان يكون السؤال الموجه إلى الجمهور لا يتسم بقدر عال من الثبات إلا أن ذلك لا يشكل تغيراً يذكر فى مجمل النتائج. وعلى سبيل المثال: فإن توجيه سؤال عن مدى الرضا عن العمل الذى يقوم به المبحوث، إذا ما تم توجيهه فى الصباح قبل الذهاب لعمله قد يعطى إجابات أكثر إيجابية مما لو تم توجيه السؤال فى المساء بعد العودة من العمل. إلا أن توزيع المقابلات على ساعات النهار يزيل فى المتوسط التحيز الناتج عن عدم ثبات هذا السؤال. بمعنى آخر، فإن توجيه السؤال لنفس الشخص مرتين، مرة فى الصباح، وأخرى فى المساء قد يعطى استجابات مختلفة لصالح الاستجابات الصباحية. إلا ان توزيع المقابلات على مدار اليوم يؤدى إلى الوصول إلى درجة رضا للمجتمع المستهدف لا تختلف فى المتوسط إذا ما تم تكرار السؤال. وبمعنى آخر فإن الثبات قد لا يتحقق على المستوى الفردى ولكنه يتحقق على المستوى الجمعى. والثبات الجمعى أكثر أهمية فى حالة قياس الرأى العام أما الثبات الفردى فقد يكون أكثر أهمية فى بعض فروع العلوم الاجتماعية الأخرى.

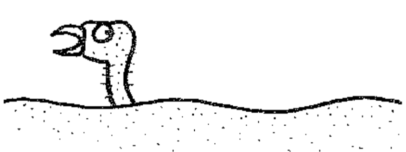
الإتاحه والسرية.

يهدف الإحصائى إلى جمع البيانات من أجل إتاحتها لتوظيفها على النحو الذى يسمح بأداء الدور التنموى بقدر أكبر من الفاعلية والكفاءة، ومن ثم فإن التكوين الفكرى للإحصائى يتنافى بصفة عامة مع تقييد إتاحة البيانات للكافة. ومن الشروط التى لا يتحقق الحكم الرشيد بدونها مبدأ الشفافية والذى يعنى التوسع فى إتاحة المعلومات للمواطن كحق من حقوقه. ومدى تحقق الحكم الرشيد يرتبط بمدى تحرك مؤسسات المجتمع من مبدأ «المعلومات على قدر الحاجة» إلى مبدأ «المعلومات حق لكل مواطن».

ومع إيماننا الكامل بأنه فى غيبة المعلومات فإن النجاح لا يأتى إلا مصادفة وإن إتاحة المعلومات يجب أن تكون هى الأصل وماعداها الاستثناء. إلا أن هنالك شرطين مقيدين لإتاحة البيانات يجب عدم إغفالهما: الشرط الأول مرتبط بعدم تعارضها مع الحفاظ على سرية البيانات الشخصية وهذا القيد يشكل العمود الفقرى لأخلاقيات مهنة الإحصاء والتى لم تُترك فقط للضمير الإنسانى وإنما نظمتها القوانين. ومنها القانون المصرى الذى يجرم إفشاء بيانات شخصية تتعلق بشخص معين (أو أسرة أو منشأة) إذا كان قد تم جمع هذه البيانات لأغراض التعداد السكانى أو فى إطار مسوح ميدانية حتى لو كانت هذه البيانات يمكن استخدامها فى تأسيس مخالفة قانونية (مثل التهرب من الضرائب). والإحصائى فى ذلك - مع الفارق - مثل القس الذى يستمع لاعترافات «المذنب» ولكنه لا يستخدم هذه المادة الذى تم الاعتراف بها لمعاقبة من اعترف بها.

والشرط الثانى يرتبط بعدم تعارض الإتاحة مع مقتضيات الأمن القومى وهذا الشرط يستخدم فى بعض المجتمعات بقدر من الإفراط فى المنع الذى قد يكون فى بعض الأحيان غير مبرراً. كما أن تطبيقه يتجه فى بعض الأحيان إلى حماية أفراد أكثر من حماية الأمن القومى، وفى بعض الأحيان لا تكون هذه التفرقة سهلة. ويتطلب الأمر أن يتوافق المجتمع على تحديد جهة محايدة وذات مصداقية لتحديد «الخطوط الحمراء» التى يؤدى تجاوزها إلى تهديد الأمن القومى دون إفراط أو تفريط.

وبالنسبة لاستطلاعات الرأى العام، توجد إشكالية إضافية تتعلق بتعريف مالك البيانات التى تم جمعها، فمثلاً إذا طلبت جهة معينة (مؤسسة حكومية- شركة خاصة-مؤسسه من مؤسسات المجتمع المدنى-حزب سياسى....) من إحدى مؤسسات قياس الرأى العام عمل استطلاع رأى لقياس الرأى العام حول موضوع معين. هل تعتبر نتائج هذا الاستطلاع من ضمن المعلومات التى يحق لأى مواطن الإطلاع عليها أم أن للجهة صاحبة الاستطلاع حجب هذه البيانات إذا ارتأت ذلك. وهو أيضاً موضوع يتطلب توجه مجتمعى متفق عليه يتم تبنيه.



فوبيا المحظورات

مارست حكومات العالم الثانى والثالث قدراً كبيراً من السيطرة على قياس الرأى العام وانتهجت هذه السيطرة مسارين متوازيين. تمثل المسار الأول فى التضييق على آليات وإجراءات قياس الرأى العام بواسطة مراكز البحوث ومؤسسات المجتمع المدنى ووضع الضوابط المبالغ فيها حول موضوعات الاستطلاعات وصياغة أسئلتها وضرورة الحصول على تصاريح لجمع البيانات. وتمثل المسار الثانى فى احتكار إنتاج هذه القياسات داخل جهات ذات طبيعة أمنية لا يتوافر لها الكوادر الفنية والبيئة المعرفية التى تسمح بإنتاج استطلاعات على مستوى عالى من الحرفية والمهنية.

وقد انعكست هذه البيئة المغلقة بصورة سلبية على صناعة استطلاعات الرأى. وبسقوط حائط برلين بدأت هذه السيطرة فى الانفراج فى دول المعسكر الاشتراكى وانتشرت ثقافة استطلاعات الرأى العام. كما شهدت الدول النامية انفراجة تدريجية سمحت بهامش من الحرية صاحبه ازدهار نسبى فى صناعة استطلاعات الرأى العام. وساعد على حدوث هذه الانفراجة عاملين هما العولمة وثورة الاتصالات حيث دعمت التوجهات الطاغية نحو العولمة مزيد من الأنشطة والبرامج المهتمة بقياس الرأى العام العالمى وليس فقط الوطنى. وازداد الاهتمام بدراسة التفاوتات فى الرأى العام بين الدول المختلفة واتجاه هذه التفاوتات عبر الزمن. وأصبحت مؤسسات استطلاعات الرأى العام عابرة للقارات وعابرة للثقافات. وقد واكب هذا التوجه العالمى طفرة فى الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات تمثلت فى زيادة انتشار الهاتف الثابت او المحمول وإتاحة الاتصالات الهاتفية بين دول العالم. ولعل خدمة الاتصالات الهاتفية هى الخدمة الوحيدة التى شهدت تراجعاً مستمراً فى أسعار إتاحتها مع تحسن جودة الخدمة المقدمة وهو ما جعل التواصل عبر الدول وداخل الدول فى متناول الجميع. وبالتالى تضاءلت المسافات التى تفصل بين الدول والشعوب واصبح التواصل عبر الأثير - الذى كان فى السابق بعيد المنال - أيسر وأرخص.

وادى ذلك إلى ظهور بيئة عالمية جديدة يتزايد فيها الطلب على قياس الرأى العام فى المجتمعات المختلفة وتتوافر أدوات لقياسه زهيدة التكلفة وغير خاضعة لسيطرة السلطات المحلية التى لا تستطيع التحكم فى الفضاء المعلوماتى. وهو ما أدى بدوره إلى إرساء قناعة بين النخب الحاكمة فى الدول النامية بعدم جدوى السيطرة على قياس الرأى العام وأصبح الحرس القديم فى معظم الدول النامية أكثر تفهماً - حتى ولو كان بدون قناعة - لعدم إمكانية حظر قياس الرأى العام أو استئثار المؤسسات الأمنية بهذا القياس دون غيرها.

وأصبح من غير المعقول منع المراكز البحثية ومؤسسات المجتمع المدنى الوطنية من جمع بيانات يمكن جمعها من خارج الحدود سواء من خلال الهاتف الثابت أو المحمول أو البريد الإلكترونى. كما أصبحت محظورات الأمس والتى تتناول الموضوعات السياسية والدينية والأخلاقية (الحساسة) مباحات وأصبحت الخطوط الحمراء أقل احمراراً مع مرور الوقت. ※

References:
Best , Smuel J. and Benjamin Radcliff. 2005. " Polling America, An Encyclopedia of Public Opinion" vol. 1&2 Westport, CT: Greenwood Press.
Bishop, George. 2005. The Illusion of Public Opinion: Fact & Artifact in American Public Opinion Polls. Rowman & Littlefield Publishers, Inc.
Brooker, Russell and Schaefer, Todd. 2006. Public Opinion in the 21st Century: Let the People Speak: Houghton Mifflin Company.
Saris, Willem E. and Paul M. Sniderman. 2004. Studies in Public Opinion, Attitudes, Nonattitudes, Measurement Error and Change , Princeton, NJ: Princeton University Press.
Spangenberg, Frits. 2003. The Freedom to Publish Opinion Poll Results: Report on a Worldwide Update. Lincoln NE: The World Association for Public Opinion Research.

كتاب الزاوية

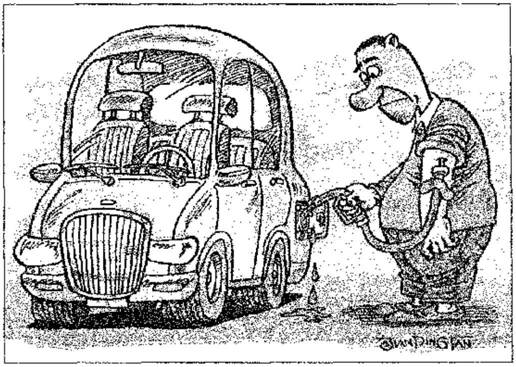
فى سعة المعارف

رفاعة الطهطاوى

سعة دائرة المعارف عبارة عن كسب جميع حقائق حوادث المعارف البشرية لاتساع عقول ذوى الألباب الزكية وهى ثمرة الإكثار من بذل الجهود فى قراءة كتب العلوم والفنون مما تقادم عهده أو تجدد وهى عبارة عن الجولان فى معرفة التاريخ ومعرفة الألسن ومعرفة الكتب المؤلفة فى أى فن من الفنون بأنواعها.

فمن المعلوم أن الغرض الأصلى من العلوم والمعارف إنما هو الانقياد لأمر الله تعالى بما اقتضته الحكمة الربانية فى بعثه للرسل عليهم الصلاة والسلام حيث إن الحكمة فى بعثهم إنما هى لانتظام أحوال العباد فى المعاش والمعاد مما لا يحصل إلا بعبادة أو معاملة أو مناكحة أو جناية فكل بالغ عاقل مكلف يعلم الحلال والحرام والعمل به لينال سعادة الدارين لكونه عمل وعمل بما فيه السعادة لمعاشه ومعاده.

ولا يتيسر معرفة امتثال امر الشارع إلا بعلم ما جاء به ولا يتحصل العلم إلا بالاشتغال به والجد فى طلبه واستجماع أصوله وفروعه ومكملاته ومتمماته فالاشتغال به أولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات وهو ينحصر فى جنسين دنيوى وأخروى يعنى علوم المعاش وعلوم المعاد وقد أكرم الله سبحانه وتعالى الإنسان وخلق له ما فى الكون من سائر المنافع وزينه بالعقل الذى يميز به بين الحسن والقبيح والضار والنافع والخطأ والصواب وجعل سبحانه وتعالى الإنسان المتصف بالقريحة الذكية والملكة القوية موفقاً لتحصيل العلم واستفادته واستنباطه وإفادته.



مصـــر والطاقـة

أزمـــة على الأبواب!

حســـــين عبـــــد الله

النقطة الحرجة يمكن أن تحل قبل ٢٠٢٠ بسنوات تبعا لحجم التصدير. وبذلك تدخل مصر فى الصراع العالمى المتوقع لتأمين احتياجات كل دولة مـــن الاحتياطيـــات العالميـة الآخـــذة فى النضـــوب السـريع

■■ احمرت الصفحات الأولى من الصحف المصرية يوم ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٧ بحديث لرئيس الجمهورية فجر به مشكلة الطاقة، داعيا إلى اعادة تنشيط برنامج الطاقة النووية الذى كان على وشك التنفيذ فى مستهل الثمانينيات ثم وضع فى الأدراج. وكالعادة انطلقت الأقلام بعد حديث الرئيس باحثة عن المشكلة وكأنها قد ولدت فى تلك اللحظة ولم يكن قد مضى على إثارتها ربع قرن شرحنا خلاله أبعادها المتعددة فى عشرات المقالات والأبحاث.

ويعتبر قطاع الكهرباء من أهم مؤشرات الطلب المحلى على البترول والغاز، اذ ارتفع استهلاكه منهما من نحو مليون طن بترول مكافئ Ton of oil equivalent) toe) عام ١٩٧٥ إلى ٢١.٢مليون toe عام ٢٠٠٦، وهو ما يعادل ٤١٪ من إجمالى الاستهلاك المحلى من هذين المصدرين فى العام الأخير.

أما الطاقة الكهرومائية المولدة من السد العالى وباقى المساقط المائية على النيل فقد بلغت حدها الأقصى تقريبا عند ١٣ مليار كيلووات ساعة، وهو ما يعادل حراريا نحو ٣ ملايين toe، ولا يتجاوز ١٢٪ من إجمالى الكهرباء المولدة عام ٢٠٠٦ وبلغت جملتها (حراريا ومائيا) ١٠٩ مليارات كيلووات ساعة.

كذلك الحال بالنسبة لمصادر الطاقة المتجددة كالرياح، والتى ما زالت تحبو خطواتها الأولى، إذ لم تساهم بأكثر من نصف مليار كيلووات ساعة عام ٢٠٠٦ وهو ما يعادل حراريا نحو ١٠٠ ألف toe.

وكما يستخلص من المؤشرات المتاحة فإن معدل نمو الطلب على الكهرباء خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٢٠ سوف لا يقل عن ٧٪ سنويا فى المتوسط.

اما بالنسبة للبرنامج النووى، الذى نرى أنه صار ضرورة حتمية، فإنه لا يتوقع ان تبدأ مساهمته الجدية فى سد جانب من احتياجات الكهرباء قبل ٢٠٢٠، وهذا بافتراض القدرة على تذليل العقبات التى تعترضه، وهى ليست هينة (ينظر فى ذلك دراستنا التفصيلية فى التقرير السنوى «الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية»، دار «الأهرام»، يناير ٢٠٠٨).

بذلك لا يبقى فى الافق القريب لمواجهة احتياجات مصر من الطاقة غير الاعتماد على البترول والغاز والذى بلغ استهلاكهما المحلى عام ٢٠٠٦ نحو ٥٢ مليون toe بمعدل نمو ٦.٥٪ سنويا فى المتوسط منذ ١٩٧٥ (موزعا بنسبة ٤٠٪ لقطاع الكهرباء و٦٠٪ لغيره من الاستخدامات).

فى ضوء تلك التقديرات، فان معدل نمو استهلاك الطاقة فى مصر خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٢٠ يمكن ان يتجاوز ٧٪ سنويا فى المتوسط، وذلك لعجز جهود ترشيد الطاقة عن خفضه، بل وإلغاء جهاز تخطيط وترشيد الطاقة عام ٢٠٠٦ بدلا من دعمه وتنشيط دوره.

مع ذلك فقد رأينا افتراض معدل متحفظ لنمو الاستهلاك عبر المستقبل المنظور وهو ٥٪ سنويا فى المتوسط، وذلك على أمل ان ينجح المجلس الأعلى للطاقة، الذى أعيد انشاؤه عام ٢٠٠٧ بعد غفوة طالت دون مبرر لربع قرن، فى وضع وتنفيذ برامج صارمة لترشيد الطاقة بعد ان دق ناقوس الخطر عاليا ومدويا.

وبذلك تقدر احتياجات مصر من البترول والغاز بحلول ٢٠٢٠ بنحو ١٠٣ مليون toe أو ٧٥٠ مليون برميل بترول مكافئ Barrel of oil equivalent (boe) سنويا.

على هذا الأساس يمكن ان يبلغ مجموع الاحتياجات المحلية (أى الاستهلاك المجمع) خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٢٠ نحو ١١٠٠ مليون toe. واذ تقدر احتياطيات البترول والغاز المعلنة رسميا بنحو ١٦ مليار برميل) (منها ١٢ غاز)، وهو ما يعادل نحو ٢٢٠٠ مليون toe، فان نصيب مصر من احتياطيات البترول والغاز (والذى يتراوح حجمه المختلف على تقديره بين النصف والثلثين) يمكن أن ينفد بحلول ٢٠٢٠ أو بعدها بسنوات قليلة.

هذا بافتراض ان مصر لن تقوم بتصدير شئ من نصيبها من الزيت أو الغاز. أما اذا ارتفع الانتاج بحيث يغطى نصيب مصر احتياجاتها ويحقق فائضا للتصدير، فإن النقطة الحرجة يمكن أن تحل قبل ٢٠٢٠ بسنوات تبعا لحجم التصدير. وبذلك تدخل مصر فى الصراع العالمى المتوقع لتأمين احتياجات كل دولة من الاحتياطيات العالمية الآخذة فى النضوب السريع.

والواقع ان الحديث حول اقتراب عجز الامدادات النفطية العالمية عن مواجهة الطلب المتزايد عليها لم يعد حديثا عبثيا، ومن ذلك ما تتوقعه وكالة الطاقة الدولية من بلوغ إنتاج النفط التقليدى ذروته فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين (أى حوالى ٢٠١٥) ليبدأ بعد ذلك رحلة النضوب الطبيعى. ومع التسليم بأن النفط غير التقليدى، ومن أمثلته النفط المستخلص من رمال القار ومن الغاز الطبيعى ومن الفحم والوقود الحيوى كالايثانول، يمكن أن يسد جانبا من العجز فى السوائل النفطية، إلا ان الوكالة تتوقع أن يقصر إجمالى العرض العالمى من النفط بنوعيه بحلول ٢٠٢٠ عن مواجهة الطلب العالمى المتزايد، وأن العالم يمكن أن يواجه بحلول العام المذكور عجزا يقدر بنحو ١٩ مليون ب/ى وهو ما ينبغى توفيره من مصادر نفطية غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر. (ينظر مقالنا بعنوان «وداعا عصر النفط» فى مجلة «وجهات نظر»، ديسمبر ٢٠٠٧).

والخلاصة، أنه بافتراض عدم وجود ظروف استثنائية ترفع السعر إلى

كيف يترك لشركة يرأسها موظف التصرف فى تلك الثروة ويسعر يتفق مع المشترى على أنه سرى؟ وما دواعى تلك السرية؟

مستويات لا يمكن توقعها، فإن المتوقع أن لا يقل سعر البترول عن ١٢٠ مائة وعشرين دولارا للبرميل بحلول ٢٠٢٠. ومعنى ذلك، إذا تحولت مصر إلى مستورد كامل لاحتياجاتها من البترول والغاز والتى تقدر بصورة متحفظة، بنحو ٧٥٠ مليون برميل سنويا بحلول ٢٠٢٠، فإنه سيكون عليها أن تواجه فاتورة استيراد لا تقل قيمتها عن ٩٠ مليار دولار سنويا، قابلة للزيادة مع نمو الاستهلاك المحلى من الطاقة.

فكيف يمكن تدبير هذه المبالغ، أخذا فى الاعتبار ضآلة حصيلة الصادرات المصرية غير البترولية وازدياد الاعتماد على الاستيراد لتوفير احتياجات أساسية عديدة غير بترولية؟ وماذا يحدث إذا عجزنا عن توفير احتياجاتنا من الطاقة والتى يطلق عليها بحق «شريان الحياة» Life blood؟

وهنا يفرض السؤال التالى نفسه: هل يصح، وهذه حالة الطاقة فى مصر، أن نهدر ما توفر لدينا من الغاز بتصديره ورفع إنتاجه بمعدلات فلكية، إذ قفز خلال الفترة ٢٠٠٤-٢٠٠٧ من نحو ٢٤ مليون toe إلى نحو ٥٥ مليون toe بمعدل نمو ٣٢٪ سنويا فى المتوسط. ولا يزال فى التزامات التصدير كميات كبيرة سواء من معملى الإسالة بدمياط وإدكو أم عبر الأنابيب فى خط الأردن سوريا لبنان وفى الخط البحرى لإسرائيل. وكما يؤكد رئيس الشركة القابضة للغازات فإن الإنتاج سوف يرتفع إلى أكثر من ٩٠ مليون toe بحلول ٢٠١١.

ومع أن المعلن رسميا من احتياطيات الغاز - رغم ما يحيطها من شكوك سيأتى شرحها - لا يتجاوز ١٪ من الاحتياطيات العالمية مقارنا باحتياطيات قطر التى تبلغ ١٤٪، فإن صادرات مصر من الغاز عام ٢٠٠٦ (١٧ مليار متر مكعب) تجاوزت نصف صادرات قطر (٣١ مليار متر مكعب)، كما تجاوزت مثلى صادرات إيران (٧ مليارات متر مكعب) التى تتمتع بنحو ١٦٪ من الاحتياطيات العالمية وتوجه إنتاج الغاز الإيرانى بكامله للاستهلاك المحلى، وهو أفضل استغلال، اقتصاديا وبيئيا.

على تلك الخلفية من النمو الفلكى فى الإنتاج والتصدير تأتى شكوك قوية حول تقدير المؤكد من احتياطيات الغاز المصرى. فقد قامت الشركات العاملة فى مصر بالاستعانة ببيت الخبرة وود ماكنزى لمراجعة تقديراتها، فقام فى تقريره المؤرخ يناير ٢٠٠٧ بتصنيف تلك الاحتياطيات إلى نوعين: يقدر أولها بنحو ٣١ تريليون قدم مكعبة ويطلق عليها «الاحتياطيات المتعاقد عليها» ويسبغ عليها صفة «التجارية». أما الباقى الذى يقدره بنحو ٣٢ تريليون قدم مكعبة فيطلق عليها «احتياطيات فنية غير متعاقد عليها» ويصفها بأنها «اكتشافات» لم تبدأ فيها التنمية. وإذ يستقر رأى مهندسى البترول على أن الاحتياطيات لا توصف بأنها «مؤكدة» قبل أن تتم تنمية الحقل ويستخرج منه ثلث ما يحتويه من النفط أو الغاز، فإن وصف التقرير للقسم الثانى من الاحتياطيات بأنها اكتشافات غير منماة ينفى عنها صفة المؤكدة التى تقتصر فقط على ٣١ تريليون قدم مكعبة.

والخلاصة، أنه إذا تحققت خطط التوسع فى إنتاج الغاز وتصديره على هذا النحو، فإن احتياطيات الغاز المعلنة رسميا (٧٠ تريليون قدم مكعبة)، مع إنتاج يبلغ ٩٠ مليون toe سنويا بحلول ٢٠١١ (٦،٣ تريليون قدم مكعبة) يمكن أن تنضب قبل مضى ١٩ عاما وليس ٣٤ عاما كما يتردد رسميا.

البرلمان وتصدير الغاز

كان بعض أعضاء مجلس الشعب قد طالبوا مؤخرا بالاطلاع على أسعار تصدير الغاز لإسرائيل فقيل لهم إنها سرية ولا يمكن كشفها إلا باتفاق طرفى العقد. أى أنه يلزم لاطلاع أعضاء المجلس عليها - وهم الأمناء على ثروة مصر الطبيعية نيابة عن الشعب الحصول على إذن من الشركة الإسرائيلية المستوردة للغاز. فكيف يترك لشركة مصرية يرأسها موظف عام التصرف فى تلك الثروة الناضبة وبسعر يتفق مع المشترى على أنه سرى؟ وما دواعى تلك السرية؟ وما الذى يضمن عدم تورط طرفى الصفقة - وهى بطبيعتها طويلة الأجل (٢٠ عاما) وليست شحنة عارضة - فى إبرام عقود والتزامات قد تضر بالمصلحة الوطنية؟

وبصرف النظر عن موضوع السرية، فإن ثمة أسئلة تحيط بتصدير الغاز عموما مما تتطلب إجابة واضحة ومحددة من قطاع البترول، وهو ما نوجزه فيما يلى:

(١) يستفاد من أقوال ممثل الحكومة أن تكلفة إنتاج الغاز لا تتجاوز ٠.٧ دولار (٧٠ سنتا) لكل مليون وحدة حرارية بريطانية British thermal units (Btu)، وأن سعر البيع لإسرائيل حتى لو كان ١.٥ دولار لكل مليون وحدة فإنه يحقق ربحا للدولة، ولكن السعر يزيد على السعر المحلى للصناعات الثقيلة الذى سيبلغ ٢،٦٥ دولار فى نهاية ٢٠٠٩. أى أن السعر الحالى ما زال أقل من ٢،٦٥ دولار.

(٢) وأول ما يلاحظ هنا أن مبادئ الاقتصاد تؤكد أن التكلفة لا علاقة لها بالسعر فى حالة منتجات الثروة الطبيعية وإنما يتحدد السعر بعوامل العرض والطلب فى أسواق السلعة. فاستخراج الذهب وإن تكلف جنيهات قليلة لا يبرر بيعه بسعر يقل عن السعر السائد فى أسواقه بحجة أنه يحقق هامشا من الربح فوق التكلفة. وإذ يحتوى برميل من البترول على ٥.٦ مليون Btu، فإن تصدير الغاز حتى لو بلغ السعر ٢.٦٥ دولار، معناه أن تصدير ما يعادل من الغاز برميلا من البترول لا يتجاوز ١٥ دولارا، وهو ما يقل عن سدس سعر البترول الذى حقق ٩٣ دولارا للبرميل خلال الربع الأول من العام الحالى، أخذا فى الاعتبار أن الغاز أعلى جودة وأقل تلويثا من البترول. فهل يوجد إهدار لتلك الثروة النظيفة أكثر من تصديرها بهذا السعر المتدنى بينما ينبغى أن لا يقل السعر عن ١٦ دولارا للمليون Btu وهو السعر السائد فعلا فى أغلب الأسواق الرئيسية للغاز؟

(٣) جرى العرف على إدخال نص يتيح تصعيد السعر مع المتغيرات التى تطرأ على أسواق السلعة التى تغطيها عقود طويلة الأجل، ومنها عقود تصدير الغاز التى يمتد أجلها إلى ٢٠ عاما أو أكثر. فهل تضمنت عقود تصدير الغاز المصرى مثل هذا النص وما محتواه؟ أم أن هذا النص يعتبر أيضا من الأسرار التى لا تكشف إلا باتفاق البائع والمشترى؟

(٤) ويقول ممثل الحكومة إن عقود تصدير الغاز تراجع الآن بهدف رفع السعر وهو ما يحقق ١٨ مليار دولار كعائد إضافى خلال الأعوام العشرين القادمة. وهذا كلام مرسل لا يستند إلى أساس علمى أو عملى إذ لا يمكن التنبؤ بما سيكون عليه الحال عبر المستقبل والأغلب أن مصر ستتحول إلى مستورد للغاز وللبترول وبأسعار لا تحتمل كما أوضحنا فيما سبق.

هنا ينبغى الاعتراف بأن إقامة مشروعات لتصدير الغاز لإسرائيل أو لغيرها كان خطأ استراتيجيا جسيما، وخاصة إذا أخذ فى الاعتبار تدنى الأسعار التى تم التعاقد على أساسها والتى يقال إن بعض الدول المستوردة تتاجر فيه ببيعه لدول أخرى بأسعار تتجاوز أضعاف السعر الذى تدفعه لمصر. وهذا ما سوف يلجئنا لاستيراد الغاز مستقبلا بعشرات أمثال سعر تصديره الحالى. بل يحتمل أن يتعذر الحصول عليه بأى ثمن فى ظل الصراع المتوقع بين الدول لتأمين احتياجاتها من الطاقة الآخذة فى النضوب عالميا.

تحديد الإنتاج

بالاحتياجات المحلية

فى ضوء ما تقدم، وإذ يعول على البترول والغاز لمواجهة الاستهلاك المحلى المتزايد من الطاقة عبر المستقبل المنظور، فإن الأمر يقتضى إلقاء بعض الضوء على أسلوب البحث عن البترول والغاز وتنميته وإنتاجه بالشراكة مع الشركات الأجنبية. فالتنقيب عن تلك الحقول فى مصر يجرى عن طريق التعاقد مع شركات أجنبية بموجب ما يعرف باتفاقيات اقتسام الإنتاج التى يقوم الشريك الأجنبى بمقتضاها بالإنفاق وحده على جميع العمليات. فإذا لم يتحقق اكتشاف تجارى خلال فترة أولية (٦-٨ سنوات) يغادر دون أن يسترد شيئا مما أنفقه. أما إذا تحقق اكتشاف تجارى فإن العقد يمتد أجله إلى نحو ٣٥ عاما ويبدأ الشريك الأجنبى فى استرداد نفقاته من نسبة معينة من الإنتاج الكلى يحصل عليها سنويا فى صورة عينية، ثم تقوم بالدولار بضربها فى سعر تصدير البترول أو الغاز. ويستمر حصوله على تلك النسبة عاما بعد آخر إلى أن يكتمل سداد النفقات.

أما ما يتبقى بعد حصة سداد النفقات Cost recovery فإنه يقتسم بحيث يحصل الشريك الأجنبى على نسبة إضافية كربح صاف Equity share، ثم تحصل الدولة المضيفة (مصر) على ما يتبقى بعد ذلك.

وتتحدد حصة الشريك الأجنبى المخصصة لاسترداد



النفقات عادة بنحو ٤٠٪ من الإنتاج الكلي، كما تتحدد حصته المخصصة للربح بنحو ٢٥٪ مما يتبقى، أي ١٥٪ من الإنتاج الكلي، وبذلك يبلغ إجمالي ما يحصل عليه الشريك الأجنبي اثناء فترة استرداد النفقات نحو ٥٥٪ من الإنتاج الكلي. أما نصيب مصر فيتقلص خلال تلك الفترة إلى ٤٥٪ من الإنتاج الكلي.

وفي ضوء التجارب الفعلية التي شملت جميع الشركات الأجنبية العاملة في مصر على امتداد فترات غطت استرداد النفقات، يختلف الرأي حول متوسط نصيب مصر من الإنتاج الكلي، إذ يرى البعض أن هذا النصيب لا يتجاوز النصف، بينما يرى قطاع البترول أنه يقترب من ثلثي الإنتاج اعتمادا على بيانات سنوات معينة وليس على المتوسط الطويل الأمد.

وسواء كان النصف أو الثلثين، فإن الأرقام الفعلية للإنتاج والاستهلاك المحلي، كما وردت في تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات، تؤكد أن مصر صارت مستوردا صافيا للبترول والغاز، إذ يتجاوز استهلاكها المحلي منهما نصيبها من الإنتاج الكلي، مما يلجئها إلى تغطية العجز بالشراء من نصيب الشريك الأجنبي وبالعملة الأجنبية.

وتوضيحا لذلك، فقد بلغ الإنتاج الفعلي للبترول والغاز خلال العام المالي ٢٠٠٤/٢٠٠٥ نحو ٥٨ مليون طن بترول مكافئ toe، كما بلغ نصيب مصر منهما نحو ٣٩ مليون toe. هذا، بينما بلغ الاستهلاك المحلي من البترول والغاز في العام المذكور ٤٩ مليون toe. ومعنى ذلك أن مصر قامت بشراء العجز الذي يبلغ نحو ١٠ عشرة ملايين toe من نصيب الشريك الأجنبي وحققت عجزا وليس فائضا في العام المذكور.

وقد تكرر هذا النمط عام ٢٠٠٦ إذ بلغ الإنتاج الكلي للزيت والغاز نحو ٧١ مليون toe وبلغ نصيب مصر منه نحو ٤٤ مليون toe. أما الاستهلاك المحلي فقد بلغ نحو ٥٢ مليون toe، وبذلك يتراوح العجز الذي قامت مصر بشرائه من نصيب الشريك الأجنبي حول ٨ ملايين toe.

وقد سبق أن شرحنا رؤية مستقبلية - تكاد تكون في حكم المؤكد - حول تحول مصر إلى مستورد لكامل احتياجاتها من البترول والغاز عبر المستقبل المنظور، وأن ذلك التحول يمكن أن يرفع فاتورة استيراد الطاقة إلى ما لا يقل عن ٩٠ تسعين مليار دولار سنويا بحلول عام ٢٠٢٠. ولا يختلف الأمر سواء كانت الواردات بترولا أو غازا أو طاقة نووية، فكلها مصادر سيتحتم دفع تكلفتها بالأسعار والعملة الأجنبية متى نضبت حقولنا من البترول والغاز.

ومن مقتضى تلك الرؤية أن نبادر بوضع استراتيجية شاملة متكاملة للطاقة، آخذة في الاعتبار - ضمن أمور عديدة أخرى - أن نصيب مصر من الإنتاج لم يعد يغطي الاستهلاك المحلي للغاز، ومن ثم تلجأ إلى تغطية العجز بالشراء من نصيب الشريك الأجنبي، بالسعر العالمي في حالة البترول، وبسعر لا يتجاوز ٢.٦٥ دولار للمليون Btu في حالة الغاز وفقا للاتفاقيات الصادرة بقوانين والتي يمتد أجلها إلى ٣٥ عاما.

وإذ تشير اقتصاديات الطاقة النووية إلى أنها لا تصبح منافسة للغاز إلا إذا

تصدير الغاز لإسرائيل أو لغيرها كان خطأ استراتيجيا جسيما، وخاصة إذا أخذ في الاعتبار تدني الأسعار التي تم التعاقد على أساسها

تجاوز سعر الغاز ٦ ستة دولارات للمليون Btu (ينظر في ذلك دراستنا التفصيلية في التقرير السنوي «الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية»، دار «الأهرام»، يناير ٢٠٠٨)، فإننا نوصي بأن يقتصر إنتاج الغاز على ما يكفي فقط لتغطية الاستهلاك المحلي مع شراء نصيب الشريك الأجنبي بالكامل بالسعر الوارد في الاتفاقية الصادرة بقانون والذي لا يتجاوز نصف تكلفة الطاقة النووية، مع الاحتفاظ بكامل احتياطيات الغاز (واحتياطيات البترول رغم ضآلتها) لمواجهة احتياجات الأجيال المقبلة.

وبطبيعة الحال فإن حصة الشريك الأجنبي من إنتاج الغاز في حالة تحديد حجمه على ما يكفي الاحتياجات المحلية لن تكون بالحجم الذي كانت عليه عندما كان الإنتاج يغطي الاستهلاك المحلي ويحقق فائضا للتصدير. ولكن الشريك الأجنبي لا يصح أن يقلق من حيث حصوله على كامل نصيبه من الاحتياطيات وإن طالت الفترة الزمنية، إذ تمتد اتفاقيات البترول والغاز إلى نحو ٣٥ عاما وهو ما يغطي العمر الإنتاجي لأكبر الحقول. وعلى الشريك الأجنبي أن يتعاون في تأمين احتياجات الدولة المضيفة التي أتاحت له استرداد استثماراته وأرباحه أضعافا مضاعفة، وخاصة بعد الارتفاع الشاهق في أسعار البترول. أما إصراره على التوسع في الإنتاج والتصدير بهدف الحصول على نصيبه من تلك الاحتياطيات في أسرع وقت ممكن فإنه يساهم في تعريض الدولة المضيفة لمخاطر مدمرة على نحو ما شرحنا.

الاستجابة غير المبررة لمطالب الشركات

من ناحية أخرى، فإن قطاع البترول يميل إلى الاستجابة دون تردد لمطالب الشركات الأجنبية العاملة في مصر وذلك على الرغم مما تتمتع به تلك الشركات في مصر من ميزات لا تجدها في دول أخرى. ومن تلك الميزات تذكر على سبيل المثال:

(١) أن الشريك الأجنبي لا يتحمل الإتاوة التي هي حق للدولة مقابل نضوب الحقول، بصرف النظر عن الأرباح أو الخسائر التي تتحقق، إذ تتحمل هيئة البترول الإتاوة نيابة عنه.

(٢) كذلك لا يتحمل الشريك الأجنبي ضرائب الدخل التي تتحملها الهيئة نيابة عنه.

(٣) وإذا صح ما يشيعه قطاع البترول أن معدلات النجاح في التنقيب عن البترول في مصر تعتبر من أعلى معدلات العالم إذ تبلغ ٣٠٪ من الآبار التي تحفر، فإن المخاطر والنفقات التي يتحملها الشريك الأجنبي لا بد أن تكون أقل ما يمكن ومن ثم ينبغي أن تنعكس عند التفاوض في صالح نصيب مصر.

(٤) كذلك تتوفر في مصر عمالة مدربة، وبنية تحتية متقدمة كخطوط الاتصالات والمواصلات والطرق، وموقع جغرافي متميز، ومناخ جوي ملائم.. إلخ.

(٥) كما يتوفر في مصر مناخ استثماري مستقر نسبيا، فلا توجد قبائل تدمر معدات الإنتاج وتقطع خطوط ضخ البترول والغاز أو تهدد حياة العاملين في الحقول كما يحدث في نيجيريا واليمن وغيرهما.

وكان من مقتضى توفر تلك العوامل الإيجابية إمكانية الحصول على شروط جيدة في الاتفاقيات التي تبرم مع الشركات، ولكننا بالعكس نجد أن الشركات تحاول تعظيم مكاسبها على حساب الجانب الوطني ومن ذلك على سبيل المثال:

(١) تعديل الاتفاقيات لصالح الشريك الأجنبي حيث زيدت حصة الشريك الأجنبي التي يحصل عليها كربح من ٢٥٪ إلى ٣٥٪ أو أكثر. ففي العقود القديمة كان النصيب الذي يحصل عليه الشريك الأجنبي كربح لا يتجاوز ٢٥٪ مما يتبقى بعد سداد النفقات. ومعنى ذلك انه بافتراض أن مجمل النفقات التي يستردها الشريك الأجنبي على أقساط تقدر بنحو ٢٠٪ من جملة الإنتاج، فإن ما يتبقى وهو ٨٠٪ يوزع بين الجانب الوطني والشريك الأجنبي كربح صاف وفقا للعقود القديمة بحيث يحصل الجانب الوطني على ٦٠٪ منه ويحصل الشريك الأجنبي على ٢٠٪. أما بعد تعديل العقود لصالح الشريك الأجنبي فإن التوزيع يصبح ٥٢٪ للجانب الوطني و٢٨٪ للشريك الأجنبي.

(٢) وكنا قد حذرنا من محاولات الشركات العاملة في مصر للالتفاف حول التزامها بتزويد السوق المحلية بالغاز عبر قطاع البترول بسعر ٢.٦٥ دولار للمليون Btu وطلب تلك الشركات تزويد الصناعات المصرية مباشرة - باستبعاد قطاع البترول - وبأسعار تتجاوز هذا السعر المحدد بالاتفاقات الصادرة بقوانين. ويبدو أن قطاع البترول لم يستجب فقط لهذا الطلب بل اتجه أيضا إلى الموافقة على رفع السعر المحدد في بعض الاتفاقيات إلى ٤.٧٠ دولار. ووجه التساؤل هنا: إذا كانت التكلفة كما يقال لا تتجاوز ٧٠ سنتا للمليون Btu فبأي حق تتقاضى الشركة ٤ أربعة دولارات كربح فوق تلك التكلفة مع أن العقد شريعة المتعاقدين وصدر بقانون؟ بل إن هذا السعر يتجاوز أيضا سعر التصدير



والذى يقول ممثل الحكومة أنه سيبلغ ٢,٦٥ دولار فى نهاية ٢٠٠٩ .

(٣) كذلك تركت الشركات لكى تجنى وحدها ثمار الارتفاع المفاجئ فى أسعار البترول خلال السنوات الأخيرة دون جهد منها، وذلك على خلاف ما يحدث فى دول أخرى نجحت فى اقتناص جانب من تلك الأرباح الاستثنائية. وقد سبق أن طالبنا فى مقال سابق واستجابت لطلبنا لجنة الصناعة والطاقة بمجلس الشعب إذ أوصت بفرض ضريبة استثنائية على الأرباح التى تجنيها الشركات نتيجة للارتفاع غير المتوقع فى أسعار البترول، [يراجع فى ذلك تقرير اللجنة المشكلة للرد على بيان رئيس مجلس الوزراء فى يناير ٢٠٠٨ ص ٢٠٨).

ولا تتعارض تلك التوصية مع المبدأ القانونى الذى يلزم أطراف العقد بتنفيذ بنوده pacta sunt servanda إذ تبنتها دول عديدة ومنها الجزائر التى قامت فى أكتوبر ٢٠٠٦ بتعديل قانون النفط والغاز بما يسمح بفرض ضريبة على الأرباح الاستثنائية التى تحققها الشركات نتيجة للارتفاع غير المتوقع فى أسعار النفط. وتسرى تلك الضريبة متى تجاوز سعر نفط برنت ٣٠ دولارا للبرميل. ومن ذلك أيضا إصلاحات الرئيس الفنزويلى شافيز الذى حرر قطاع النفط من قبضة الشركات الأمريكية التى ارتمت فى أحضانها فئة فاسدة من قيادات البترول. فوفقا لتلك الإصلاحات صار نصيب الدولة من إنتاج النفط والغاز مرتبطا بربحية الشركة العاملة فى فنزويلا، وهو ما يربط هذا النصيب تلقائيا بالأسعار العالمية. ولم تتردد فنزويلا فى تأميم نشاط أكبر شركة عالمية وهى إكسون Exxon تحقيقا للمصلحة الوطنية. كذلك قامت روسيا برفع أسعار النفط والغاز الذى تزود به أوروبا وذلك لارتباط تلك الأسعار بالأسعار العالمية السائدة. وفى الولايات المتحدة أقر مجلس النواب فى مايو ٢٠٠٦ خطة لاعادة التفاوض على تراخيص التنقيب التى أبرمت فى خليج المكسيك خلال الفترة ١٩٩٨-١٩٩٩ والتى تضمنت نصا يعفى الشركات من رسوم الاستغلال بصرف النظر عن ارتفاع أسعار النفط، كما عدلت المملكة المتحدة من طرف واحد الاتفاقيات المبرمة مع الشركات فى بحر الشمال (١٩٧٥-١٩٧٦).

(٤) أما ما يشاع عن عزوف الشركات عن الاستثمار فى الدول التى تحاول الحصول على نصيبها من تلك الأرباح الاستثنائية، فيرد عليه بأن العالم صار يواجه ندرة متزايدة فى الإمدادات النفطية مما دفع الأسعار إلى مستواها المرتفع والذى لا يتوقع أن يعود إلى ما كان عليه. والمشاهد أن الشركات صارت تتنافس فيما بينها للحصول على عقود للتنقيب فى الدول النفطية وتبدى استعدادها للتعاون مع شركات النفط الوطنية كما تقبل شروطا لم تكن تقبلها فى الماضى. ولعل مما يدعم هذا الاتجاه أن الساحة النفطية تشهد الآن ظهور دول تعانى من عجز فى احتياجاتها النفطية وتتجه للتعاقد على التنقيب فى دول نفطية مع استعدادها لتقديم تنازلات وامتيازات فوق ما تقدمه شركات النفط التقليدية، ومن تلك الدول كأمثلة الصين والبرازيل والهند. ولن تكون مصر بما لديها من امتيازات ممن يخشى انصراف الشركات عنها إذا طالبت بنصيبها المشروع فى الأرباح الاستثنائية واعرضت عن الاستجابة لمطالب الشركات رفع أسعار الغاز الذى يستهلك محليا من أنصبتها أو أنصبتها من جملة الإنتاج.

لا توجد صادرات لحساب مصر بل لحساب الشريك الأجنبى. ولا ينفى ذلك أن مصر تصدر بعض المنتجات الزائدة عن احتياجاتها

التحتيم الضار بقضية ترشيد الطاقة

تبقى كلمة أخيرة حول قضية ترشيد الاستهلاك المحلى من الطاقة، وهو ما يقتضى إثارة وعى الشعب بخطورة الموقف حتى يقبل على المشاركة فى تنفيذ برامج صارمة لترشيد الطاقة. فهل يختلف الأمر بالنسبة لفاعلية تلك الدعوة إذا كانت مصر مصدرا للبترول والغاز عنها فى حالة قيامها بالاستيراد؟ نعم تختلف، لأن الأساس فى وجود دعم للطاقة أن تكون مصر مستوردا لها فتتحمل الموازنة بالفرق بين سعر الاستيراد والسعر المحدد فى السوق المحلية. أما إذا كانت مصر لا تزال تتمتع بفائض للتصدير، فإن الدعوة لترشيد الدعم، برفع الأسعار المحلية، تفقد منطقها وفاعليتها.

فى ظل تلك الخلفية، يفاجئنا قطاع البترول بتصريح لوزيره فى «الأهرام» ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٧ معلنا أن حصيلة صادرات البترول والغاز قد حققت ١٤ مليار دولار هذا العام، دون أن يوضح أن تلك الحصيلة لا تدخل خزانة مصر بل تدخل جيوب الشركات الأجنبية مقابل أنصبتها من إنتاج البترول والغاز، وأن مصر صارت مستوردا صافيا للبترول والغاز على نحو ما أوضحنا ويؤكده الجهاز المركزى للمحاسبات.

ومما تقدم يتبين أنه لا توجد صادرات لحساب مصر وأن كل الصادرات هى لحساب الشريك الأجنبى. ولا ينفى ذلك أن مصر تصدر بعض المنتجات المكررة الزائدة عن احتياجاتها المحلية، ولكن جملة ما تستورده من منتجات مكررة تعانى عجزا فيها وكذلك مشترياتها من نصيب الشريك الأجنبى من الزيت والغاز يتجاوز تلك الصادرات التى تتم لحسابها.

أما التناقض بين هذا العجز الذى يجعل مصر مستوردا صافيا للبترول والغاز، وبين ما يعلنه قطاع البترول عن حصيلة للصادرات بلغت ١٤ مليار دولار، فمرجعه استحداث قطاع البترول لنظام محاسبى من شأنه إخفاء التفاصيل الكاشفة عن الحقيقة. فقد جرى العرف فى الماضى على إعلان ما يسمى «ميزان مدفوعات قطاع البترول» الذى يقتصر على معاملات الجانب الوطنى ولا يدخل فيه معاملات الشركات الأجنبية التى تستقل بنصيبها وتتصرف فيه دون إدخاله فى الميزان المصرى. وكان ميزان مدفوعات قطاع البترول يكتفى بتوضيح قيمة صادرات الجانب الوطنى وقيمة وارداته بالعملة الأجنبية، متضمنا مشترياته من الشريك الأجنبى، ثم يرصد صافى الميزان الذى قد يكون موجبا يضاف لخزانة الدولة أو سالبا فيسحب منها.

أما النظام المحاسبى الذى استحدثه قطاع البترول فقد تبنى صادرات الشريك الأجنبى على أنها صادرات مصرية، وأخذ يفاخر بها دون أن يذكر بجانبها أن القطاع مكبل بمديونية كبيرة مقابل مشترياته من أنصبة الشركات الأجنبية لسد العجز فى الاستهلاك المحلى، وهو ما تؤكده تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات، بالإضافة إلى أن القطاع قام ببيع (رهن) جانب من نصيبه فى الإنتاج المستقبلى للحصول على قيمته مقدما.

وقد دفعت تلك المديونية، وبتشجيع من الشركات الأجنبية، قطاع البترول إلى الإفراط فى إنتاج الغاز الطبيعى بقصد تصديره، على نحو ما أوضحنا. وهنا نؤكد مرة أخرى أنه إذا استمرت تلك القفزات نتيجة للتوسع فى التصدير فإن احتياطيات الغاز - والتى يخضع تقديرها لقدر كبير من اللايقين - لن تعمر طويلا.

ومن ناحية أخرى، فقد طبق النظام المحاسبى المستحدث على الحسابات القومية، إذ صارت الاستثمارات البترولية تضاف إلى الاستثمار الأجنبى المباشر، ولم تكن تضاف فى الماضى لاختلاف طبيعتها إذ إنها لا تعدو أن تكون استنزافا لثروة طبيعية ناضبة وليست إضافة لرأس مال منتج تتجدد عوائده كما هو الحال فى الصناعات التحويلية. كذلك جرت العادة فى الماضى على إدخال نصيب مصر فقط من إنتاج البترول والغاز فى تقدير الناتج المحلى الإجمالى مع استبعاد نصيب الشريك الأجنبى من ذلك الناتج وأيضا من تقديرات معدل النمو الاقتصادى. أما الأرقام الحالية فتشير إلى إدخال نصيب الشريك الأجنبى فى تلك المتغيرات وهو ما يعطى دلائل مضللة ويجعل المقارنة غير صحيحة.

ولعل أخطر نتائج التعتيم، بإعلان حصيلة الصادرات البترولية دون إعلان قيمة الواردات وما يسدد للشركات الأجنبية، أن الايحاء بالوفرة البترولية، على غير الحقيقة، يجهض محاولات الحكومة لترشيد الاستهلاك برفع الأسعار، والأجدى إقناع المستهلكين بخطورة موقف الطاقة لتشجيعهم على التعاون فى ترشيد وصيانة هذا المرفق الحيوى والذى يطلق عليه شريان الحياة Lifeblood. ◼

الواقع السياسى والاقتصادى والاجتماعى بيننا وبين أمريكا اللاتينية يكاد يتشابه فى مشتركات كثيرة، منها الخضوع تحت نير الاستعمار فترات طويلة.

"الرقة والقوة"

الجداريات المكسيكية.. ظاهرة استثنائية

سـيد هـويدى

خلفت الجداريات المكسيكية واقعا جديدا غير مسبوق لم يكن موجودا من قبل، سواء من الناحية التقنية أو الفنية والجمالية، والثقافية باعتبارها كتبا مفتوحة للفن والمعرفة، لكن بلغة بصرية. للدرجة التى تجعل دافيد الفارو سيكويروس واحداً من أربعة فنانين مكسيكيين كبار قادوا نهضتها الفنية فى القرن العشرين ظل يردد أن اللوحات المصورة على حامل لوحات ثانوية بالنسبة للصور الحائطية. فلوحة الحامل مجرد تجارب من أجل عمل أكبر.. ففى الوقت الذى كانت تكرس فيه أوروبا لفن تشييد اللوحة وطرق بيعها وتسويقها، ظهرت فى أمريكا اللاتينية مدرسة لفن الجداريات، تجاوزت طموح الفن الحديث وهدفه فى أن تظلل اللوحة حبيسة جدران بيوت الأثرياء، والمتاحف المغلقة، يراها عدد محدود، بينما كافح فنانو المكسيك إلى أن تكون الجداريات كتبا مفتوحة للناس فى الشوارع.. إذن ما هى حكاية الجداريات المكسيكية التى استبدلت الرقة بالقوة، والنظرة الحالمة بالجدية والدور المحدود للوحة بفضاء واسع جديد، وارتفعت بسقف الفن الى سماء التواصل مع الجمهور، متجاوزة النموذج النهضوى (نسبة إلى عصر النهضه الأوروبى)، والهبت حماس العالم من الشرق إلى الغرب على مدار قرن من الزمان للدرجة التى جعلت الولايات المتحدة الأمريكية كعادتها، فى جذب المبدعين، تستقطب فنانى المكسيك لاستنساخ التجربة رغم علمها أن التجربة وأصحابها ومنبتها تنتمى إلى توجهات أيديولوجية مغايرة وعلى النقيض من الأفكار السياسية الرأسمالية الأمريكية!!.

وعلى الرغم من أن فن الجداريات يرجع تاريخه إلى مواجهات الإنسان الأول لواقعه بالرسم على جدران الكهوف بالحجر الصوان، بغرض أن يتغلب على هو جسه بالخارج، سواء بحصوله على صيد فرائسه أو تمكنه من السيطرة على الأخطار، إلا أن مستوى جداريات هذه الأيام فى حالة قطيعة مع تلك المسيرة الطويلة، ولم يشفع تاريخ الجداريات لها، بل استخف بها فنانو العصر، بعد أن كانت الجداريات منذ بدء الخليقة تعبيراً حياً عن تطلعات ورغبات الإنسان وجزءاً أصيلاً من حياته اليومية، وتؤدى وظيفة حياتية، وتقاوم التحديات المناخية المتعاقبة، وعوامل الزمن وتقلبات الطبيعة القاسية.

تكشف كهوف تاسيلى فى الصحراء الكبرى الليبية الجزائرية، التى يرجع تاريخها على أقل تقدير إلى عشرين ألف سنة، عن خيال نادر لأشخاص بملابس فضاء، وأدوات وملابس غطس، فقد عمل الفنان الرسام الأول تحت وطأة ظروف مضنية، بسبب وجود معظم الكهوف تحت الأرض وتعذر الوصول إليها، ومنها ما يقع على بعد نصف ميل من المدخل عن المنحدر الصخرى، كما أن بعض الكهوف جد منخفضة ومعتمة، مما يدل على أن الرسام لابد أنه كان يستلقى على ظهره ليرسم أو ليلون، وفى أغلب الظن كانت المشاعل هى وسيلة الإضاءة، سواء كانت مشاعل مدخنة أو زيتية مترجرجة كإحدى الوسائل البدائية جداً، ناهيك عن أن أغلب السطوح كانت غير مستوية.

قـرن الشـعـب

تعد الجداريات المكسيكية ظاهرة فريدة واستثنائية فى القرن العشرين تجاوزت فيها الحدود والآفاق ولم تبلغ مكانتها ظاهرة جماعية أخرى حتى الآن.

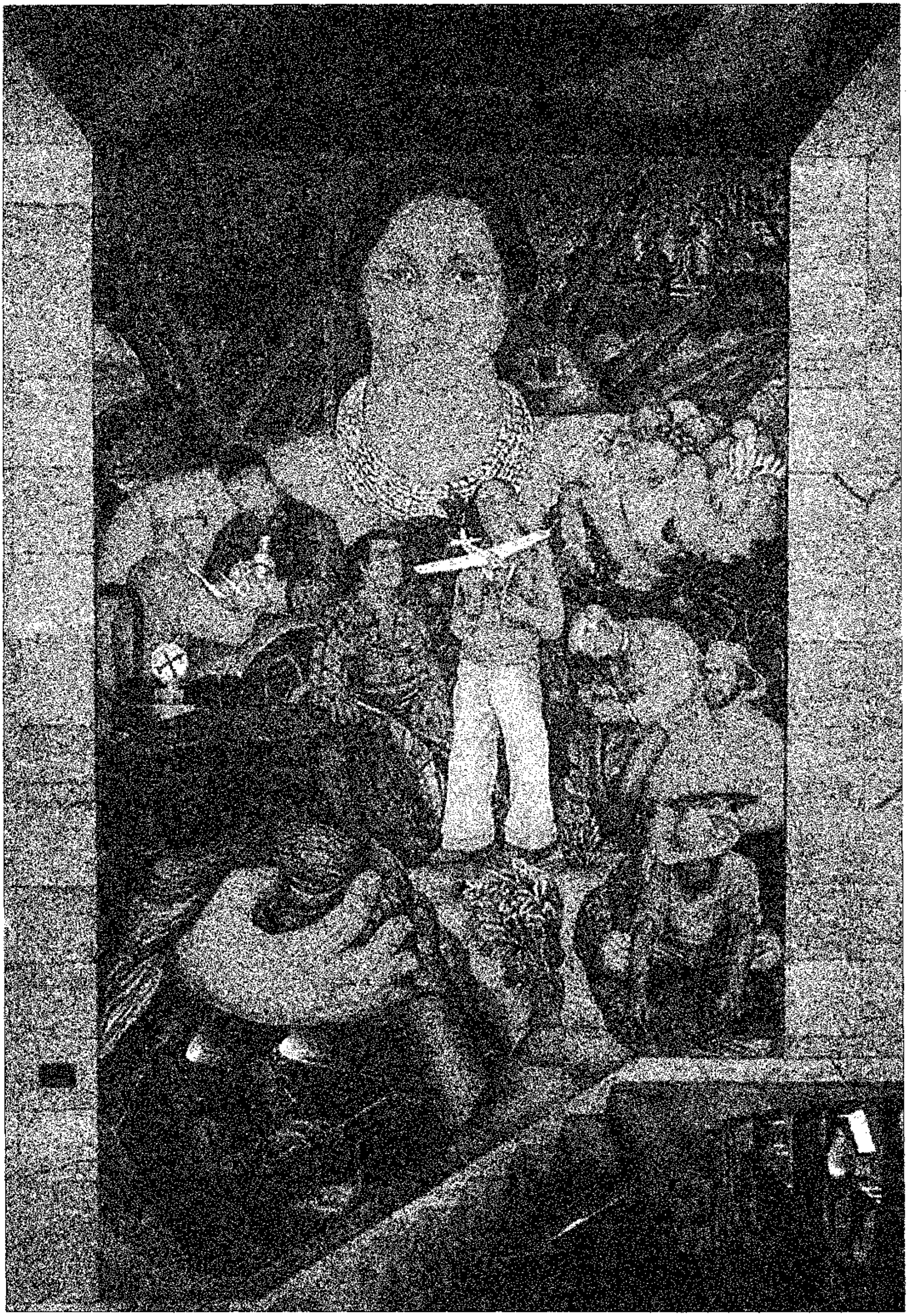
لفهم الشخصية الأمريكية اللاتينية لابد من مفتاح يعبر ممرا فى الماضى، وهو ما يعبر عنه الكاتب الكولومبى خرمان أرثينيجاس حين قال: يمكن تلخيص تاريخنا عبر القرون على الوجه الآتى: «كان القرن السادس عشر قرن الغزاة، استطاع فيه الشعب الأسبانى بزعامة قواده إن يخضع قارة بأسرها تحت حكمه. وكان القرن السابع عشر هو قرن أجدادنا، ولد فيه شعب جديد لينعم بهذه القارة. وكان القرن الثامن عشر هو قرن رواد الحرية والمبشرين بها. وكان القرن التاسع عشر هو قرن المحررين الذين فصلوا أمريكا عن أسبانيا وأبرزوا قوة الجماهير الذين انضووا تحت لوائهم».

جانب من جدارية الفنان سيكوريس



لقد دفعنى إلى جلاء هذه التجربة الفنية التى ألهمت الكثيرين، عدة أسباب منها ما يتعلق بالتجربة المكسيكية نفسها وريادتها، وهو ما سوف نأتى على ذكره لاحقا. أما ما يتعلق بنا فقد كنا أصحاب باع طويل فى مجال الجداريات وتاريخ ثرى، لكننا ونحن نعيش فورة تتجه إلى إقامة جداريات فى أماكن كثيرة، نحتاج إلى التعرف على تجارب الآخرين، سواء على المستوى النظرى أو التقنى، خاصة أن التجربة المكسيكية قدمت إسهاماً منهجياً يستحق التوقف والتأمل، علاوة على أن مدينة كالإسكندرية اكتسبت رواجا إعلاميا زائفا فى الفترة الأخيرة لمجرد أنها أقدمت على إقامة جداريات، وللأسف الشديد تجافى التاريخ الطويل الذى برع فيه الأجداد، ولا يفهم من ذلك استنساخ جداريات مقابر بنى حسن فى المنيا مثلا، أو تلك الجداريات الدامغة على جدران المعابد، لكن المؤكد أن تعبر الجداريات عن العصر وتفاعلاته، سواء من حيث التناول أو اختيار الخامة أو مراعاة الموقع والوظيفة الجمالية والمعنوية وعلاقة كل ذلك بالمحيط والبيئة البصرية التى يتفاعل معها المشاهد.

ثمة سبب يجعل من الجداريات المكسيكية موضوعا يفرض نفسه على بساط البحث، وهو أن الواقع السياسى والاقتصادى والاجتماعى بيننا وبين بلدان أمريكا اللاتينية يكاد يتشابه فى مشتركات كثيرة، منها الخضوع تحت نير الاستعمار فترات طويلة، والنهب المنظم للثروات، وتأثير الاستعمار السلبى على نمو المجتمعات بشكل طبيعى، بل والرجوع بالبلدان المستعمرة إلى طابع القرون الوسطى، صحيح أن أغلب بلدان أمريكا اللاتينية استقلت سياسيا عن أسبانيا والبرتغال، مع مطلع القرن



جدارية «حكاية كاليفورنيا» للفنان دييجو ريفيرا - ٣٢.٨٠/٤٣ متر مربع - ١٩٣١

يقف وراء ريادة وتميز وشهرة الجداريات المكسيكية عزيمة وعناد فنانين كبار يرجع تكوين أغلبهم الفنى إلى الثقافة الأوروبية.

التاسع عشر، ودول المنطقة نالت استقلالها مع منتصف القرن العشرين إلا أن القارة اللاتينية وقعت تحت السيطرة الاقتصادية لجارتها الكبرى أمريكا الشمالية.

أبـطـال الـنـهـضـة

وإذا كنا قد توجهنا بالنقد للجداريات الحالية في وقت نعد فيه هذه الجداريات سببا للفخر لدى البعض، فلأن جداريات هذه الأيام لم تقدم جديدا يتفق مع التاريخ الطويل أو احترام الخامة المستخدمة، فأغلب الجداريات الجديدة لن تصمد أمام تحديات الزمن والعوامل الطبيعة بينما (جداريات مقابر بنى حسن) تلك الجداريات التى قاومت الزمن على الشاطئ الغربى لنيل مدينة المنيا، ودللت على براعة الفنان المصرى القديم، من حيث القدرة التصويرية أو التقنيات المستخدمة التى لجأ فيها إلى الألوان الطبيعية المتوفرة فى البيئة كزلال بيض البط وصفاره، قبل أن تعرف مصر الدجاج، ومع ذلك ما زالت صامدة حتى اليوم لم تتأثر ألوانها، وإن كانت قد تأثرت على مدار فترات القهر السياسى أيام الاحتلال الرومانى، عندما هرب إليها بعض المسيحيين من بطش المستعمر الرومانى، وإذا كان فن الجداريات قد تراجع فى بدايات ظهور الإسلام، إلا أن تزيين القصور بصور جدارية من الأشكال التى أخذ بها العالم الإسلامى منذ العهد الأول للأمويين، وهو ما رأيناه فى قصر الحير الغربى ببادية الشام وقصر عمره ببادية الأردن كما شهد القرن الرابع عشر خلال الثورة الكبرى فكرة تعليم الدين عن طريق التصوير لأول مرة، رغم شبهة تحريمه فى البدايات، إلا أن السنيين والشيعة، اجتمعوا على ضرورة تعليم الدين عن طريق الفن.

يقف وراء ريادة وتميز وشهرة الجداريات المكسيكية عزيمة وعناد فنانين كبار يرجع تكوين أغلبهم الفنى إلى الثقافة الأوروبية، فعلى الرغم من أن موضوع مناقشات الفنانين الشباب المكسيكيين المتحمسين أمثال سيكويروس وكارلوس، أوروزكو، روميرو، أبطال النهضة الفنية المكسيكية فى النصف الأول فى القرن العشرين حول مشاكل الفن المكسيكى جرت على أرض فرنسية بعاصمة النور والجمال باريس، إلا أن الإعلان الثورى الذى أسفرت عنه مناقشات الفنانين الثوار طالب بضرورة استلهام فن الهنود البدائى أكثر من تبعيته للفن الأوروبى الذى وصفه الإعلان بأنه فن حضارة ميتة.

وإن كان الإعلان الثورى هو الشرارة التى أشعلت النيران التى لونت جدران المكسيك كلها أو بالمعانى الثورية وكأنها كتب فتحت على مصراعيها للثقافة البصرية والمعرفة، إلا أن الحماس والرغبة فى التغير التقت مع عزيمة السلطة التنفيذية ممثلة فى جوزيه فاسكو نسيلوس وزير التربية والتعليم الذى اختط برنامجاً ثقافياً كان على الفن أن يلعب دوراً قيادياً فيه.

كما أن الإعلان كان إيذاناً بعودة الفنانين إلى العاصمة المكسيكية مكسيكو، حيث عاد سيكويروس وأروزكو روميرو رويفيرا من أوروبا، وجوزيه كليمنت أوروزكو من سان فرانسيسكو منفاه الاختيارى كما اتجه بعض الفنانين إلى المكسيك لأول مرة مثل كارولوس ميرويدا من جواتيمالا وجان شارلوا من باريس وانضم إليهم كزافير جويريرو.

أخذت الثورة ضد الإقطاع عام ١٩١٠ منذ البداية زخماً ثقافياً دافعاً بفضل المثقفين، سواء بتبنى أفكار ومواقف ثورية، أو بالمشاركة فى القتال ضد الطغاة، وإن كان أبرز ما قدمه المثقفون للثورة هو إقناع قطاعات عريضة من الشعب فى المشاركة، لإحداث التغيير، وشهد حشد الجماهير صوراً عديدة ومؤثرة منها عندما صمم موجار باليها مكسيكية لانا بافلوفا وأقيم فى متنزه شابولبيتيكو الجميلة العاصمة مكسيكو، إلى جانب مهرجان ضخم للموسيقى والرقصات المكسيكية الشعبية.

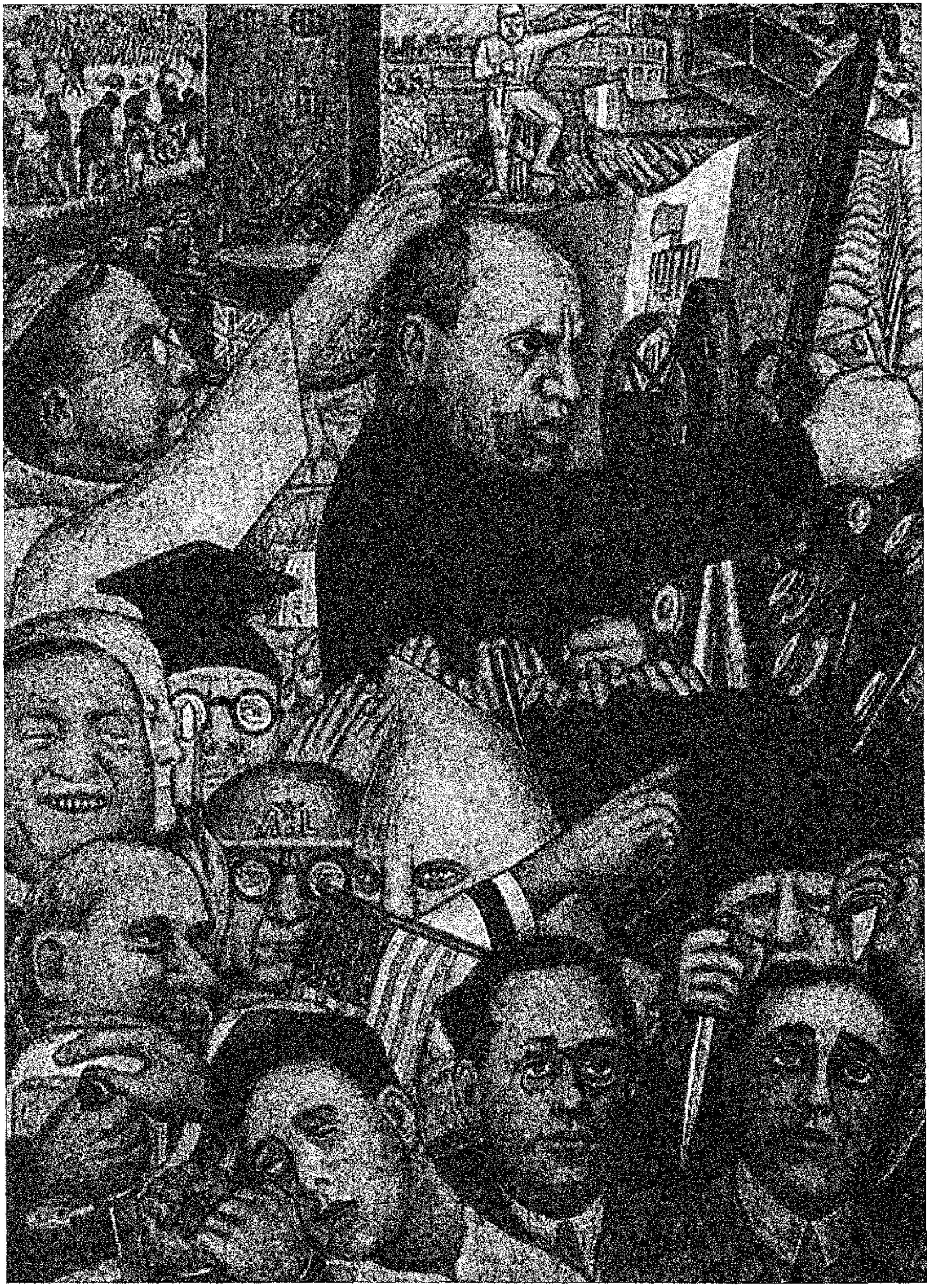
أسـبـاب الـنـجـاح

أسباب عديدة كانت سبباً لأن تصبح مكانه جداريات الفنانين المكسيكيين الكبار واحدة من أهم أحداث وظواهر الفن فى القرن العشرين ومنها:

- النزعة القوية إلى وجود فن قومى.
- الرغبة الصادقة فى الخروج من تبعية أوروبا.
- الوعى الثورى الذى دعا إلى أن يكون للفن دور قيادى فى المجتمع.
- ربط الفن بجذوره الشعبية الأصلية.
- التفاف المثقفين حول الأفكار الراغبة فى التغير
- النهضة الفنية جاءت انعكاسا للكفاح الوطنى الشعبى الذى ولد مع ثورة ١٩١٠. وثمرة الشعور بالحرية الفكرية والروحية، التى غمرت القطاعات الشعبية بدون استثناء فى مواجهة كبار الملاك الزراعيين الذين يتحكمون فى الفلاحين.
- الاعتماد على عناصر أصيلة فى الثقافة المحلية.

جدارية «المستغلين» للفنان دييجو ريفيرا - ١٩٢٦





جدارية «موسوليني» للفنان «ديجو ريفيرا - مدرسة العمال الجدد بنيويورك (٢,٨٣ × ١,٥٢ متر) ١٩٣٣

البعض يأخذ على الجداريات المكسيكية أنها خارج التصنيف الحداثى لمدارس الفن في القرن العشرين، ربما لرفضها التبعية الأوروبية

● مناهضة الطرق النمطية القديمة والجامدة فى تعليم الفنون والخروج خارج أسوار المراسم.

● اشتراك الفنانين مع القوى الشعبية الثائرة ضد الدكتاتوريات، خاصة بعد مقتل ماديرنو القائد الذى كان قد طرد الدكتاتور بروبيدر دياز، وتقلد السلطة عامى ١٩١٠، ١٩١١.

● وعى أصحاب القرار من المسئولين بأهمية الفن للدرجة التى تجعل وزير التربية والتعليم جوزيه فاسكونسيلوس يدشن برنامجا ثقافيا يقود فيه الفن التنمية.

● عودة الفنانين من المهجر إلى الوطن الأم بهدف المشاركة فى تفاعلات الحياة السياسية والنهضة الفنية.

● وعى الفنان المكسيكى بدوره الاجتماعى والسياسى والطليعى.

وإن كان البعض يأخذ على الجداريات المكسيكية أنها خارج التصنيف الحداثى لمدارس الفن فى القرن العشرين، ربما لرفضها التبعية الأوروبية، خاصة فى ظل أن بلدان امريكا اللاتينية الأخرى وقعت تحت تأثير المدرسة الباريسية، فيما انطلقت المدرسة المكسيكية بقوة بعد الإعلان الثورى للفنانين الكبار وبعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها فى العام ١٩٢٠ معتمدة على فن جماهيرى يتخلى عن ملكيته الخاصة للعامة فى الشوارع فى شكل جداريات، هذا التوجه القومى أضفى بعدا وطابعا تقدميا متميزا، بينما الفن الأوروبى يكرس للملكية الفردية، إلا أن ديجو ريفيرا أشهر مصورى المدرسة المكسيكية يدين بتعاليمه الفنية إلى باريس، بل واستخدم نهج الانطباعيين فى جدارياته، أما جوزيه كليمنت اوروزكو فظهر متأثرا بتعبيرية جماعة الجسر الألمانية، فى الوقت الذى التقى فيه روفيو تامايو أحد الأربعة الكبار مع أسلوب براك وغيره من أساتذة المدرسة الباريسية الحديثة، فيما تأثر سيكريروس بالمدرسة المستقبلية، فى حين يمكن القول إن فنانى المكسيك برغم أنهم نتاج ثقافة أوروبية إلا أنهم انتهجوا طابعا لاتينيا.

مع مطلع عام ١٩٢٣ بدأت تظهر الطلائع الأولى لإنتاج مصورى المدرسة المكسيكية على حوائط المبانى العامة فى العاصمة مكسيكو.

الرجوع إلى الجذور

تنتمى أصول روفيو تامايو إلى السكان الأصليين، حيث ولد عام ١٨٩٩ فى أوكساكا بالمكسيك من أبوين من الهنود الحمر، والتحق فى شبابه بأكاديمية سان كارلوس للفنون الجميلة، ارتبط تامايو بفن القبائل المكسيكية القديمة، بحكم جذوره، ومنها المايا والأزتيك والتروسكان والمكسيك، أيضا القبيلة التى ينحدر منها وهى الزابوتيك. وإن كان تامايو من أكثر أقرانه تمسكا بالجذور، إلا أنه لم يكن فى قطيعة مع الفن والمدارس الحديثة.

المدهش فى حكاية تامايو أن شهرته تحققت فى الولايات المتحدة الأمريكية، فلم يكن مصورا حائطيا، فضلا عن عدم مجاراته للحائطيين الكبار فى آرائهم السياسية، ومن ثم وجد الأمر شاقا عليه فى وطنه، وفى أوائل الثلاثينيات شد الرحال إلى الولايات المتحدة الأمريكية، سعيا وراء واقع جديد.

ولما كان تامايو مصور لوحات متوسطة الحجم بصفة أساسية فقد أمكن للعالم خارج المكسيك أن يستمتع بإنتاجه الرائع.



صورة شخصية للفنان سيكوريس

جدارية للفنان ديجو ريفيرا - جامعة مدينى سان فرانسيسكو. اللوحة الأولى (٦,٧٤×٢٢,٥متر) ١٩٤٠



وفى نيويورك حصل على فرصته الحقيقية الأولى للتصوير الحائطى، وقد انجز فعلا فى كلية سميث عام ١٩٤٣ لوحة حائطية رمزية غاية فى الإحكام، بعدها دعى للمشاركة إلى جوار أقرانه أورزوكو وريفيرا وسيكويروس.

استطاع تامايو أن يحقق معادلة تجمع بين مضمون الفن المكسيكى البدائى ورؤية تكعيبية بألوان دافئة، وذلك فى جدارية مولد الوطنية بسراى الفنون الجميلة.

أما دافيد الفارو سيكويروس

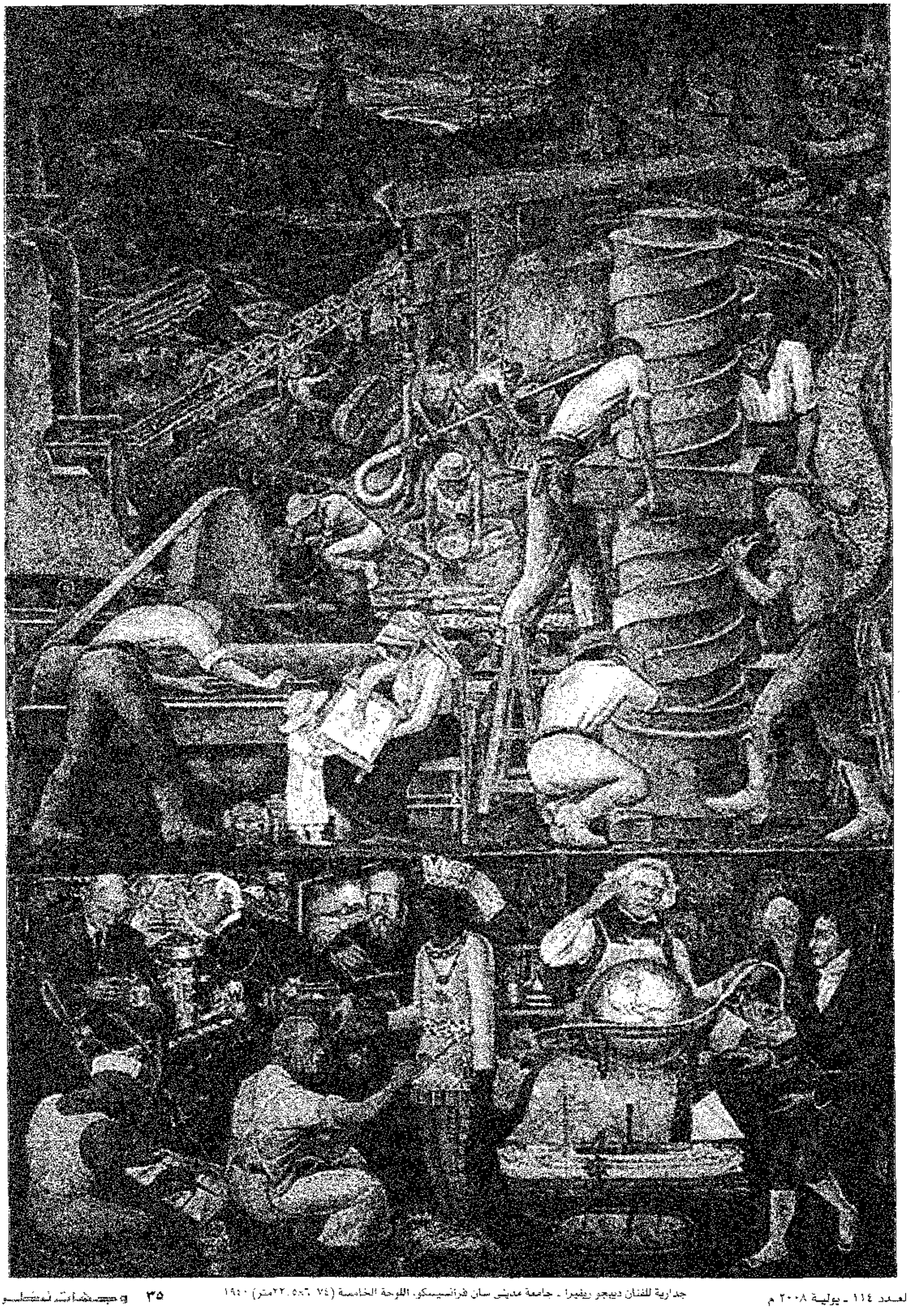
ثلاثة محاور أساسية تشكل شخصية سيكويروس الذى ينتمى إلى مدينة شيهواهوا، مسقط رأسه حيث ولد عام ١٨٩٨ المحور الأول معايشته لويلات الحروب، منذ أن التحق عازفا للطبل فى جيش التحرير المكسيكى وهو ما يفسر عظمته فى أقوى لوحاته (أصداء صرخة) والتى تجسد ما تفعله الحروب من تدمير للحضارات وقتل للأبرياء، بل تعد صرخة احتجاج ضد الحرب، أما المحور الثانى فى شخصية سيكويروس هو نزعته وحسه الاجتماعى، وأسلوبه الجديد فى التعبير عن المعانى الاجتماعية فى الفن، فيما يعد أهم ما يميزه نزعته الابتكارية سواء بامتلاكه أسلوب الواقعية الديناميكية التى استطاع من خلالها الإيهام بالحركة من خلال تكرار أجزاء معينة من الأشكال التى يرسمها، فتبدو أنها تتحرك، أو بحثه المستمر عن خامات وأدوات ملائمة لاستخدامها، فقد أنتج لوحات بمادة البيروكسلين فى عام ١٩٣٢، كما أنشأ معمل سيكويرس لتنمية الخامات الجديدة للتصوير.

الديمقراطية الجديدة واحدة من أشهر لوحات سيكويروس، نفذها عام ١٩٤٥ وتنافس جدارية تامايو فى سراى كلية الفنون الجميلة بالعاصمة، ويشترك مع مايكل أنجلو فى جدارياته التى أنجزها بمكتبة اسكويلا مكسيكو بشيلى عام ١٩٤٢ عندما رسم على الحائط والسقف معا، وبطريقته وأسلوبه الواقعى الديناميكى، لكن هذه المرة جمع بين وجوه متعددة من رموز التاريخ المكسيكى وشيلى.

ريفيرا

ولد عام ١٨٨٦ فى جوانا جواتو بالمكسيك ودرس فى أكاديمية سان كارلوس بالعاصمة، فى العشرينيات من عمره طاف ببلدان أوروبا كلها إلا أنه استقر فى باريس، بل وانضم إلى فنانى مونبرناس تحت لواء المدرسة الباريسية، وصادق موديليانى وبيكاسو وبراك، وجرى.

على الرغم من أن ريفيرا



جدارية للفنان دييجو ريفيرا - جامعة مدينى سان فرانسيسكو، اللوحة الخامسة (٧٤، ٦، ٥، ٢٢متر) ١٩٤٠

عزم منذ وصوله المكسيك عائدا من أوروبا على اكتشاف فن القبائل المكسيكية القديمة، إلا أنه كان قد ظل عاما كاملا في إيطاليا دارسا للوحات جيوتو الحائطية والفن البيزنطي، في الوقت الذي اتخذ من المدرسة الباريسية موقف التحفظ.

طغت شخصية ريفيرا المحبة للحياة على فنه، فعندما انفعل بالروح الثورية التي اجتاحت بلاده، تخلى عن طريقته المحافظة المقتصرة على الملاحظة ومتابعة الأحداث دون المشاركة فيها وأصبح أكثر إيجابية ليساهم في وجود مدرسة مكسيكية خالصة للتصوير، وإذا كان ريفيرا قد جاء عطاؤه في مجال الجداريات، فقد كانت لوحات زوجته فريدا كاهلو علامة من علامات الفن في أمريكا اللاتينية.

استطاع ريفيرا أن يصنع تماسا نادرا بين جدارياته والتاريخ المكسيكي وأحداث الثورة، كما امتلك قدرة على مخاطبة العامة وتلبية احتياجات الجماهير العاطفية في أعماله، بأسلوب ينفرد به. فما زالت أعماله على جدران المباني في المدن الكبرى سواء في أمريكا الشمالية أو اللاتينية شاهدة على ثورة فنية لا تقل عن ما قدمته أوروبا.

أوروزكـــــــــــو

حول الخيال الشعبي المكسيكي سيرة حياة أوروزكو إلى أسطورة، ليشترك مع الثوار في مصير واحد، خاصة أنه عاش مراحل الثورة العنيفة والمضطربة، كما أن الخيال الشعبي اتخذ من فقد أوروزكو لذراعه سببا لخلق حكايات وأساطير، فقد ذهبت واحدة من هذه الحكايات إلى أنه فقدها في إحدى المعارك الثورية. في حين تقول رواية أخرى إنه فقد ذراعه بينما كان يتبارى أنصار زباتا وأنصار فيلا في إلقاء القنابل اليدوية، لكنه كان يقول: «إنها حادثة عادية.. مثل أية حادثة أخرى». والواقع أنه فقد ذراعه في سن مبكرة أثناء تجربة كيميائية على قدر من الخطورة، بدافع حب استطلاع طفولي وصبياني.

ولد جوزيه كليمنت أوروزكو في الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٣ في مدينة جوزمان بمقاطعة جاليسكو بالمكسيك، لكن طفولته قضاها في جوادالاجارا بعد أن رحلت إليها الأسرة مضطرة، ومع ذلك ظلت تلك المدينة مصدر إلهامه، حتى بعد أن انتقلت أسرته إلى العاصمة مكسيكو.

وفي طريقه اليومي إلى مدرسته الابتدائية كان الفنان الصغير يقترب من نوافذ مرسم المصور الكاريكاتيري بوسادا! ويمضي الساعات الطوال يراقبه من النافذة وهو يعمل. تلك النافذة كانت بداية دخوله إلى عالم الفن، لدرجة أن صغر سنه حال دون قبوله في أكاديمية سان كارلوس، لكن أمه تمكنت من التحاقه بالدراسات المسائية.

المكسيك في ثورة.. هي مجموعة اللوحات التي جسدت رؤية ومعايشة أوروزكو لأحداث الثورة العنيفة، التي استطاعت إسقاط حكم دياز الفاسد في عام ١٩١٠ بعد حكم دام ثلاثين عاما. كما عكس في تلك المجموعة انكسار الثورة بعد مقتل أحد قادتها ماديرنو عام ١٩١٣ على أيدي هويرتا، فتردت المكسيك في حمام كبير من الدماء. هذه التجربة المريرة ظهرت بجلاء في لوحات أوروزكو، وتجلت في أعماله وجدارياته بعد ذلك، وخاصة في جدارية الضحايا، والإنسان الخلاق على جدران جامعة جوادالاجارا تلك الجداريات التي أنجزها في الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩.

امتد تأثير حركة الجداريات المكسيكية الأسطورية إلى بلدان عديدة، أو اتجاهات مماثلة، وأسهمت إلى لفت أنظار شعوب كثيرة إلى جماليات وتأثير الجداريات، فالفنان البرازيلي كانديدو بورتناري تشابهت جدارياته مع سيكويروس في رسمه لشخصيات قومية للعمال في المصانع وأيضا مناحي الحياة المختلفة، المدهش أن الفنان الاكوادوري ازوالدو جياسامين نهج التقاليد الفنية لحركة التصوير الحائطي المكسيكية، بينما بلاده لم تمر بوضع ثوري، فيما اتخذت الثورة الكوبية في عام ١٩٥٩ الجداريات سبيلا إلى فن التأثير في الجماهير وبالفعل نجحت في ذلك، وفي مصر التقى حامد عويس مع أسلوب الفنانين المكسيكيين في اختياراتهم لكن بالرسم على القماش وليس على الجدران.

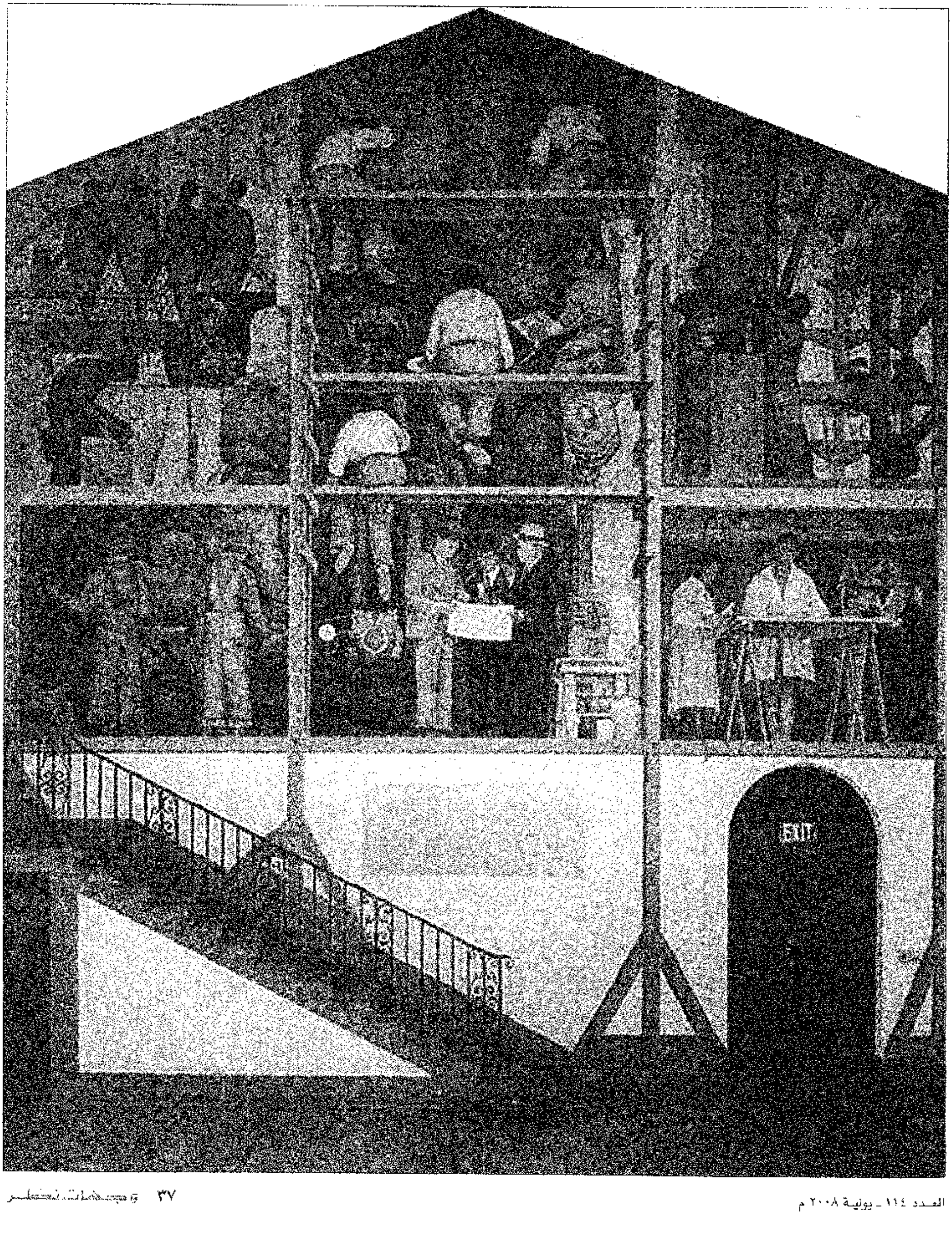
المصادر والمراجع:

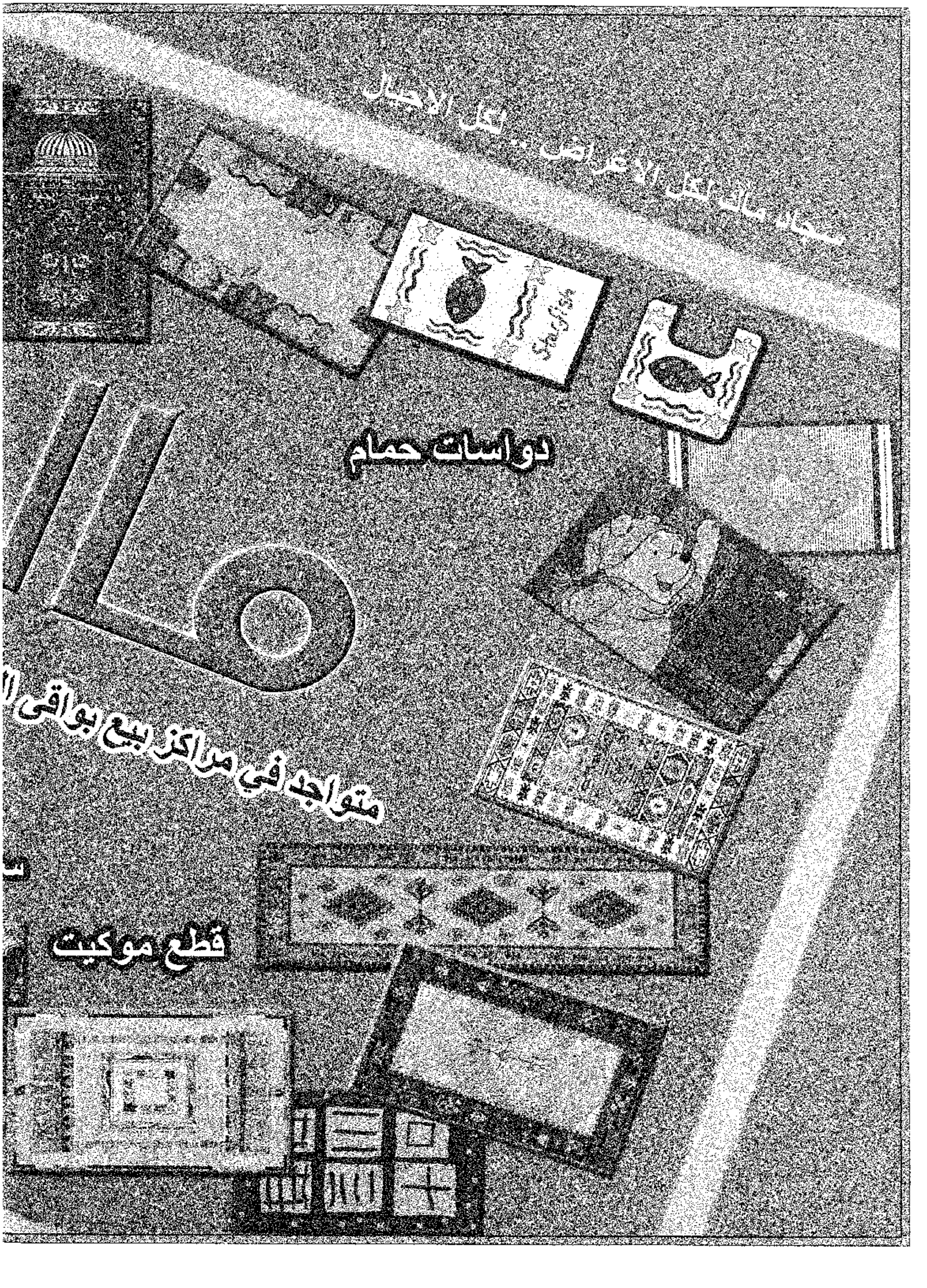
كتاب حصاد الألوان: د.نعيم عطية
شبكة المعلومات العالمية الانترنت
مجلة رسالة اليونسكو العدد ١٣٠
كتاب العربي العدد ٣٩٠، مقال صرخة غيرت وجه الفن لكاتب هذه السطور

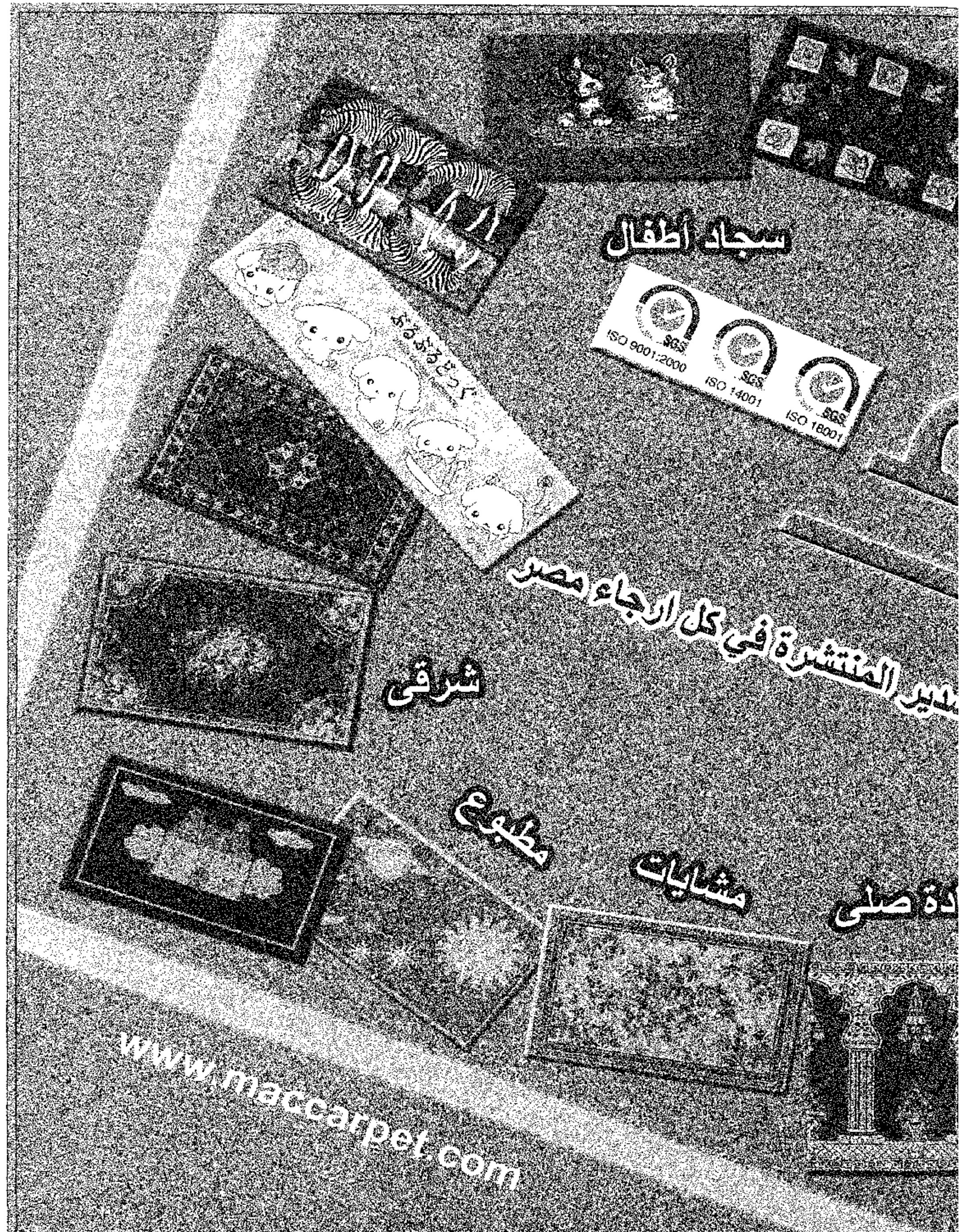
جدارية «الحكومة الجيدة» للفنان دييجو ريفيرا - ١٩٢٤



جدارية للفنان دييجو ريفيرا - سان فرانسيسكو - ١٩٣١




سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت


سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

صدرت الطبعة الإنجليزية من مذكرات الزعيم الكوبي «فيدل كاسترو» عام ٢٠٠٧، وتزامن صدورها تقريباً مع إعلان الزعيم الكوبي عدم اعتزامه الترشح لرئاسة الدولة وزعامة الحزب في كوبا لمرة جديدة، وهو الأمر الذي أفضى إلى انتخاب شقيقه «راءول» لشغل هذين المنصبين، وهو الذي شغلهما بشكل مؤقت وبالنيابة عن شقيقه منذ منتصف عام ٢٠٠٦. كما صدرت الطبعة الشعبية من هذه المذكرات عام ٢٠٠٨. وجاءت مذكرات كاسترو عبر أكثر من مائة ساعة من الحوارات مع «ايجناسيو رامونيت»، أستاذ الإعلام بإحدى جامعات باريس، وهي حوارات استمرت ما بين يناير ٢٠٠٣ ونوفمبر ٢٠٠٦، وتعد أطول الحوارات التي أجراها كاسترو، وواحد من خمسة حوارات طويلة فقط أجراها كاسترو خلال ما يقرب من نصف قرن قضاها كاسترو في سدة الحكم في كوبا. وإذا كان توقيت صدور المذكرات جاء مرتبطاً باعتزال كاسترو رسمياً للعمل السياسي كما ذكرنا، فإن عنوان المذكرات أيضاً جاء دراماتيكياً في هذا الصدد، وهو بعنوان «حياتي»، ويقع في حوالي ٦٢٧ صفحة و٨٤ صفحة من الهوامش و١٢ صفحة في شكل فهرس أعلام.

وقبل التعرض للكتاب بالعرض والتحليل والتقييم نعرض بإيجاز لخلفية عن دور كاسترو في كوبا منذ انتصار الثورة الكوبية في يناير ١٩٥٩. فعندما انتصرت الثورة الكوبية كانت الشركات الأمريكية تسيطر على ٩٥٪ من الأراضي الزراعية، ولكن كاسترو سرعان ما قرر حظر امتلاك الأجانب للأراضي، وقام بتوزيع الأراضي المؤممة على أكثر من ٢٠٠ ألف فلاح من المعدمين. وكما كان متوقعاً فقد أدت هذه الإجراءات إلى ترسيخ القطيعة بين كوبا بزعامة كاسترو وبين كل من الولايات المتحدة الأمريكية والشركات الرأسمالية العالمية الكبرى، وعلى المستوى الشخصي والإنساني تأثرت علاقة كاسترو بوالدته وشقيقته نتيجة هذه الإجراءات نظراً لأنهما كانتا تملكان مزرعة استولت عليها الحكومة الثورية في إطار مصادرة الملكيات الزراعية الكبيرة. وعلى الصعيد الاجتماعي، قرر كاسترو فرض التعليم المجاني وكذلك تبني استراتيجية وطنية لمحو الأمية أتت أكلها بعد سنوات حيث أعلنت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) نجاح كوبا في القضاء التام على الأمية.

وفي العام التالي مباشرة، وتحديداً في فبراير ١٩٦٠، وصل إلى هافانا نائب رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وتم التوصل بينه وبين كاسترو إلى اتفاق بمبادلة النفط السوفيتي مقابل قصب السكر الكوبي. وكان لهذا الموقف انعكاساته، فالاستقبال الحافل للمسئول السوفيتي في هافانا ثم قرار كاسترو بتأميم شركة الهاتف الكوبية (والتي كانت ملكيتها أمريكية) أقنعا الولايات المتحدة بأن حالة كاسترو حالة ميئوس منها وغير قابلة لتغيير مسارها بالنسبة لواشنطون. ثم تطورت الأمور بشكل أكثر دراماتيكية عندما رفضت شركة «إسو» وشركات نفط أمريكية أخرى القيام بتكرير النفط المستورد من الاتحاد السوفيتي. وجاء رد فعل كاسترو حاداً وعنيفاً حيث قام بتأميم شركات النفط الأمريكية في كوبا. وردت واشنطون بقرار لا يقل حدة تمثل في وقف استيراد السكر الخام من كوبا، وكان رد فعل كاسترو سريعاً وشاملاً حيث أعلن تأميم كافة الممتلكات الأمريكية في كوبا، مجسداً اكتمال القطيعة مع واشنطون.

وفي سبتمبر من نفس العام جاءت زيارة كاسترو الأولى والتاريخية إلى نيويورك لحضور أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة ومخاطبة المجتمع الدولي بأسره من خلالها. وهناك التقى كاسترو



مع الزعيم السوفيتي خروتشوف وأعلن رسمياً ارتباطه بالاتحاد السوفيتي. وتواصلت لعبة الصد والرد بين كاسترو والولايات المتحدة، فردت واشنطون عبر إصدار محكمة أمريكية حكماً بمصادرة الطائرة الرئاسية لكاسترو! وجاء الرد بواسطة خروتشوف هذه المرة حيث أعطى طائرته الخاصة لكاسترو لإعادته إلى هافانا.

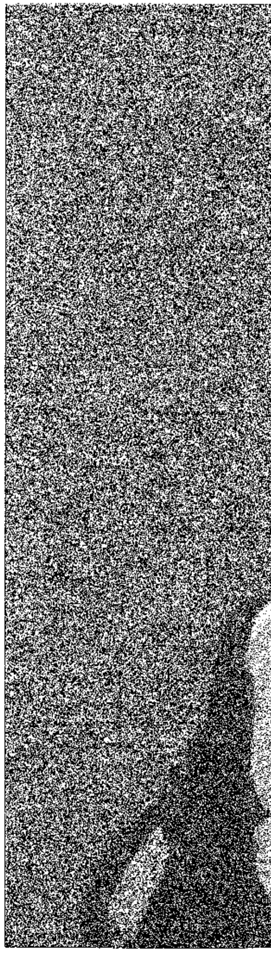
وفي عام ١٩٦١ أعلنت الولايات المتحدة قطع علاقاتها مع كوبا، ومن ثم خرج آلاف الكوبيين من بلادهم قاصدين الولايات المتحدة، وكان من بينهم شقيقة لكاسترو، والذي تحدث بقسوة وحدة عن أولئك الذين اختاروا المنفى وأسماهم بـ «الطفيليين» و«الديدان».

وفي اكتوبر ١٩٦٠ أعلنت واشنطون حظراً شاملاً على كوبا، ما زال بالمناسبة قائماً حتى يومنا هذا - بضغط أساساً من الأمريكيين ذوي الأصول الكوبية - بالرغم من قرارات دولية سنوية من الجمعية العامة للأمم المتحدة ولجنة ثم مجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنسان بعدم قانونية هذا الحظر وبمطالبة الولايات المتحدة برفعه، وكذلك تم إيقاف حركة التنقل بين الولايات المتحدة وكوبا. وفي العام نفسه، سمح الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت «دوايت أيزنهاور» للمخابرات المركزية الأمريكية بالعمل لقلب نظام الحكم في كوبا، وهو تفويض جدده الرئيس الأمريكي التالي «جون كينيدي» عام ١٩٦١، حيث بدأت المخابرات الأمريكية تدريب الآلاف من المنفيين الكوبيين في ولاية فلوريدا في إطار الإعداد لعملية غزو كوبا.

وفي خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، كذب الرئيس كنيدي عندما نفى نية بلاده التدخل في الشئون الداخلية لكوبا. وبعد ذلك قام طيارون أمريكيون بالعدوان على كوبا في ١٧ أبريل ١٩٦١، حيث تم إنزال أكثر من ١٢٠٠ منفي كوبي بخليج الخنازير، ودارت مواجهة غير متكافئة مع ٦٠ ألفاً من القوات الحكومية الكوبية. وكانت النتيجة كارثية للولايات المتحدة وللمنفيين الكوبيين؛ فقد أدت إلى مقتل ١١٤ من المنفيين الغازين وتعرض ١١٠٠ منهم للأسر. وكانت المخابرات المركزية قد أكدت لكنيدي قبل انطلاق الغزو أن العملية ستطلق انتفاضة شعبية ضد كاسترو، وهو ما لم يتحقق على أرض الواقع، مما دفع كنيدي لاحقاً لوصف العملية بأنها «مهزلة». وقد تحولت الهزيمة الفادحة للغزو إلى انتصار عسكري وارتفاع غير مسبوق في شعبية كاسترو داخل وخارج كوبا. وتعززت قوته بشكل غير مسبوق، فقد واجه الرجل أكبر قوة في العالم وألحق بها الهزيمة والعار.

وفي أعقاب عملية خليج الخنازير، توصل كاسترو لخطة سرية لحماية كوبا ونظامها. وبحلول عام ١٩٦٢، تحولت كوبا إلى نقطة محورية في المواجهة العسكرية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق. وقام «سيرجي خروتشوف»، نجل الزعيم السوفيتي «نيكيتا خروتشوف» في ذلك الوقت، بتصميم ووضع الصواريخ السوفيتية في كوبا. وفي ١٤ أكتوبر ١٩٦٢، قامت طائرة تجسس أمريكية برصد وتصوير الصواريخ السوفيتية على الأراضي الكوبية. وبعد مرور أسبوع على اكتشاف الصواريخ أعلن ذلك الرئيس كنيدي وهدد بحرب

Fidel Castro: My Life - A Spoken Autobiography
(حياتي: سيرة ذاتية مروية)
Ignacio Ramonet & Fidel Castro
Scribner



كيف تكون الحياة ماركسية؟
كاسترو
الصفحة الأخيرة

وليد محمود عبد الناصر

نووية إذا لم يسحب الاتحاد السوفيتى صواريخه من كوبا. فقد أصاب الذعر الأمريكيين! ورد كاسترو بأن المحرقة النووية قد تقع، وقد يكون ذلك لصالح كوبا! بل دعا كاسترو خروتشوف لضرب الولايات المتحدة بالسلاح النووى إذا وجهت ضربة لكوبا.

ومضت الولايات المتحدة فى تنفيذ تهديداتها، ففرضت حصاراً عسكرياً على كوبا وبدأ العالم يستعد لمشهد الحرب. إلا ان خروتشوف أبدى ليناً ومرونة، وأمر بتفكيك الصواريخ فى كوبا تمهيداً لإعادتها للاتحاد السوفيتى مرة أخرى. وقد لام كاسترو خروتشوف على عدم مشاورته الكوبيين قبل سحب الصواريخ، وخرجت مظاهرات الكوبيين فى بلادهم تهتف ضد الزعيم السوفيتى. وقد اعترف كاسترو بعد ذلك بسنوات، بما فى ذلك فى مذكراته التى نعرض لها هنا، بأن ما فعله الكوبيون حينذاك كان يفتقد للنضج، وأن ما فعله خروتشوف كان النهج الصحيح لتجنب مواجهة نووية كارثية كانت ستجلب الدمار للعالم بأسره.

وأعقب ذلك حدوث تبادلات سرية بين كاسترو وكنيدى وتفاوض حول استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، ولكن هذا الجهد توقف تماماً بعد اغتيال كنيدى عام ١٩٦٣ . وعاود كاسترو الاتصالات السرية مع الرئيس جونسون الذى خلف كنيدى فى البيت الأبيض، وعرض كاسترو أموراً عديدة، ولكن لم يكن بالطبع من بينها اعتزاله الحياة السياسية فى كوبا حسب «مطلب الإدارة الأمريكية حينذاك، ولكن ذلك لم يثر اهتمام جونسون. وبالتالى، عاد كاسترو لزيارة الاتحاد السوفيتى واستأنف وتعزز التعاون مع خروتشوف، وتردد على موسكو عدة مرات.

وعهد كاسترو إلى «تشى جيفارا» بالمسئولية عن الاقتصاد الكوبى، فقام «تشى» بتمجيد العمل التطوعى، وكان يعتقد أن خلاص العالم يكمن فى الكتلة الشيوعية. إلا أن عوائد محصول قصب السكر تدنت إلى النصف، وارتفعت نسبة الغياب عن أماكن العمل، فاستقال «تشى» وعاد ثائراً عالمياً ليؤدى دوراً جديداً فى خدمة كوبا. ففى رأى كاسترو - وهو ما يتأكد لنا من خلال مذكراته التى نعرض لها هنا - أن العدو الذى يهدد كوبا هو العدو الذى يهدد الثوريين فى كل مكان، لذا تعهد كاسترو بدعم الثورة عبر أرجاء المعمورة، وتبلور ذلك على أرض الواقع فى قارتى أفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وفى السبعينيات صعد كاسترو من



فى أكتوبر ١٩٦٠ أعلنت واشنطون حظراً شاملاً على كوبا - ما زال بالمناسبة قائماً حتى يومنا هذا - بضغط أساساً من الأمريكيين ذوى الأصول الكوبية

مساعداته الثورية الخارجية: فى أنجولا وإثيوبيا وجرينادا ونيكاراجوا، وهو الأمر الذى زاد من شهرة كاسترو الثورية فى العالم بأسره. وأرسلت كوبا أيضاً الآف الأطباء إلى مختلف الدول الفقيرة فى العالم لتوفير الرعاية الصحية المجانية. وأعلن كاسترو أنه تلقى معلومات بشأن محاولة المخابرات المركزية الأمريكية قتله عبر دس السم له فى السيجار الخاص به. وفى الأمم المتحدة تم الترحيب بكاسترو كمتحدث باسم دول العالم الثالث، وتولى رئاسة حركة عدم الانحياز عام ١٩٧٩، حيث واجه الاتهام بمحاولة سحب الحركة إلى موقع التحالف مع الكتلة الاشتراكية بزعامة الاتحاد السوفيتى السابق حينذاك، فى إطار المفهوم الذى أطلق عليه كاسترو حينذاك تعبير «التحالف الطبيعى والاستراتيجى».

وعندما انتخب «جيمى كارتر» رئيساً للولايات المتحدة عام ١٩٧٦ حدث تغير ما فى التوجه الأمريكى إزاء كوبا، حيث لم يكن الرئيس الجديد يشعر بالأحقاد المتوارثة لدى الإدارات السابقة تجاه كوبا. فرفع كارتر الحظر المفروض على سفر المواطنين الأمريكيين إلى كوبا، وأعرب عن عدم تأييده لاستمرار العقوبات المفروضة ضد كوبا، خاصة فيما يتعلق بالمواد الغذائية والدواء. كذلك أعاد فتح السفارة الأمريكية فى هافانا وعين بها دبلوماسياً أمريكياً، دون أن يعيد العلاقات الدبلوماسية مع كوبا. وقد التقى هذا الدبلوماسى الأمريكى مع كاسترو بناء على استدعاء من الأخير، واتصف الحديث بينهما بالطابع العملى وبالدعوة لتجنب الصدام بين البلدين وقيادتهما.

إلا أنه فى عام ١٩٨٠ حدث أمر كانت له انعكاسات سلبية على ما تحقق على صعيد العلاقات الأمريكية الكوبية. فقد تسلل كوبيون يطلبون الخروج من كوبا واللجوء خارجها إلى داخل السفارة البيروانية فى هافانا، وعندما أبدى كارتر تعاطفه مع طالبى اللجوء المحتمين بالسفارة، ثارت ثائرة كاسترو. إلا أن كاسترو قرر فجأة فتح الباب لمن يريد من الكوبيين مغادرة بلادهم، ونعت هؤلاء، مرة أخرى، بـ «الديدان». وبالفعل غادر ١٢٥ ألفاً من الكوبيين على متن سفن إلى الولايات المتحدة. ولكن هذا العدد كان أكبر من قدرات الولايات المتحدة وطاقاتها الاستيعابية، فاضطرت لإسكان اللاجئين الكوبيين فى مخيمات لفترات طويلة. كذلك قررت واشنطون إرسال سفنها الحربية لوقف مسيرة السفن القادمة من كوبا والحاملة للمزيد من اللاجئين الكوبيين، بل وذهبت الإدارة الأمريكية أبعد من ذلك واتهمت حكومة كاسترو بوضع المساجين على ذمة جرائم جنائية والمرضى العقليين على متن هذه السفن.

وفى عقد التسعينيات، جاء التحدى لكاسترو مع سقوط الحليف السوفيتى، ومر الاقتصاد الكوبى بسنوات صعبة للغاية، ولكنه نجح فى تجاوز عدد من الصعوبات، وذلك بفضل تطوير قطاع السياحة ثم التعاون مع فنزويلا الثرية من عوائد النفط والطامحة للعب دور ثورى إقليمى وعالمى فى عهد الرئيس «هوجو تشافيز»، وذلك ضمن عوامل أخرى. وفى منتصف عقد التسعينيات من القرن العشرين غادر ٤٠ ألفاً من الكوبيين بلادهم محاولين الوصول إلى الولايات المتحدة وغرق منهم الآلاف فى الطريق.

وعلى الصعيد الداخلى، سيظل يذكر لكاسترو ونظامه إنجازين: القضاء التام على الأمية وإقامة نظام للرعاية الصحية يعتبره كثيرون هو الأفضل فى العالم. وبالمقابل، فالبعض يشير لتراجع الحريات السياسية فى عهد كاسترو وانتقادهم لكاسترو باعتباره «مستبداً رافضاً للمشورة والديمقراطية».

وعلى الصعيد الخارجى، ينتشر الإعجاب، ولا جدل، بفيدل كاسترو داخل كوبا وخارجها لنجاحه فى مواجهة الولايات المتحدة والتصدى لها بنجاح عبر حوالى خمسة عقود، مما جسد معركة كرامة للشعب الكوبى ولكافة شعوب أمريكا اللاتينية بل ولكل شعوب العالم الثالث، وتحول إلى أسطورة. لقد غير فيدل كاسترو من أحوال بلد وفكر قارة وعالم بأسره مما سيجعله يستمر محلاً للتقدير والإعجاب من أنصاره وخصومه على حد سواء.

هذا عن سنوات صعود كاسترو ومجده، ولكن ماذا عن الظروف الصحية التى دفعته فى نهاية الأمر إلى ترك الرئاسة لمرشح آخر انتهى الأمر بكونه شقيقه «راؤول»؟

فى عام ٢٠٠٠ فقد فيدل كاسترو الوعى خلال خطاب كان يلقيه، وعقب ذلك بأربع سنوات فقد توازنه ووقع بينما كان يخطو لإلقاء خطاب له. وفى يوليو ٢٠٠٦ أصيب كاسترو بمرض معوى، وكان هذا المرض على ما يبدو هو الذى أدت تطوراته إلى اعتزال تدريجى لذلك الزعيم الأسطورى للعمل السياسى المباشر، واستكمال مذكراته التى نعرض اليوم لترجمتها الانجليزية.

والآن ننتقل إلى المذكرات ذاتها بعد أن عرضنا لبانوراما موجزة لأهم المحطات فى تاريخ كوبا تحت حكم فيدل كاسترو.

تمثل قراءة مذكرات كاسترو متعة متناهية لا حدود لها، وذلك بالرغم من الاستطراد فى بعض الأجزاء، وهو أمر معتاد من كاسترو، حيث كان هذا هو أسلوبه دائماً فى خطبه الجماهيرية أو السياسية المسهبة، كما أن كاسترو كان يعود فى النهاية إلى النقطة التى تفرع منها وبالتالى يحافظ فى نهاية الأمر، وبالرغم من الإطالة، على وحدة الموضوع. كما يعود كاسترو فى مذكراته إلى موضوعات سبق أن طرحها فى مواضع سابقة من المذكرات ويحاول ربطها بموضوعات مستجدة يطرحها لأول مرة. كذلك يشير لكتابه الأول «سيبرنى

التاريخ، الذى احتوى على نص مرافعته عن نفسه ورفاقه أمام المحكمة التى تشكلت لمحاكمتهم عقب محاولة الثورة الفاشلة عام ١٩٥٤ عبر الاستيلاء على ثكنات «مونكادا» والتى يتناولها بالتفصيل فى كتابه.

ولا يبدأ كاسترو فى سرد مذكراته بدءاً بميلاده أو بسنواته الأولى فى الحياة، وإنما يبدأ من قبل ذلك، وتحديداً تاريخ أسرتى والديه ونشأة والديه وظروفهما الطبقية وتطوراتها. وبالرغم من أن كاسترو يحرص طوال مذكراته على إيصال رسالة للقارئ بأنه متمرد منذ نعومة أظافره: فى البيت والمدرسة والجامعة والمجتمع والدولة وأمريكا اللاتينية بل والعالم بأسره؛ فإننا نلمس ما بين السطور حباً واحتراماً لوالديه وتقديراً لكفاحهما فى الحياة بشكل عام وما بذلاه من جهد - خاصة أمه - فى تربية أبنائهما، مع الإقرار باختلافه بل تناقضه مع المعتقدات السياسية لوالده مقابل اعتباره لأمه كـ«أم للثورة والثوار» على حد قوله.

كذلك يقدم لنا كاسترو فى مذكراته رؤية شاملة لتاريخ أمريكا اللاتينية وتطوره، خاصة ما يسميه بالحرب من أجل الاستقلال والتى يعيد جذورها إلى القرن الثامن عشر. ولا يفصل كاسترو بين تاريخ كوبا والإطار العام للتطور التاريخى لأمريكا اللاتينية، سواء فيما يتعلق بالنضال من أجل الاستقلال أو تطور التكوين الطبقى للمجتمع، خاصة فيما يتعلق بالحرب ضد العبودية وصولاً لإلغائها. ويبلغ تأثير هذا البعد التاريخى فى التكوين الفكرى لكاسترو حد إطلاقه اسم «عملية كارلوتا» على الدعم العسكرى الكوبى لأنجولا بدءاً من عام ١٩٧٥، وذلك فى سياق تمجيد ثورات العبيد الأولى فى مزارع قصب السكر فى كوبا، حيث كانت «كارلوتا» هى إحدى الإماء اللاتى قدن ثورة ضد العبودية عام ١٨٤٣، ودفعت حياتها ثمناً لمشاركتها فى النضال الثورى. ولا تنفى مذكرات كاسترو الارتباط بين هذه التطورات فى أمريكا اللاتينية وبين ما كان يجرى لدى الجار الأكبر، الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه يضع هذا الارتباط فى واحد من سياقين: إما باعتبار الولايات المتحدة قوة لها توجهات استعمارية تسعى لضم كوبا وإلحاقها بأراضيها، أو فى سياق ما يسميه كاسترو بـ«البعد الأممى» لتطورات أمريكا اللاتينية والتى لم تقتصر تاريخياً على الولايات المتحدة بل اتصلت بأطراف أخرى مثل إسبانيا بالطبع، وفرنسا وبريطانيا وغيرهما. كما نلمس ضمنياً فى هذا الجزء التاريخى المكون الإسبانى فى فكر كاسترو، عندما يشير إلى ما أسماه «نضال الإسبان لثمانية قرون ضد المحتلين العرب»!

ونلحظ فى مذكرات كاسترو انتماء لا تخطئه العين للقارة الأمريكية اللاتينية، يذكره كاسترو فى كل موضع بكل فخر ويمتد تاريخياً إلى عقد الأربعينيات من القرن العشرين. وتضمن هذا الدور فى الأربعينيات المشاركة فى حملة بجمهورية الدومينيكان لإسقاط حكم الديكتاتور «تروخيللو»، والتنسيق مع الطلاب البنميين لإنهاء الوجود الأمريكى فى قناة بنما، والعمل مع الأرجنتينيين لاستعادة جزر «المالفين» (الفوكلاند) الواقعة تحت السيطرة البريطانية، وأخيراً وجود كاسترو فى بوجوتا عاصمة كولومبيا للمشاركة فى قيادة الانتفاضة الشعبية هناك يوم ٩ أبريل ١٩٤٨ بعد اغتيال الزعيم الشعبى الكولومبى «خورجى اليسير جايتان». ويستمر دور كاسترو الفاعل فى القارة اللاتينية وصولاً إلى الألفية الثالثة حيث وقع مع الدول الأعضاء فى تجمع «الميركوسور» - الذى يضم دولاً بحجم البرازيل والأرجنتين - اتفاقاً تجارياً هاماً فى قمة دول التجمع التى انعقدت فى مدينة «قرطبة» بالأرجنتين، ثم الاتصالات المكثفة التى قام بها مع قادة الجيش الموالين للرئيس الفنزويلى «هوجو تشافيز» خلال محاولة الانقلاب العسكرى التى دارت ضده فى ١١ أبريل من عام ٢٠٠٢، وهى اتصالات لعبت دوراً حاسماً فى إفشال الانقلاب، ثم صعود قوى اليسار إلى الحكم عبر صناديق الاقتراع فى العديد من دول أمريكا اللاتينية منذ مطلع الألفية الثالثة نتيجة فشل سياسات الليبرالية الجديدة التى اتبعت فى عقد التسعينيات من القرن العشرين ممثلة فى تبنى الخصخصة المتسارعة وانتشار الفساد والإفقار للطبقات الوسطى والنهب للموارد الوطنية. ويكرس كاسترو فصلاً كاملاً فى كتابه عن أمريكا اللاتينية. وتتراوح دوافع كاسترو فى الاهتمام بأمريكا اللاتينية بين ما يسميه دوافع أممية متصلة بعالمية المعركة ضد الإمبريالية من جهة وإحساسه بالانتماء إلى هوية أمريكية لاتينية تتمثل فى تقديره للزعامات الوطنية التاريخية للقارة على اختلاف هوياتها الأيديولوجية، وفى مقدمتها بالطبع سيمون بوليفار، من جهة أخرى. ويتناول فى هذا الفصل آراءه بشأن العلاقة بين



مضت أمريكا
فى تنفيذ تهديداتها،
ففرضت حصارا
عسكرياً على كوبا وبدأ
العالم يستعد
لمشهد الحرب. إلا أن
خروتشوف
أبدى ليناً ومرونة

المؤسسة العسكرية وتبنى توجهات تقدمية، خاصة فى الحالة الفنزويلية الراهنة، وكذلك يعرض لمواقفه من «البيرونية» فكراً وتجربة فى الأرجنتين، وتجاه مسألة السكان الأصليين. خاصة عندما تتداخل حركة هؤلاء مع حركة اليسار، كما فى الحالة البوليفية، وكذا رؤيته لطبيعة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية ودولها، وأخيراً نظرته لدور الكفاح المسلح فى القارة الآن بعد أن وصلت أحزاب اليسار إلى الحكم فى عدد هام من دول القارة عبر صناديق الاقتراع فى إطار نظم سياسية تعددية. ولكن بقى غائباً عن هذا الفصل الخاص بأمريكا اللاتينية أى إشارة تفصيلية للعلاقة بين كوبا وثورة «الساندينيستا» اليسارية فى نيكاراجوا عام ١٩٧٩ حتى سقوط نظامها عقب انتهاء الحرب الباردة بفترة وجيزة، ثم عودة الجبهة بزعامة «دانيال أورتيجا» إلى السلطة بعد عقد ونصف من إقصائها عبر انتخابات ديمقراطية. وربما يرجع هذا التجاهل إلى عدم رغبة كاسترو فى ذكر هذه العلاقة نظراً لانتهاء تجربة «الساندينيستا» الأولى بالفشل.

ونلمس فى كل صفحة من صفحات مذكرات الزعيم الكوبى والأممى فيدل كاسترو إيماناً راسخاً بالماركسية اللينينية واقتناعاً ثابتاً لم يؤثر فيه لا عامل الزمن ولا الأحداث التى مر بها العالم، خاصة منذ انهيار الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى السابق ودول شرق ووسط أوروبا: بأن سبب كوارث البشر يكمن فى الرأسمالية كنظام وما تفرزه من منظومة قيمية وعلاقات اجتماعية تنتج عن نمط إنتاج يرتكز على استغلال فائض قيمة البشر واستمرار تدهور الأوضاع المعيشية للفئات الكادحة. ولكن إيمان كاسترو كما يتبدى عبر الكتاب لا يقتصر على الماركسية وحدها بل يمتد ليشمل ما يسميه بقيم وطنية تعلمها من قيادات تاريخية لحركة التحرر الوطنى الكوبى، وفى مقدمتهم «خوزيه مارتى» ومن أتوا من بعده، ويعتبر نفسه الوريث الطبيعى لهذا التسلسل الطويل من النضال الوطنى الكوبى مع تنوع فى الأيديولوجيا وفى إستراتيجية العمل الوطنى. كما نرى فى مذكرات كاسترو ارتباطه منذ الصغر بما يسميه قيماً أخلاقية، بعضها ينسبها كاسترو أيضاً إلى «خوزيه مارتى»، وبعضها الآخر يمر باكتسابها عبر علاقات مبكرة مع حزب الشعب الكوبى الذى أسسه «إدواردو شيباس»، وتشمل هذه القيم الأخلاقية العدالة والنزاهة والمساواة والأمانة ورفض الفساد وغيرها، وكلها قيم يرى كاسترو أنها تكاملت لديه مع القيم التى اكتسبها بعد اعتناقه الماركسية اللينينية.

ونعود إلى ما ذكرناه فى الفقرة السابقة عن تمسك كاسترو بالماركسية بالرغم من انهيارها فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا، فكاسترو لا يتردد فى مذكراته فى توجيه الانتقادات الحادة إلى التجربة السوفيتية، مع إبرازه بوضوح أن هذه الانتقادات لا تقلل من شأن أهمية الدور الذى لعبه الاتحاد السوفيتى السابق سواء على صعيد «الإنجازات» لشعبه أو على الصعيد الدولى لصالح الدول الصغيرة والضعيفة التى وصفها كاسترو بـ«اليتم» بدون الاتحاد السوفيتى، كما أنها لم تمس إيمان كاسترو المطلق بصحة النظرية الماركسية اللينينية وجدواها. أما بخصوص الدول التى كانت

تتبنى النظام الشيوعي في شرق ووسط أوروبا، فإن كاسترو لا يتردد في الإشارة بصراحة إلى أن الشيوعية في هذه الدول كانت مفروضة عليها من الخارج، في إشارة للاتحاد السوفيتي السابق، مما سهل من تحولها ١٨٠ درجة بين عشية وضحاها مع رفع الغطاء السوفيتي عنها، ويرفض كاسترو أي مقارنة بين هذه الدول وبين حالة كوبا التي يرى أن الشعب الكوبي هو الذي اختار طريق الاشتراكية بدون ضغوط من أحد، بل وبالرغم من ضغوط عاتية في الاتجاه المعاكس.

وتحتوي مذكرات كاسترو على العديد من الإشارات الصريحة إلى مواقف حدث فيها خلاف حاد بين كوبا الثورة والاتحاد السوفيتي السابق، ومنها على سبيل المثال رغبة كوبا، عقب تحقيق الانتصار على القوات الجنوب أفريقية والزائيرية الغازية في أنجولا عام ١٩٧٦، في مواصلة القتال داخل ناميبيا التي كانت تحتلها حينذاك قوات نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا وإجبار ذلك النظام على الجلاء عن ناميبيا ومنحها الاستقلال، مقابل «ضغوط ثقيلة» - بحسب وصف كاسترو - مارستها القيادة السوفيتية على كوبا لوقف العمليات العسكرية بعد تحرير أنجولا، وذلك تخوفاً من ردود فعل غاضبة وعنيفة من الولايات المتحدة الأمريكية. ويقر كاسترو أنه خضع في نهاية المطاف لهذه الضغوط لأن الاتحاد السوفيتي هو الذي كان يقدم الدعم السياسي والعسكري (الأسلحة) واللوجستي للقوات الكوبية في أنجولا، بالرغم من أن كوبا لم تستشر الاتحاد السوفيتي في المقام الأول بشأن قرار إرسال القوات الكوبية إلى أنجولا قبل اتخاذه. كما يشير كاسترو إلى خلاف مفاهيمي بشأن فكرة «الحرب» في حد ذاتها بين الكوبيين والسوفييت، نظراً لتباين الخبرة التاريخية بين الطرفين. فالسوفييت يتحدثون عن الحروب النظامية الضخمة، بينما بالنسبة للكوبيين فالحرب هي بالطبيعة والضرورة غير متكافئة، ولذا يجب أن تكون حرباً غير نظامية، أو بتعبير آخر حرب عصابات. وقد أفرز ذلك تبايناً في الاستراتيجية والتكتيك بين الطرفين، خاصة في الحرب في أنجولا عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦، بل إن الضغوط السوفيتية وصلت إلى حد دفع الكوبيين لإجراء تخفيضات



عهد كاسترو إلى «تشي جيفارا» بالمسئولية عن الاقتصاد الكوبي، فقام «تشي» بتمجيد العمل التطوعي، وكان يعتقد أن خلاص العالم يكمن في الكتلة الشيوعية

تدريجية على قواتهم في أنجولا، بالرغم مما يؤكده كاسترو من عدم اقتناعه بإجراء هذه التخفيضات.

وفي نفس السياق، أي اتصالاً بموقف كاسترو بالماركسية، وبالرغم منه، يلفت النظر حرص كاسترو في مواضع عديدة بالكتاب، بشكل مباشر أحياناً وبشكل غير مباشر في أغلب الأحوال، على إيضاح أنه لا يحمل ضغينة تجاه الأديان في حد ذاتها أو اتباعها، ولكن المعيار لديه هو موقف رجال الدين، والمتدينين بشكل عام، تجاه كل من المسألة الوطنية والمسألة الاجتماعية. فبدءاً من دعم بعض الرهبان المسيحيين للجمهوريين خلال الحرب الأهلية الإسبانية في ثلاثينيات القرن العشرين، ومروراً بتضامن رجال دين مسيحيين محليين مع الثورة في كوبا وإطلاق رجال دين في أمريكا اللاتينية للاهوت التحرير في سبعينيات القرن المنصرم لتوفير الغطاء الديني للنضال ضد الظلم الاجتماعي في القارة، وانتهاء بالإشادة بمواقف بابا الفاتيكان الراحل يوحنا بولس الثاني، الذي يصفه كاسترو بأنه كانت له مواقف شجاعة. ولا يفوت المرء هنا أن يذكر أن البابا الراحل سبق أن زار كوبا خلال حياته والتقى بكاسترو، كما يذكر أن البابا الراحل تبنى موقفاً واضحاً إزاء إعلان رفضه للعقوبات الأمريكية أحادية الجانب المفروضة على كوبا منذ مطلع الستينيات والتي تعززت في مطلع التسعينيات من القرن العشرين. وبالتالي، يمكن فهم إشادة كاسترو بالبابا الراحل، بالرغم من أنه من منظور أيديولوجي بحت كان من المفترض إدانة كاسترو للبابا للدور الذي لعبه في المساعدة على إسقاط الشيوعية في بولندا في ثمانينيات القرن العشرين، وهو الأمر الذي مثل الخطوة الأولى على طريق سقوط الشيوعية في شرق ووسط أوروبا وصولاً للاتحاد السوفيتي السابق ذاته. والعديد من مواقف كاسترو بشأن الدين تم التعرض لها بشكل أكثر تفصيلاً في حواره المطول مع رجل الدين الكاثوليكي «فراي بيتو»، والذي عمل لفترة مستشاراً لرئيس البرازيل اليساري «لولا»، وقد نشر هذا الحوار ككتاب وترجم إلى عدة لغات تحت عنوان «فيدل والدين» منذ سنوات.

وكما هو متوقع توجد إشارات مكثفة وتفصيلية في مذكرات كاسترو إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ليس فقط من منطلق العلاقات الأمريكية الكوبية وتطوراتها وتفاصيلها، ولكن من منطلق الاهتمام بالولايات المتحدة في حد ذاتها، سواء داخلياً أو على صعيد سياساتها في أمريكا الجنوبية والوسطى أو على مستوى السياسة الكونية للولايات المتحدة باعتبارها قوة عظمى. وقد عاصر كاسترو خلال رئاسته لكوبا عشرة رؤساء أمريكيين بدءاً بايزنهاور وانتهاء بجورج بوش الابن. ولكن اللافت أن كاسترو ليس معنياً بالسياسة فقط، وفيها تغلب بالطبع النظرة السلبية للسياسات الأمريكية في العالم بأسره وفي أمريكا اللاتينية وكوبا على وجه التحديد، بل يبدو اهتمامه بالمجتمع الأمريكي، وهنا يبدو أكثر تفاؤلاً بشأن الحاضر والمستقبل مقارنة بما كان عليه الحال في الماضي. فبينما يكرر كاسترو، طوال الكتاب وفي غير مناسبة، إدانته لما يعتبره «ثقافة المكارثية» التي سادت المجتمع الأمريكي عقب الحرب العالمية الثانية وأفزعت كل من كانت له توجهات تقدمية في الولايات المتحدة، بل وامتدت آثارها - من وجهة نظر كاسترو - إلى كافة أرجاء أمريكا اللاتينية حيث تم إخافة وعزل كل الأفراد والقوى التقدمية في القارة، فإنه، وبالمقابل، يعرب عن غبطته لكون غالبية قيادات الحركات الاجتماعية المناهضة للعولمة في طورها الحالي هم من الأمريكيين، وتحديداً من الشباب، الذين يعتبرهم كاسترو تقدميين، بل ويرى فيهم الامتداد المستقبلي والوريث الطبيعي لكل الحركات الثورية والتقدمية في العالم الجديد. ويبدي كاسترو إعجابه بتوظيف هؤلاء الشباب لمعطيات ثورة العلوم والتكنولوجيا لتطوير أساليب احتجاجية مبتكرة ولتعبئة الدعم الشعبي على النطاق العالمي لحركتهم. كما لا يفوت كاسترو أن يحيي هؤلاء على ابتعادهم عن العنف ويحضهم على الاستمرار على هذا النهج، مديناً اللجوء إلى العنف في موقف حاسم يحسب له بكل تأكيد.

كما حرص كاسترو في مذكراته، وفي إطار التفرقة بين معارضته لسياسات السلطة الحاكمة في واشنطون ومواقفه الودية إزاء الشعب الأمريكي، إلى تأكيد إدانته لاعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطون، موضحاً أن سياسات الإدارة والكونجرس الأمريكيين العدائية تجاه كوبا لا تقلل بأي حال من الأحوال من مشاعر الألم الشديد التي شعر بها الشعب الكوبي، وكاسترو شخصياً، تجاه ضحايا تلك الاعتداءات. ويبرز كاسترو أنه من السذاجة تحميل الشعب الأمريكي مسئولية ما يسميه بـ «مؤامرات» واشنطون ضد كاسترو والتي تراوحت ما بين محاولات اغتيال، ومحاولات انقلاب، وفرض حصار ومقاطعة، ومحاولات غزو، وتدريب لجماعات معارضة خارج كوبا وغير ذلك من مخططات تلخص هدفها في ثلاث كلمات: «التخلص من كاسترو». وفي الإطار الأشمل، يبرز الكتاب سجل واشنطون الطويل في دعم نظم الحكم الديكتاتورية في القارة اللاتينية، بل والتدخل المباشر عبر انقلابات عسكرية وتدخلات أمريكية لإسقاط نظم حكم يسارية منتخبة ديمقراطياً. وبالمقابل، لا يفوت فيدل كاسترو أن يذكر واقعة إعصار كاترينا الذي ضرب «نيو أورليانز» بالولايات المتحدة في أغسطس وسبتمبر من عام ٢٠٠٥، وعرض كوبا حينذاك إرسال ١٦١٠ أطباء والذي رفضته الإدارة الأمريكية بسبب «كبريائها» على حسب تفسير كاسترو، مما أدى إلى ترك آلاف الأمريكيين يموتون قبل أن تصل إليهم الإسعافات، ودائماً بحسب كاسترو. ولا

يترك كاسترو هذه الفرصة تفوت دون أن يعيد إلى الذاكرة ما فعلته الولايات المتحدة تجاه كوبا بعد ثورة ١٩٥٩ من حرمانها من نصف أطبائها. ثم يقارن بين الولايات المتحدة اليوم حيث الملايين من المهاجرين إليها ومن الأفريقيين الأمريكيين لا يقوون على سداد نفقاتهم للعلاج بينما في كوبا اليوم يحظى كل مواطن، بل وكل زائر، بتأمين صحي شامل ورعاية طبية على مستوى إنساني لائق، كما انخفضت معدلات الوفيات وارتفع متوسط العمر في كوبا حتى بات يقترب من ثمانين عاماً في المتوسط، وتحقق أقل معدل إصابة بالإيدز في العالم بأسره.

وإذا كان من غير المستغرب أن يكرس كاسترو في كتابه فصلاً عن إسبانيا، في ضوء الوشائج الحميمة والعرى غير القابلة للانفصام بين دول أمريكا اللاتينية - ومن بينها كوبا - وبين إسبانيا، سواء التاريخية أو الثقافية أو العرقية أو القومية أو اللغوية، وأخذاً في الاعتبار أن مئات الكوبيين تطوعوا خلال الحرب الأهلية الأسبانية ما بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٨ للقتال دفاعاً عن الجمهورية الإسبانية في مواجهة الفاشية، فإن تكريسه فصلاً لفرنسا يثير العديد من الأسئلة حول السبب في اختيار فرنسا بالذات لهذا التخصيص. ولكن التعجب ينتفي عندما نقلب صفحات هذا الفصل، بل نجده من أكثر الفصول إمتاعاً. وفي بداية الفصل مباشرة ندرك سبب تخصيص فصل في مذكرات فيدل كاسترو لفرنسا، حيث يعيد جذور التأثير الثقافي والفكري الفرنسي عليه إلى الفترة التي أرسله فيها والداه عندما كان صبياً للإقامة بغرض تلقي العلم في منزل مدرس في مدينة سنتياجو الكوبية بغرض الحصول على ما وصفه والداه بـ «تربية وتعليم فرنسيين». ويتحدث كاسترو عن تأثره بمفكرين فرنسيين، خاصة مفكري الثورة الفرنسية، ومؤرخين فرنسيين، خاصة المؤرخين اليساريين، كما يمتد حديثه ليشمل تأثره بالموسيقى والموسيقيين الفرنسيين بل وإعجابه بالنبيذ الفرنسي. ويبرز إعجاب كاسترو بعدد من الكتاب والروائيين الفرنسيين مثل «أونوريه دي بالزاك» و«رومان رولان» وغيرهما. كذلك يتذكر كاسترو بالعرفان دور اقتصاديين وزراعيين فرنسيين ساهموا في صياغة قانون الإصلاح الزراعي في كوبا. كما نوه بالدور الذي لعبه الفيلسوف الثوري الفرنسي «ريجي ديبريه» في حملة محو الأمية في كوبا في مطلع عقد الستينيات من القرن العشرين. ويشير كاسترو إلى صديقه الممثل الفرنسي «جيرار ديبارديو». ثم يكرس كاسترو إشارة خاصة إلى الفيلسوف الفرنسي الراحل «جان بول سارتر» مشيداً بموقفه الداعم للثورة الكوبية منذ زيارته لكوبا بصحبة الأديبة الفرنسية الراحلة «سيمون دي بوفوار» في بدايات الثورة الكوبية، وتحديداً عام ١٩٦٠.

ولم يكن غريباً أن يكرس الزعيم الكوبي فصلين في مذكراته لرفيق دربه وكفاحه وسلاحه الأسطورة الثورية في أمريكا اللاتينية، بل وفي العالم بأسره، «تشي جيفارا»، ليس فقط نظراً للصلة الشخصية الحميمة التي جمعت بينهما، أو للتماثل الأيديولوجي الذي ميز علاقتهما، وإنما لتأثير «تشي» ودوره في صياغة توجهات الثورة الكوبية، خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. فبخلاف ما كان شائعاً لفترة طويلة على أنه حقيقة مسلم بها من أن فيدل كاسترو لم يكن أصلاً ماركسياً، بل تبنى الشيوعية تحت تأثير «جيفارا»، وفي مرحلة تالية لنجاح الثورة الكوبية، فإن المذكرات التي بين أيدينا تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك وعلى لسان كاسترو نفسه أنه تبنى الماركسية في مرحلة مبكرة عندما كان طالباً في الجامعة وحتى قبل أن يتعرف على «جيفارا». وإن كان كاسترو قد فرق بين مرحلتين مر بهما في مسيرته الشيوعية، وهما ما أسماهما بمرحلة الطوباوية الشيوعية ثم مرحلة الواقعية الماركسية بعد قراءته التفصيلية والمتعمقة للكتابات الأساسية لكل من كارل ماركس وفلاديمير إليتش أوليانوف (لينين).

ومن جانب آخر، أقر كاسترو بأنه لم ينضم للحزب الشيوعي الكوبي قبل انتصار ثورته، وذلك بالرغم من تكرار تأكيده في مواضع عديدة على كل تقديره واحترامه لذلك الحزب ولدوره التاريخي في النضال الوطني والطبقي للشعب الكوبي وللشخصيات التي قادت هذا الحزب في مراحله المختلفة ونزاهتها. ولكن كاسترو برر ابتعاده عن صفوف الحزب الشيوعي الكوبي بعدة اعتبارات منها ما أسماه بعزلة الحزب عقب الحرب



نلحظ في مذكرات كاسترو انتماء لا تخطئه العين للقارة الأمريكية اللاتينية، يذكره كاسترو في كل موضع بكل فخر ويمتد تاريخياً إلى عقد الأربعينيات من القرن العشرين

العالمية الثانية نظراً لامتدادات «المكارثية» وتأثيراتها من الولايات المتحدة إلى فنائها الخلفي في بلدان أمريكا اللاتينية، بالإضافة إلى الاعتبار الأمني الخاص بخضوع الحزب وقياداته لرقابة أمنية لصيقة من جانب أجهزة نظام حكم الديكتاتور «باتيستا» - الذي أطاح كاسترو بحكمه في يناير ١٩٥٩ - خاصة لأن «باتيستا» كان يعرف الكثير عن الحزب الشيوعي الكوبي وقياداته وكوادره في ضوء وجود تحالف سياسي سابق بينهما في مرحلة تاريخية ماضية.

ولكن على الجانب الآخر يظهر بوضوح تأثير «تشي» على كاسترو في البعد الأممي لفكره وسياساته، خاصة تلك الخارجية. ومرة أخرى فبخلاف ما ساد من قناعة لدى البعض لفترة طويلة من أن «تشي» كان الأممي في الثورة الكوبية الداعي إلى عالمية الثورة التي لا تعرف حدوداً، باعتباره هو نفسه كان أرجنتينياً وليس كوبياً، في مقابل كاسترو الذي كان يعطي الأولوية للبعد الوطني أي مصلحة النظام الثوري الوليد في كوبا، أي ما يشبه المفارقة بين ستالين وتروتسكي في حالة الثورة البلشفية في روسيا ما بعد رحيل لينين. ولكن الكتاب الذي بين أيدينا يفند هذا الانطباع أيضاً، فنكتشف عبر صفحاته الدور الأممي لكاسترو، وتحديداً في عقد الأربعينيات من القرن الماضي، في دول أخرى في أمريكا اللاتينية كما ذكرنا في فقرة سابقة، كما نتبين الجذور الأيديولوجية الراسخة لتوجهات كاسترو الأممية تلك في المراحل اللاحقة، والتي جعلت من هذا التوجه قاسماً مشتركاً وعنصراً إضافياً للتقارب وليس للتنافر بين كاسترو وجيفارا. كما استمر هذا التوجه لاحقاً في فكر وممارسات كاسترو، حتى بعد سنوات على رحيل جيفارا، وهو ما يتبدى واضحاً في قرار كاسترو في السبعينيات من القرن الماضي بإرسال قوات كوبية إلى أثيوبيا وأنجولا للقيام بدور أممي هناك، أي لدعم نظام حكم جاء إلى الحكم عبر انقلاب عسكري ثم تبني الماركسية اللينينية في الحالة الأثيوبية، ودعم حركة تحرر وطني ماركسية جاءت إلى الحكم بعد جلاء المستعمر البرتغالي ثم واجهت تمرداً مسلحاً من حركة مناوئة مدعومة من الغرب في ذلك الوقت في الحالة الأنجولية. ويعتبر كاسترو في مذكراته أن الدور الأممي العسكري لكوبا خارج حدودها، وخاصة في أفريقيا في منتصف عقد السبعينيات من القرن العشرين، كان مفاجأة غير متوقعة للولايات المتحدة، وتحديداً لإدارة فورد الجمهورية، مما أصابها بالشلل والعجز عن التحرك لمواجهة الدور الكوبي في وقت مبكر قبل انتصاره في أنجولا بحلول نهاية مارس ١٩٧٦.

ولكن القناعة السائدة عن «التهور الثوري» لجيفارا مقابل «حكمة» كاسترو نرى أيضاً ما يثبت جزءاً من صحتها في عدة مواضع من المذكرات التي بين أيدينا. ومن أمثلة ذلك ما يذكره كاسترو عن الكلمة التي ألقاها جيفارا باسم كوبا في الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك في ١١ ديسمبر من عام ١٩٦٤ وهاجم فيها بشدة ما أسماه بـ «العدوان الأمريكي والبلجيكي ضد الكونغو كنشاسا» ودعوته لكل الأحرار في العالم بأن يكونوا مستعدين للثأر من الجرائم التي ترتكب في الكونغو، وذلك بالطبع في إشارة لاغتيال الزعيم الكونغولي «باتريس لومومبا» وما سبق

ذلك واعقبه من أحداث. ويكشف فيدل النقاب عن أنه مارس ضغوطاً عقب هذا الخطاب على «تشى» لتهدئته وحثه على الصبر، حتى تكون الأوضاع فى الكونغو مهيأة لـ «حرب تحرير». إلا أنه يبدو أن «تشى» لم يستمع لنصيحة رفيق دربه طويلاً، بل توجه فى نهاية ديسمبر ١٩٦٤ فى جولة أفريقية شملت تسع دول منها مصر (حيث التقى «تشى» بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر) والجزائر ومالى والكونغو كنشاسا وغينيا وغانا وداهومى (التى سميت فيما بعد فى سبعينيات القرن العشرين «بنين») وتنزانيا والكونغو برازفيل. والتقى «تشى» خلال هذه الجولة بالزعماء التاريخيين للقارة، وعاد بعدها إلى كوبا ولكن بعد أن بات أكثر اهتماماً بالأوضاع فى أفريقيا، ولكنه كان راغباً، بل ومتعجلاً، فى الذهاب للقتال فى بوليفيا. ومرة أخرى يحدثنا كاسترو فى مذكراته عن تدخله من جديد ليهدئ من حمية «تشى»، ولكن هذه المرة عبر حثه على التوجه لأفريقيا بدلاً من بوليفيا، بل واقترح عليه هذه المرة أن يصحب معه «مجموعة من الرفاق» الكوبيين للقتال بجانب الثوار فى الجزء الشرقى من الكونغو كنشاسا، وذلك هو ما تحقق بالفعل فى ٢٤ أبريل ١٩٦٥، وذلك فى مواجهة هجمات وحدات مرتزقة من ألمانيا وجنوب أفريقيا وروديسيا (التى سميت «زيمبابوى» بعد سقوط نظام الفصل العنصرى بها عام ١٩٨٠) كان يقودهم ضباط أمريكيون وبلجيك. وعقب ذلك بثلاثة أشهر طلب «تشى» إمدادات من فيدل حيث وافاه الأخير بـ ٢٥٠ مقاتلاً.

وكان للقارة الأفريقية نصيب فى مذكرات فيدل كاسترو، حيث سرد لها فصلاً كاملاً، تحدث فيه عن مئات الآلاف ممن أسماهم بالمناضلين الأمميين الكوبيين الذين ساعدوا الأفارقة فى النضال ضد الإمبريالية والنهب الغربيين، بالإضافة إلى الآلاف من الأطباء الكوبيين الذين كانوا ومازالوا يساعدون الشعوب الأفريقية - وغيرها من شعوب العالم الثالث - فى مواجهة الأمراض الفتاكة وفى مقدمتها الإيدز. ويلفت فيدل كاسترو الأنظار هنا إلى المقارنة بين هذا الإسهام الكوبى وبين ما يعتبره غياب أى جهد جاد من جانب الولايات المتحدة وأوروبا لمساعدة الأفارقة على مواجهة هذا التحدى الخطير للحياة والتنمية فى القارة السمراء. ويعود كاسترو بنا لنغوص فى التاريخ حيث يتتبع الدور الكوبى فى أفريقيا بدءاً



كاسترو لا يتردد فى مذكراته فى توجيه الانتقادات الحادة إلى التجربة السوفيتية، مع إبرازه بوضوح أن هذه الانتقادات لا تقلل من شأن أهمية الدور الذى لعبه الاتحاد السوفيتى السابق

من عام ١٩٦١ حين أرسلت كوبا سفناً ممتلئة بالسلاح إلى ثوار الجزائر خلال حرب التحرير الوطنية ثم عام ١٩٦٣ حيث قاتلت القوات الكوبية بجانب الجزائر فى حربها الحدودية مع المغرب، ووصولاً إلى القتال بجانب الحكومة الأنجولية فى مواجهة قوات متمردى «اليونيتا» المدعومة من قوات جنوب أفريقية لنظام الفصل العنصرى القائم حينذاك فى بريتوريا. وبين التاريخين هناك «مياه كثيرة جرت فى النهر»، كما كان يقول فلاسفة الاغريق، فستمائة مقاتل كوبى بالإضافة الى سبعين طبيباً ساعدوا فى نضال شعب غينيا بيساو من أجل الاستقلال عن البرتغال بقيادة «الحزب الأفريقى لاستقلال غينيا بيساو والرأس الأخضر» والذى كان يتزعمه المناضل والمفكر الثورى «أميلكار كابرال»، وذلك منذ عام ١٩٦٤ وحتى تحقق الاستقلال لغينيا بيساو فى سبتمبر عام ١٩٧٤ وللرأس الأخضر فى عام ١٩٧٥، وفى عام ١٩٦٥ بدأ الدعم الكوبى لثوار أنجولا المناضلين ضد الاستعمار البرتغالى وتدريبهم بواسطة مقاتلين كوبيين كانوا متواجدين فى الكونغو برازفيل فى ذلك الوقت. ويتناول فيدل كاسترو فى مذكراته ما يعتبره «مؤامرة» أمريكية حاولت تنفيذها كل من جنوب أفريقيا (فى ظل نظام الفصل العنصرى) ونظام «موبوتو سيسى سيكو» القائم حينذاك فى زائير (الكونغو كنشاسا فيما سبق والكونغو الديمقراطية الآن) بالتعاون مع «الاتحاد الوطنى للاستقلال الكامل لأنجولا (اليونيتا)» بزعامة «جوناس سافيمبى»، والذى كان يعمل على تعزيز التعصب القبلى والعرقى فى أنجولا، بحسب كاسترو، للسيطرة على أنجولا بعد استقلالها عن البرتغال عام ١٩٧٥ والقضاء على النظام الثورى القائم بها بزعامة جبهة «حركة التحرير الشعبية الأنجولية (مبلا)» بقيادة الزعيم الأنجولى الراحل «أوجستينو نيتو» المؤيدة من قبل الاتحاد السوفيتى السابق وكوبا، ويشير إلى مشاركة ٣٦ ألفاً من القوات الكوبية (القوات النظامية والميليشيا الثورية) فى إلحاق الهزيمة بهذه المؤامرة. ويتحدث كاسترو عن زيارته لأنجولا فى مارس ١٩٧٧.

وفى عام ١٩٨٧ حدث هجوم كبير من جنوب أفريقيا مدعوماً من الولايات المتحدة لحماية «سافيمبى» فى أنجولا واستنجدت حكومة لواندا بكوبا. وبالرغم من تحفظ الاتحاد السوفيتى على التدخل، فقد لبت القيادة الكوبية فى النهاية النداء الأنجولى، وأرسلت على عجل ٥٥ ألف ضابط وجندى بالإضافة إلى العتاد وطلبت من الزعيم الأنجولى «دوس سانتوس»، الذى خلف «أوجستينو نيتو» بعد وفاته، توحيد القيادة فى يد الكوبيين، سواء للقوات الكوبية أو الأنجولية الحكومية أو مقاتلى «منظمة شعب جنوب غرب أفريقيا (سوابو)» التى كانت تناضل ضد الاحتلال الجنوب أفريقى لناميبيا. وانتهى الأمر بمفاوضات تحت راية الأمم المتحدة فى نيويورك بمشاركة حكومات كوبا وأنجولا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، والتى أفضت إلى اتفاق ديسمبر ١٩٨٨ الذى وضع جدولاً زمنياً لانسحاب القوات الكوبية من أنجولا على فترة ثلاث سنوات وضمان استقلال أنجولا وسلامة ووحدة أراضيها وتحقيق مصالحة وطنية بها بين الحكومة وحركة اليونيتا المتمردة.

ولا يفوت كاسترو فى هذا السياق اتهام الولايات المتحدة صراحة بنقل ثمانى قنابل نووية لجنوب أفريقيا، وتأكيد الدور الذى مثله الوجود العسكرى الكوبى فى أنجولا من دعم لنضال شعبى جنوب أفريقيا وزيمبابوى ضد نظامى الفصل العنصرى بهما وكذا نضال الشعب الناميبى ضد الاحتلال الجنوب الأفريقى. ومرة أخرى لا يفوت كاسترو إدانة محاولات الولايات المتحدة للقيام بما يسميه «تزييف التاريخ» من خلال السعى الحثيث لإغفال أى دور لكوبا فى تحرير أنجولا وغيرها من البلدان الأفريقية وكذلك تجاهل دعم الولايات المتحدة لحركة اليونيتا ومسئوليتها بالتالى عن مصرع مئات الآلاف من الأنجوليين خلال سنوات الحرب الأهلية الطويلة فى أنجولا، بل يذهب إلى حد اتهام الشركات الأمريكية اليوم بنهب ثروات أنجولا من الموارد الطبيعية، خاصة النفط، مقابل كوبا التى يرى أنها دعمت شعوب أفريقيا وضحت بأبنائها فى كوبا وغيرها ولم تأخذ من القارة سوى رفات ألفين وسبعة وسبعين من مناضليها الذين قضوا وهم يناضلون من أجل استقلال دول أفريقيا. ونلحظ تجاهل كاسترو الإشارة فى المذكرات إلى الدعم العسكرى الكوبى لإثيوبيا فى عهد «منجستو هايلا ميريام» بعد انقلابه عام ١٩٧٧، ربما لسوء سمعة نظام منجستو وما تكشف لاحقاً بعد سقوط نظام منجستو عام ١٩٩١ من جرائم ارتكبها هذا النظام.

ويوجه فيدل كاسترو أصابع الاتهام إلى إسرائيل فى عدة مواضع بمذكراته باعتبارها لعبت دور الوسيط فى العديد من العمليات الأمريكية الموجهة ضد كوبا، وينعت كاسترو إسرائيل بأنها «الداعم الأبدى» للحصار الأمريكى الأحادى المفروض على كوبا، ويدين الصمت الدولى تجاه الترسانة النووية الإسرائيلية، متهماً واشنطون وتل أبيب بالسعى لاحتكار دورة الوقود النووى حتى تتمكن الدولتان من احتكار الطاقة النووية عندما تنضب مصادر الطاقة من النفط الخام والغاز الطبيعى لدى الدول المنتجة لهما.

ونلحظ اطلاع كاسترو المستمر على الأوضاع الدولية وتطوراتها وربطه بين أحداث الماضى والحاضر وفق رؤية

واضحة وأفق واسع ومنهج متسق مع نفسه، سواء اتفقنا معه أو اختلفنا. ومن أمثلة ذلك حديثه في مذكراته عن أزمة الملف النووي الإيراني؛ وبالطبع يأتي حديثه عن هذا الموضوع في البداية في سياق إدانته للولايات المتحدة وسياستها لإعاقة إيران من إنتاج الوقود النووي، ويذهب إلى حد اتهام الولايات المتحدة بالسعي لوضع إيران في موقف يضطرها لاستنزاف مخزونها من النفط والغاز الطبيعي. ويرى فيدل أن لإيران كل الحق والمبررات والمنطق الوجيه لإنتاج الطاقة الكهربائية من الوقود النووي. ويقارن كاسترو بين الجهود الأمريكية والغربية للحيلولة دون حصول إيران على حق السيطرة على دورة الوقود النووي، مقابل السماح لدول غربية وأخرى حليفة للتحالف الغربي، مثل فرنسا واليابان وكندا وكوريا الجنوبية؛ بممارسة هذا الحق منذ سنوات وتنتج معظم طاقتها الكهربائية من الوقود النووي. ويجد كاسترو المبرر لإيران في طلبها في أن تلقى معاملة مماثلة، أو على الأقل غير مختلفة؛ عن تلك الدول الأخرى؛ أي أن تمارس ببساطة حقها في إنتاج جزء كبير من طاقتها الكهربائية من الوقود النووي بدلاً من الاندفاع نحو نضوب تدريجي لمواردها من النفط والغاز الطبيعي.

ويجب أن نذكر قبل الختام أنه عندما تحدث كاسترو عن نضاله ورفاقه في جبال «سييرا مايسترا» عام ١٩٥٦، فإننا لا ننسى أن نشير إلى استقوائهم بانتصار مصر على العدوان الثلاثي في نفس العام ونجاحها بعد الحرب في الاحتفاظ بالسيادة على قناة السويس التي أممتها القيادة الثورية المصرية في العام نفسه، وإجلاء قوات المعتدين عن أراضيها. وقد حرص كاسترو على أن يذكر ذلك بنفسه للرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر عندما التقاه على هامش أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك في سبتمبر ١٩٦٠.

وفي الختام نقول إن الولايات المتحدة الأمريكية والمهاجرين الكوبيين بها بشروا لعقود بأن اللحظة التي يختفي فيها كاسترو عن الحياة السياسية في كوبا ستكون اللحظة التي سيكون لهم فيها سلطة إعادة صياغة الحياة في كوبا. فقد تصور هؤلاء أنه بدون كاسترو سيهب شعب الدولة الجزيرة للمطالبة بالتغيير السريع وسيطيحون بنظام فيدل الثوري ورموزه ومؤسساته ويدعون الجار القوي في الشمال - أي الولايات المتحدة الأمريكية - إلى مد يد العون لتحويل كوبا إلى «جنة الديمقراطية الليبرالية والسوق الحر». إلا أن تلك اللحظة أتت وذهبت ولم يحدث أي شيء مما بشر به هؤلاء، بل بدأت ترتيبات النظام السياسي الكوبي لفترة ما بعد كاسترو، وانتقلت القيادة بسلاسة ونجاح إلى قادة جدد ينتمون إلى مدرسة كاسترو، يسعون للحفاظ على نظامه وثورته مع مواصلة إصلاحات تدريجية بدأها هو ذاته منذ سنوات. ولم يثر الكوبيون، بل استمرت هويتهم الوطنية مرتبطة بالدفاع عن وطنهم وسيادته أمام التدخلات والاعتداءات الأمريكية.

وعن هذا يقول فيدل كاسترو في مذكراته أن كافة الكوبيين ملتزمون بمواصلة المقاومة والقتال للدفاع عن ثورتهم والعدالة والتضامن الأممي. ولتحقيق التقدم لشعبهم عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، وهذا الأخير هو المجال الذي يقر كاسترو في مذكراته بأنه ما زال الأقل نجاحاً في مسيرة الثورة الكوبية حتى الآن، كما يراهن على الشعب الكوبي لإلحاق الهزيمة بما يسميه «العدوان الامبريالي»، والحصار الأمريكي المفروض عليهم من خلال تعلية شأن كرامتهم وتضامن شعوب وحكومات دول العالم معهم؛ بما في ذلك قطاعات متزايدة من الشعب الأمريكي؛ ولتعرية الحملات الأمريكية الدعائية «المضللة» ومناوراته «السياسية والدبلوماسية» «الشريرة». ولكن كاسترو يقر أيضاً بضرورة مواجهة كوبا لأخطائها وأوجه النقص في مسيرتها لتصحيحها.

وأياً كان موقف المرء من الزعيم الكوبي فيدل كاسترو، معه أو عليه، ومن دوره المحلي والإقليمي والدولي، السياسي والفكري والتنظيمي، وتأثيرات هذا الدور ومقدار استمرارها، فستبقى حقيقة أنه نجح في تسجيل نفسه ضمن عمالقة القرن العشرين في العالم بأسره، سواء لما قام به في كوبا أو لإسهاماته في العلاقات الدولية لفترة قاربت على نصف قرن. ولا جدال في أنه كلما ستذكر مفاهيم مثل «الماركسية»، «الاشتراكية»، «حرب العصابات»، «الثورة»، «حركة التحرر الوطني»، «الزعامة الكاريزمية»، «الأممية»؛ وغيرها من المفاهيم الأساسية في السياسة علماً وممارسة، فسيذكر اسم «فيدل كاسترو» بالضرورة مقترناً بما صاغه وقدمه على الصعيدين النظري والعملي في سياق هذه المفاهيم وغيرها. ■

كتاب الزاوية

في المدارسة والمطالعة

رفاعة الطهطاوي

الدراسة هي تمرين العقل على مطالعة عدة علوم أو علم واحد منها ولما كانت فضيلة التعلم والتعليم والقابلية لذلك مشتركة بين جميع الناس لا يستغني عنها إنسان وكان الاحتياج إليها ناشئًا من كراهة النفس للجهل الذي لا يمحوه إلا المواظبة على الاطلاع وكثرة الدراسة المستمرة التي يحصل بها التمكن من المعارف وكانت مدة الحياة قصيرة لا تكفي في الحصول على شطر له وقع من المعارف البشرية وجب على الإنسان أن يتشبث بالعلوم الضرورية له كما قال الشاعر:

ما حوى العلم جميعًا أحد ... لا ولو مارسه ألف سنه
إنما العلم عميق بحره ... فخذوا من كل شيء أحسنه

والأولى لطالب العلم أن يتشبث بما يلايم الفن الذي يتخذه له فنا يختص به، فدراسة العلم في حد ذاتها أفضل ما يشتغل به الإنسان وأحلى ما يصرف فيه أوقات حياته وأفضل لذات الدنيا، فلا سرور يوازي سرور العلم. والاشتغال به يحسن في جميع الأوقات وشتى الأعمار وفي جميع الأمكنة والبلدان لأن مطالعة الكتب لا يضيق منها صدر الإنسان في مدة عمره وفي مبادئ وأواخر أمره، لأنها تصلح حال الشبان وتنفع في حال الكهولة وتخفف الآلام وتفيد الصبر على نوائب الأيام حتى إن الإنسان المنهمك على القراءة لا يذوق طعم الفاقة وإن كان فقيرًا وإن كان غنيًا أغلت قيمة غناه وسعادته فما كأنها إلا غذاء الأشباح والأرواح في الإمساء والإصباح وهي لأهل المدن فكاهة ورفاهة ولأهل الريف مشغلة ونباهة.

نساء في حياة

الفضاء المدني لايمكن وصفه
إلا بأنه فضاء ذكوري مطلق لادور فيه يذكر للمرأة إلا في بعض النواحي الخيرية، التي ساهمت فيها بعض نساء الطبقة الحاكمة

** مازال التاريخ القروسطي العربي بقعة معتمة بعض الشيء على الرغم من الاهتمام الكبير بتحقيق مصادره المخطوطة خلال نصف القرن الماضي بحيث أنها أصبحت بغالبيتها متاحة في طبعات متعددة أحياناً. وعلى الرغم من ازدياد عدد الباحثين المتخصصين ازديادا مضطرداً خلال الفترة ذاتها ومقاربتهم لشتى المواضيع التاريخية بحثاً وتمحيصاً ومناقشة. ولهذا الغموض التاريخي أسباب، بعضها موضوعي، كسكوت المصادر عن بعض مناحي الحياة العامة والخاصة وغياب الدلائل المادية من مبنى وأداة وحلية أو لباس، وبعضها مقصود، أي أن العتمة تعتيم في الحقيقة، كإغفال المصادر لبعض مالم يعجب كاتبيها أو تحويرهم إياه ليتلاءم مع نظرتهم للأمور. أو كرفض الدارسين المحدثين التطرق لبعض المواضيع الخلافية والشائكة خوفاً أو تعففاً أو تزلفاً، وبعضها الآخر ثقافي - اجتماعي وسيكولوجي، أي أنه نتاج تضافر عوامل عدة منها المبتغى لغايات شتى، ومنها المادي، ومنها الخاضع لسياقات المجتمع المعرفية والأخلاقية. هذا النوع من العتمة هو الأصعب على التفسير والأجدر به في آن واحد لأن تحليله وإضاءة جوانبه لاتلقي ضوءاً جديداً على معرفتنا التاريخية وحسب، ولكنها أيضاً تسلط نورها على نوازعنا، كأفراد وكمجتمع، وعلى مقاربتنا للتاريخ وتفاعلنا معه في حياتنا المعاصرة سلباً وإيجاباً. حياة المرأة، نصف المجتمع وعموده ومبرر بقائه ووجوده، واحد من أهم وأخطر تلك المواضيع التاريخية المغيبة بشكل عام من الخطاب التاريخي العربي في العصور الوسطى، التي اصطلح - زوراً وبهتاناً برأيي - على تسميتها بعصور الانحطاط، والتي تمتد عموماً بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر. ففي هذه الفترة الطويلة حقاً لانجد أي صوت نسائي مستقل على الإطلاق، ماعدا ذلك الصوت المحاجج والرائع في عالم القصص: صوت شهرزاد التي لم تعادلها أية امرأة في البلاد، ولكن بلاد الخيال بالطبع، مما يزيد من رجاحة الرأي بأن غياب الصوت النسائي أو تغييبه في الواقع والأدب قد اضطره للهجرة إلى عالم الخيال. وهو قد وجد بعضاً من فضاء الحركة هناك في سير ألف ليلة وليلة وغيرها من قصص الخيال، خاصة الجنسية منها مثل سير «الألفية» تلك الجارية الماهرة في فنون الجنس والتي جربته مع ألف رجل بحيث استحقت ذلك اللقب الغريب والجارح بسخريته وشديد الدلالة بنظرته للمرأة.

والأمر نفسه يتكرر في مجال الحياة الاجتماعية: فالفضاء المدني لايمكن وصفه إلا بأنه فضاء ذكوري مطلق لادور فيه يذكر للمرأة إلا في بعض النواحي الخيرية، التي ساهمت فيها بعض نساء الطبقة الحاكمة ببعض ثرواتهن في دعم المؤسسة الدينية عن طريق إقامتهن لأوقاف خيرية للصرف على مدرسة أو زاوية أو خانقاه، غالباً من خلال وكيل ومن دون أن يظهرن على الملأ، أو في الزوايا التآمرية المعتمة، حيث نسمع همسات، حانقة وغاضبة ومنذرة، عن تدخل بعض نساء أو جواري الحكام في الحكم وتلاعبهن برجاله عن طريق دلعهن وسيطرتهن الجنسية عليهم. القليلات من نساء الحكام هن من أبدين اهتماماً بوضع المرأة في المجتمع بشكل عام فوجهن بعضاً من ثرواتهن باتجاه أخواتهن كإنشاء خانقاه للنساء من الصوفيات كما في حالة الست حدق، قهرمانة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والأميرة طغاي، زوجته وأم ولده الأثير أنوك.

هذا عن نساء الطبقات العليا، أما عن وجود المرأة العادية في المجتمع فنحن كثيراً مانطالع في المراجع التاريخية إدانة للنساء عموماً بسبب من استعدادهن للاستهتار والتبرج في كل مناسبة، مثل الأعياد والاحتفالات السلطانية بصعود عرش أو القضاء على منافس أو تدمير عدو. تطالعنا أحياناً أيضاً تحذيرات وتوعدات عن العلاقة بين الكوارث التي أصابت المجتمع، مثل الطواعين المتكررة أو الجدب أو الفيضانات أو الغزوات المغولية المدمرة، وبين فساد الأخلاق العامة الناتج من السماح بخروج النساء إلى المحلات العامة واختلاطهن بالرجال في المناسبات الاحتفالية اختلاطاً فاحشاً على رأي بعض مؤرخينا كابن إياس وابن الحاج المغربي المشهور بتزمته. وتبقى الشهادات الإيجابية بحق النساء عامة أو أية امرأة بذاتها قليلة، وهي في غالبيتها تنصب على التنويه بورعها وعبادتها أو صونها وعفافها وطاعتها لزوجها ومساعدتها للفقراء والمحتاجين. ومن النادر جداً أن نجد أي معلومات أخرى عن امرأة ما، مشهورة أم لا، ماعدا بعض الحالات الاستثنائية الخاصة بالزاهدات المتعبدات أو المحدثات اللواتي اشتهر بعضهن في القرون الوسطى، لعل أهمهن الدمشقية عائشة الباعونية (ت. ١٥١٦) المؤلفة العربية الوحيدة - على حد علمي - لكتاب ذي صبغة تاريخية دينية، وهو كتابها في مدح النبي «المورد الأهنى في المولد الأسنى»، الذي حققه ونشره فارس أحمد العلاوي ولؤي غنام، والتي مازلنا مع ذلك لانعرف الشيء الكثير عنها إلا مايمكننا أن نستقيه من معلومات عن دروسها والآخذين عنها.

ولايختلف الأمر كثيراً عندما ننظر إلى مجال الحياة الخاصة. فهنا أيضاً يندر أن نجد تمثيلاً وافياً لوجود المرأة في المضمار الوحيد الذي تمكنت فيه من الحركة بحرية نسبية، أي البيت. فعلى الرغم من رواج الكتابة التاريخية في القرون الوسطى، وبشكل خاص في الفترة المملوكية التي شهدت نهضة تأريخية لاسابق لها وظهر فيها المئات من المدونين والمؤرخين الذين غطوا في كتاباتهم شتى المواضيع السياسية والعسكرية والاجتماعية بل وحتى الثقافية، وحرروا آلاف الصفحات عن كل شاردة وواردة في حوادث مصر والشام خلال تلك الفترة، ودبجوا مئات الآلاف من السير الذاتية في كتب التراجم التي أرخت لكافة طبقات الفاعلين في المجتمع من أمراء وقضاة وعلماء وفقهاء ومحدثين وأدباء وشعراء وأطباء وحتى بخلاء وعميان ومغفلين، فنحن لانعثر إلا على القليل القليل من سير النساء كما في المجلد الوحيد والهزيل المخصص للنساء من كتاب شمس الدين السخاوي «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع». ولانجد أيضاً إلا القليل النادر من الإشارات لحياة الرجال المؤرخين العائلية، أو لأمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم وبناتهم وسراريهم في كتب التاريخ والسير. ولايطالعنا عموماً إلا بعض الملاحظات العابرة عن نمط سلوكهم في محيطهم العائلي، وأقل من ذلك عن علاقاتهم بالنساء في حياتهم وعواطفهم تجاههن. كيف نظروا إليهن؟ كيف فكروا فيهن؟ كيف عاملوهن؟ هل اعتبروهن رفيقات حياة؟ أو رأوهن ككيان أسروي منفصل لاعلاقة له بحياتهم إلا في شؤون الجنس ورعاية البيت والذرية والحفاظ على السمعة والشرف؟ أو بين هذا وذاك؟ هل أحبوهن أو كرهوهن؟ كيف عبروا عن ذلك الحب أو تلك الكراهية؟ تلك أسئلة تبقى معلقة من دون أجوبة في عموم الأحوال حتى عندما يطالع القارئ ذلك النوع الأدبي الحديث الذي ينتمي لأكثر مظاهر الذات خصوصية: السيرة الذاتية، التي ينتظر منها أن تتعاطى في بعض هذه الشؤون الخاصة والعائلية. وهي لاتفعل فيما عدا القليل منها الذي مازال يثير في أوساط القراء المعاصرين الكثير من الاستهجان كما حدث في حالة سيرة أدوارد سعيد الذاتية «خارج المكان»، التي هاجمها البعض بسبب ماوصفوه «بقلة الاحترام» التي عامل فيها سعيد ذكرى بعض أفراد أسرته: خصوصاً والده، أو كما حصل مؤخراً وإن بنطاق أضيق مع سيرة جلال أمين الذاتية «ماذا علمتني الحياة؟»، التي أثارت غضبة بعض القراء مما يبدو أنه «فضح» لقلة تدين والده ووالدته على الرغم من اشتهار الوالد: أحمد أمين، بكتاباته التاريخية الإسلامية.

من هذا المنطلق فإن أي سيرة لشخصية قروسطية تتعرض لبعض مظاهر علاقته بالنساء في حياته جديرة بالاهتمام والاحتفال لندرتها واختلافها عن المئات غيرها من السير التي تقتصر على النواحي المدنية والمهنية العامة والتي تقدم لنا صوراً باردة، محايدة، ووحيدة البعد لأصحابها. أما هذه السير غير العادية والنادرة، كسيرة الفارس الشيزري أسامة ابن منقذ، «كتاب الاعتبار»، وسيرة المؤرخ الدمشقي أبي شامة المعروفة «بالذيل على الروضتين»، واللتين تتطرقان للحياة الخاصة لكاتبيهما، فهي تضفي على كتابها أبعاداً إنسانية تجعلنا نشعر

المقريزي

ناصر الرباط

معهم، نتعاطف مع آلامهم، نسر لنجاحاتهم، ونحزن لمصائبهم على الرغم من بعد الزمن الذي يفصلنا عنهم. هذه السير تفتح لنا نوافذ على عقليات ومشاعر كانت ستبقى مجهولة تماماً بالنسبة لنا، بل وتسمح لنا - وربما كان هذا أهم ما فيها - بالتعرف بعض الشيء على علاقات أصحابها العائلية وبشكل خاص على صلاتهم بالنساء في حياتهم، وبالتالي بالولوج قليلاً إلى حياة النساء في العصور الوسطى. تلك البقعة المعتمة تماماً في معارفنا عن ذلك العصر.

سأعرض هنا لسيرة معبرة أخرى لعالم ومؤرخ من أكثر علماء العرب شهرة في العصر المملوكي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (١٣٦٤-١٤٤٢)، تلعب فيها النساء دوراً قل وجود مثيله في سير أخرى مشابهة من العصر نفسه. لا أظن أن أحداً ممن تعاطى في التاريخ القروسطي لبلاد الشام ومصر يجهل المقريزي أو يجهل قيمته: فهو صاحب المؤلفات التاريخية العديدة التي لعل أشهرها هو تاريخه لمدينته القاهرة «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، الذي أنا بصدد إنهاء كتاب عنه وعن أسبقيته في مجال التاريخ العمراني. وهو كذلك صوت متفرد ومتميز في تاريخ مصر وبلاد الشام، بل وفي التاريخ الإسلامي برمته، أثبت في كتاباته التاريخية أنه يمتلك حساً تاريخياً حقيقياً، مغايراً كل المغايرة للاجترار التدويني الذي طبع معظم انتاج معاصريه وسابقيه والكثير من تابعيه. لم يكتب المقريزي سيرة ذاتية بالمعنى الصريح للعبارة وإنما قدم نتفاً من حياته ضمن عرضه لسير حياة معاصريه في كتابه الصغير «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة»، على الأغلب تحرجاً وتعففاً - بعضه بحكم المهنة والعادة - عن التركيز على النفس. ولكنه مع ذلك خالف العادة في عصره وقدم لنا صوراً معبرة وحساسة عن بعض النساء المهمات في حياته اللواتي سطر سيرهن باختصار وبأسلوب حاول أن يجعله رصيناً ولكنه أتى يذوب رقة وحناناً. هذه الأمثلة، وإن كانت لا تكفي لتكوين صورة متكاملة عن النساء في عقلية علماء





العرب القروسطيين إلا أنها تضيء بعض الجوانب الإنسانية المؤثرة عن علاقة عالم ملتزم وحساس وشديد الإيمان بنساء أسرته.

فالمقريزي كان بحق نسيج وحده. فهو وإن ابتدأ حياته المهنية على نفس المنحى المعتاد عند معظم العلماء القروسطيين من التتلمذ لكبار علماء عصره والاستفادة من اتصالات عائلته والسعي لنيل الحظوة عند الأمراء وأصحاب الشأن، وقضى شطراً طويلاً من فتوته وهو يجالد في كواليسهم للوصول إلى منصب يرضاه، نجده فجأة ومن دون سبب واضح يقرر الكف عن التزلم للأكابر وينعزل في بيته العائلي في حارة برجوان في قلب قاهرة المعز وهو في عز الشباب وفورة النشاط وينصرف للمطالعة والكتابة والعبادات التي قاربت التصوف. ولاندري سبباً مباشراً لهذا القرار وإن كان يبدو حصيلة سنين من المعاناة من الصراعات المذهبية (أي بين أتباع المذاهب السنية الأربعة) والسياسية والمنفعية والتكالب على المناصب والفساد والرشاوى التي عايشها المقريزي عن قرب من خلال اتصاله بالسلطان برقوق وابنه فرج وبكبار رجال دولتيهما ومن بعدهما بالسلطان المؤيد شيخ الذي أدناه في بداية حكمه ثم أبعده من غير ما سبب واضح، ومن خلال المناصب التي شغلها خلال تلك الفترة وعلى رأسها وظيفة حسبة القاهرة التي احتلها ثلاث مرات (آذار - آب ١٣٩٩؛ كانون الثاني - نيسان ١٤٠٠؛ نيسان - أيار ١٤٠٥ والتي أتاحت له الفرصة لكي يشاهد بعينيه السوس الذي كان ينخر في بنية السلطة المملوكية والفساد الذي استشرى في مختلف طبقات المجتمع من عامة وحكام. وقد شحذت تجربة الحسبة قريحة المقريزي وأمدته بالخبرة اللازمة والمعلومات الوفيرة التي استعملها في تأليف كتيبيه المهمين: الأول، إغاثة الأمة بكشف الغمة، عن الضائقة الاقتصادية التي واجهت المجتمع المملوكي في بداية القرن الخامس عشر، والثاني، شذور العقود بذكر النقود، عن السياسة النقدية للدولة المملوكية، ليأتي من بعدهما كتابه الفريد عن الخطط وافيا وشاملاً في معلوماته العمرانية والاقتصادية والتاريخية.

وقد ظهرت أول أعراض القرف على هذا العالم الشديد الإيمان ونقيه عندما كان بصحبة السلطان فرج بن برقوق وحاشيته في دمشق بين ١٤٠٧ و ١٤١٢. فقد عرض السلطان عليه قضاءها مرارا وهو يرفض ولو أنه باشر بعضاً من الوظائف الصغيرة من تدريس وإدارة وقف. وبعد مقتل فرج وانتقال السلطة إلى السلطان المؤيد شيخ عام ١٤١٢، عاد المقريزي إلى القاهرة من دمشق وأعرض عن الوظائف وانقطع في داره عاكفاً على الخلوة والعبادة والتأليف، وتوقف عن التردد لأحد إلا فيما ندر. ولم يغادر القاهرة إلا مرتين على الغالب في أواخر حياته للحج والمجاورة في مكة إتماما لفروض دينه وانعكاساً لمتطلبات زهده المتنامي. ولما كان السلاطين بعد فرج قد أبعدوه من غير إحسان، على حد رأي ابن تغري بردي، تلميذه ومنافسه أحيانا، فقد أخذ هو، أي المقريزي، في ضبط مساوئهم وانتقاد سياساتهم نقداً عنيفاً، على أنه كان «ثقة في نفسه، ديناً، خيراً». وقد قيل لبعض الشعراء إلى متى تمدح وتهجو، فقال: «مادام المحسن يحسن والمسيء يسيء». هذا هو في الحقيقة لسان حال المقريزي الذي تمكن، بحكم إبعاده عن الدولة، من الجهر في كتاباته بما لم يقله غيره علانية حفاظا على المنصب والصلة، ومن تتبع أخطاء ومثالب وفساد الحكام في زمانه. وحاول من ضمن معطيات علمه وعقيدته تحليل مظاهر الفساد وتبيان نتائجها في تدهور الاقتصاد المملوكي وزيف العملة وتفسخ المجتمع وفي الخراب الذي حاق بعمران مصر والقاهرة بشكل خاص.

وقد قضى المقريزي النصف الثاني من حياته (من ١٤١٢ إلى ١٤٤٢) في عزلة نسبية بعيداً عن مواقع السلطة ومسيريها من سلاطين وأمراء وكتاب ووزراء. وكتب وصنف مجموعة من كتب الأخبار عن السلالات التي حكمت مصر الإسلامية وعن أهم رجالاتها، مجموعها سبعة، ابتدأها بكتاب صغير عن دخول العرب إلى مصر وترتيب قبائلهم سماه البيان والإعراب عمن دخل مصر من الأعراب، أتبعه بكتاب عن عاصمة مصر الإسلامية الأولى تحت عنوان، عقد جواهر الأسفاط في تاريخ مدينة الفسطاط، وهو للأسف مفقود اليوم، ثم كتابه المهم عن الفاطميين، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، المتعاطف مع هذه السلالة الحاكمة التي أدانتها العقلية السنية السائدة والذي يفصح عنوانه ومضمونه عن ميول المقريزي للفاطميين الذين كان يعتقد أنه من سلالتهم، وفي النهاية كتابه الكبير والمهم السلوك لمعرفة دول الملوك، الذي يعرض فيه حوادث العهدين الأيوبي والمملوكي بما فيها مشاهداته الشخصية حتى قبيل وفاته. ويبدو أن المقريزي قد اتبع الترتيب الزمني في تأليف هذه الكتب مع أنه شغل نفسه خلال نفس الفترة بتجميع كتيبات صغيرة عن مواضيع مختلفة، أغلبها تاريخي أو ترجمي (مجموعها ١٩ كتيباً، منها ١٢ منشورة وفقاً لمعلوماتي). وخلال هذه الفترة الطويلة كلها كان المقريزي مشغولاً على الدوام بكتابه المركزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الذي أخذ من جهده أكثر من أي من مؤلفاته الأخرى ومات دون أن يكمله كما أراد واشتهى. فهو على مايبدو من خلال التواريخ التي تظهر ضمن الكتاب مافتئ يزيد وينقح فيه منذ بداية تأليفه حوالي العام ١٤١٥ وحتى سنتين قبيل وفاته (١٤٤٠)، بل حتى يظهر أنه عدل في مخططه الأساسي ومنهجه مع مرور الزمن وتراكم المواد الأولية لديه من جهة، وتغير رأيه بالنظام المملوكي القائم من جهة أخرى، كما يظهر ذلك واضحاً من مقارنة المسودة التي نشرها أيمن فؤاد سيد والتي تمت كتابتها بين ١٤١٥ و١٤٢٠ على رأي ناشرها، مع المبيضة المنشورة والتي تعود افتراضاً إلى آخر تنقيح وإضافة أجراهما المقريزي على الكتاب قبيل وفاته وإن كان مازال غير كامل وفقاً لما وعد المقريزي به نفسه في ديباجة الكتاب. والأمر نفسه فيما يتعلق بكتاب التراجم الكبير، «المقفى الكبير»، الذي أراده على مايبدو جامعاً وحاوياً لتراجم كل من سكن مصر أو زارها أو مر بها من الشخصيات المهمة، ولكنه أيضاً توفي قبل أن يتمكن من إتمامه.

أما كتاب تراجم الشخصيات المعاصرة له «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة». وهو مايهمنا هنا. فهو على مايبدو مما يقوله في ديباجته قد ابتدأ بكتابته عندما بلغ الخمسين من العمر، أي حوالي عام ١٤١٥، بعدما لاحظ بأسى وحزن أنه يشيخ وأن العديد من أهله ومعارفه وأصحابه قد توفوا، فرغب بحفظ ذكراهم - لنفسه كما يقول - مما لعله يفسر اللهجة الصريحة والعاطفية في تراجم أولئك الذين أحبهم وأحبوه من معاصريه. واستمر المقريزي يزيد وينقح في الكتاب منذ بداية تأليفه وحتى قبيل وفاته كما يبدو من خلال التواريخ التي تظهر ضمن دفتيه. وقد نشر هذا الكتاب مؤخراً ثلاث مرات: في المرتين الأوليين في طبعتين من المخطوطة غير الكاملة (تحتوي على ٣٣٠ ترجمة من الأصل المقدر بـ٥٥٦ ترجمة، المحفوظة في مكتبة غوطا - مخطوطة ٢٧٠ عربية) نشرتا بفارق ثلاث سنوات بينهما من دون أي تبرير. الأولى بجزءين بتحقيق محمد كمال الدين عز الدين (بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٢) والثانية بجزءين أيضاً بتحقيق درويش ومصري (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥). ثم أتى محمود الجليلي، الذي عرف عنه امتلاكه للنسخة الوحيدة الكاملة والتي كان ضنيناً بها على الباحثين، ونشر الكتاب كاملاً في أربعة أجزاء (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢).

في هذا الكتاب الصغير والذي يبدو أقرب مايكون إلى المدونة الشخصية غير المكتملة، يفرد المقريزي لأمه ترجمة شيقة وغير عادية. يبدأ الترجمة بمكان وتاريخ ميلادها ووفاتها (القاهرة، ١٣٤٦–١٣٩٧) على الطريقة المتبعة في التراجم. ويخبرنا المقريزي أيضاً باسم أمه ونسبها، وهو تصرف نادر بين الطبقات المتزمتة أساساً: فهي أسماء بنت محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الصائغ الحنفي، أحد أشهر علماء الحنفية في عصره ومدرس المقريزي الأول. ويعطينا الابن لمحة عن حياة أمه، فهي قد تزوجت ثلاث مرات، الأولى عندما كانت طفلة في الثانية عشرة وزفت إلى رجل يدعى نجم الدين المهلبي فارقها فتزوجت بأبي

يبدأ الترجمة بمكان وتاريخ ميلادها ووفاتها على الطريقة المتبعة في التراجم. ويخبرنا المقريزي أيضاً باسم أمه ونسبها، وهو تصرف نادر بين الطبقات المتزمتة أساساً

نســـاء فــي حــيـــاة المقـــريـــزي



المقريزي، علي بن عبد القادر، عام ١٣٦٣ (أي عاماً واحداً قبل ولادة المقريزي). ثم مات على سنة ١٣٧٧ ليخلفه عليها آخر بعد وفاته يهمل المقريزي ذكر اسمه ولكنه يخبرنا بأنها أنجبت من زوجها الثالث ذاك ولداً بالإضافة إلى ولدين اثنين غير المقريزي، محمد وحسن، كانت أنجبتهما لعلي بن عبد القادر. وربما كان لإهمال ذكر المقريزي لاسم الزوج الثالث دلالة ما، ولكن المقريزي لايظهر أي استهجان لزواج أمه من آخر بعد أبيه ولايعلق أبداً على اختيارها لهذا الزوج الثالث أو حياتها معه. بل هو يقول عنها أنها كانت «من أفضل نساء زمانها: ديناً وعفةً وصيانةً وعقلاً ومعرفةً وصبراً وخبرةً»، وهي كلها صفات مستحبة في النساء، وبخاصة منهن نساء وأمهات العلماء الوقورين الجادين كالمقريزي.

لعل المقريزي يذهب بعيداً - حتى بالنسبة لعصره - في التأكيد على سمو أخلاق أمه، إذ أنه يخبرنا بأنها كانت لاترفع النقاب عن وجهها حتى إذا ذهبت لزيارة قبر أبيها لأن «الأرواح» برأيها «بإزاء القبور». ويؤكد المقريزي على هذا التشدد بأن يزيد بأنها قالت له مرة «مارأيت قط وجه أجنبي». ثم يكر لنا سبحة التزامها الديني الورع والشديد، فهي كانت «تديم قيام الليل وصيام الإثنين والخميس، وتواظب على الأوراد من الذكر والقراءة، وتديم الإحسان للأيتام والأرامل والفقراء. وحجت مع الرجبية (أي الذين يذهبون للحج مبكرين في رجب) فأنفقت مالاً كثيراً في وجوه البر». ثم، بعد برهة يستجمع فيها أنفاسه، يظهر المقريزي حقيقة عاطفته تجاه أمه: «وبالجملة فقل ماكان في عصرها مثلها». لاندري بمن يقارنها المقريزي هنا ولكن الاعتزاز البنوي بأم وافقت في سيرتها وأخلاقها التزام ابنها واضح وجلي في هذه العبارة. بل لو أردنا أن نرى فيها مبالغة: وهي بالضرورة كذلك، فهي مبالغة تحببية من ابن لأمه، لعلها لاتختلف كثيراً في مضمونها وهدفها عما يقوله عامتنا اليوم عن تفوق طبخ أمهم مثلاً، أو جمالها الفائق، وكذلك أيضاً عن استقامة أخلاقها وحميد صفاتها؛ فالأم هي المثل الأعلى لابنها وموئل تشكل وعيه بفكرة المثل الأعلى أصلاً.

هذا هو بيت القصيد في سيرة أسماء، ولكن المقريزي لايسمح لعاطفته البنوية الواضحة بزعزعة وقاره، فهو لايتعرض لتلك الأشياء الصغيرة والخصوصية والعادية التي جعلته قطعاً يحب أمه ويحترمها، بل ويقدسها، كما لابد أننا كلنا نشعر إزاء أمهاتنا، ولكنه ينزع لسرد القصص التي تثبت ندرة مثال أمه على الصعيد الأخلاقي الديني والانساني في آن لتبرير عاطفته التي لاتحتاج لتبرير من وجهة نظرنا المعاصرة. فهي صابرة مصابرة، «أقامت بالحمى إحدى وعشرين سنة وبها ماتت غير جازعة ولامتسخطة». وهي، فوق ذلك، كانت ذات جلد خارق للعادة، فهي عندما «ابتليت بداء في عينها اقتضى قطع جفنيها بالحديد» بدون مخدر بالطبع - لم تحتج إلى مسك يديها بل ثبتت لقص جفنيها ولم تتأوه أو تئن، بل مازادت على أن كانت تنفخ». ويعلق المقريزي بانذهاش «فكان أمراً مهولاً لم نكد - هو وخاله محمد ابن الصائغ - نثبت لرؤيته، وصبرت هي لعظيم مابليت به».

وهي كذلك ثابتة الجأش في مواجهة المصائب، ذات نزعة تأملية وحتى فلسفية بعض الشيء، فهي عندما فقدت ولداً - لاندري أيا من الثلاثة المذكورين هو - وعزيت فيه قالت: «ماأحسن الصبر لولا يفنى العمر». وكان لها الكثير من الحكم المروية التي اشتهرت النساء منذ القديم بتناقلها من جيل لجيل كمستودع شفهي للحكمة الشعبية التي حفظت للمجتمع طابعه ولحمته. فهي مثلاً تعطي وصفات طبية شعبية مجربة لاتخيب. وهي كذلك أخبرت ابنها عن عقوبة الشماتة القدرية، «أنه مانزلت بأحد مصيبة ففعل جيرانه فرحاً إلا وأصيبوا عن قريب»، أو عن الاعتقادات السائدة عن علاقات خفية بين دلالات الفعل وتأثيراته كما في قولها مثلاً «أنه ماعمل عرس وختان معاً إلا وانتقض العرس وافترق الزوجان سريعاً لانه فيه قطع ووصل». وكانت أيضاً تخبر ابنها ببعض القصص ذات الأبعاد الخارقة للعادة، كقصة أم تاهت وابن صغير لها في جزيرة مهجورة بعد غرق السفينة التي كانت تقلهما، ثم أنقذها بعض البحارة فاستعادت ثروة زوجها الذي غرق ونمتها بطرق غرائبية لكي يستلمها ابنها ويتجر بها في البحر. وهذه قصة فيها الكثير من نكهة سير ألف ليلة وليلة، ولعلها واحدة من تلك المرويات الشعبية التي لم يسعفها الحظ بأن تدون كما هي في مجموعة ألف ليلة وليلة وإن تركت بعضاً من خيوط غرائبيتها في بعض تلك القصص العجيبة التي وصلتنا بعد قرون.

ولكن أرق مايثبته المقريزي عن أمه هو إخبارنا بأنها كانت تحب الإنشاد وأنها كانت تنشده مقاطع صوفية عشقية مرهفة، حفظتها عن أبيها، لعل أجملها:

قل للذي نقض العهود وخانا
وأمال نحو العاذل الآذانا
إن الذي خلق المحبة قادر
من بعدها أن يخلق السلوانا

أو أيضاً، وهذا آخر ماينقله المقريزي عن أمه، وهما بيتان للمتصوف المشهور الشبلي الصالح الخراساني صاحب أبي القاسم الجنيد:

عودوني الوصال والوصل عذب
ورموني بالصد والصد صعب
زعموا حين آزمعوا أن ذنبي
فرط حبي لهم وما ذاك ذنب
لا وحق الخضوع عند التلاقي
ماجزا من يحب إلا يحب

فكيف وأين كانت أسماء تنشد ابنها هذا الشعر؟ ولماذا هذا الشعر بالذات خاصة أن المقريزي نفسه، الذي قرض الشعر هو أيضاً، لايرقى في شعره إلى هذه الدرجة من الشفافية الغزلية أو التعبير العاطفي. هذا ما لايخبرنا إياه المقريزي، ولكنه يضيف تعليقاً على الأبيات التي ينقلها أنها أبيات اشراقية تصوفية. فهل يقصد المقريزي من تلك الملاحظة أن يخبرنا أن أمه كانت متصوفة؟ لاأظن ذلك، ولكن إنشاد مشاعر الحب صراحة أمر غير مستحب في أوساط العلماء، خاصة إذا كانت المشاعر آتية من شخصية لاتمس، بل ويفترض فيها أنها الحاوية لكل الأخلاق الحميدة، كالأم. أما التواري خلف مشاعر العشق الإلهي فممكن بل ومحبب، لأن التصوف بعاداته واشعاره كان قد دخل ضمن المجال العلمي المحترم منذ القرن الثاني عشر ميلادي (السادس الهجري) ولاقى قبولاً في أوساط العلماء والفقهاء. فهل كانت أسماء تعني أحداً معيناً في إنشادها؟ أبو المقريزي مثلاً أم ذلك الزوج الثالث المجهول. أم أنها فعلاً كانت تتغنى بالذات الإلهية أو المعشوق الأزلي المترفع؟ هذا هو مايتركنا المقريزي معه في نهاية ترجمته لأمه، ربما لأنه لايريد الإفصاح أكثر احتراماً لذكرى أبيه أو تعففاً من أي سوء ظن قد يلحق أمه لو أنه وجه عواطفها باتجاه أحد من أزواجها، أو ربما لأنه لايعرف كيف يفصح أكثر. فلا اللغة ولا الكوابح الاجتماعية ولا المواضعات المتبعة ولا الرزانة المفترضة تسمح له بالانطلاق في تيار التعبير الذاتي بحرية وعفوية. ولكننا لانملك في نهاية قراءتنا لترجمة أسماء من أن نرى فيها إنسانة ذات أبعاد فردية متميزة كامرأة بنت عصرها وليست فقط أم عالم متألق. أي أن المقريزي أيضاً تجاوز حدود السيرة العادية ليصوغ لوحة واقعية بعض الشيء - على أقل تقدير من ضمن المتخيل المتاح له - لأمه قربها منا وافادنا عن درجة محبته واحترامه لها.

ليست أسماء المرأة الوحيدة من عائلة المقريزي التي يفرد لها ترجمة في كتابه الصغير هذا وإن كانت ترجمتها من أطول ترجمات النساء في هذا الكتاب وأي من كتب الترجمات عموماً، وهي قطعاً أكثرهن صدق عاطفة وإخلاص. ولكن المقريزي يقدم أيضاً ترجمة لزوجته سفرى ابنة عمر بن عبد العزيز بن عبد الصمد البغدادي، التي تزوجها مرتين وأقامت عنده مامجموعه ثماني سنوات وأنجبت له ولدين، محمد وعلي، ثم توفيت عام ١٣٨٨؛ وترجمة أخرى، غير مألوفة على الإطلاق في ذلك العصر، لسول المولدة، وهي جارية بكر ذات خمسة عشر ربيعاً اشتراها من بيت السلطان بعد تسع سنوات من وفاة زوجته سفرى ويبدو أنه تسرى بها لفترة، وتعلم منها، ثم فقدها لسيد آخر أخذها إلى مكة وأنجب منها أولاداً. والمقريزي في كلتا الترجمتين عطوف ورحيم بل ومحب، كما ظهر لنا من ترجمته لأمه. وإن كان أيضاً مقلاً في توضيح بعض مظاهر علاقته مع زوجته وسريته، خصوصاً منها الصعبة والتي آلت إلى فراق. فهو مثلاً لايخبرنا قط لماذا طلق سفرى واستعادها في نفس السنة، على الرغم من أنه كان قطعاً يكن لها حباً ومودة. وهو أيضاً لاينبئنا لماذا فقد سول وكيف ومن هو سيدها الجديد وكيف حافظ

المقريزي لايسمح لعاطفته
البنوية الواضحة بزعزعة وقاره،
فهو لايتعرض لتلك الأشياء الصغيرة والخصوصية
والعادية التي جعلته قطعاً يحب أمه
ويحترمها، بل ويقدسها



على صلته بها بعد أن انتقلت ملكيتها منه إلى سيد آخر يقيم بعيداً بما أنه يثبت لنا تاريخ وفاتها في مكة عام ١٤٢١، بعد سنوات من خروجها عن ملكيته، مما يدل على أنه كان إما على اتصال معها ومع أسرتها الجديدة أو أنه كان يتابع أخبارها على البعد.

إلى ذلك، فعاطفة المقريزي تجاه هاتين السيدتين واضحة وجياشة، خاصة تجاه سفرى. ولكنه لايعبر عن هذه المشاعر صراحة أو مباشرة، ربما لأن ذلك لايليق بعالم مرموق، بل يستخدم طرائق سردية مختلفة لإيصال الإحساس بطريقة موارية. فهو مثلاً يستعمل الأحلام وتأويلها كأداة تعبيرية عن الوجد واللهفة والخوف من المجهول ومن ثم القبول به بما أنه قدر لاراد له، ويستخدم أيضاً الشعر للتخفيف من وقع القضاء والحفاظ على التواصل مع الأحبة. فهو يخبرنا أنه عندما راجع سفرى وبنى عليها ثانية رأى فيما يراه النائم شخصاً ينشده هذين البيتين الحزينين الذين يوردهما ابن كثير في «البداية والنهاية» ضمن قصة حب ملوعة تنتهي بقتل المحب نفسه في مجلس هارون الرشيد:

أحسن ماكنا تفرقنا
وخاننا الدهر وماخنا
فليت ذا الدهر لنا مرة
عاد لنا يوماً كما كنا

وفهم منهما أن سفرى لن تقيم عنده سوى عامين (لاأدري كيف!). وفعلاً مرضت سفرى بعد عامين، وخلال مرضها رأى المقريزي هاتفاً آخر أنشده بيتاً لأبي ذؤيب الهذلي الشاعر المخضرم:

فالعين بعدهم كأن حداقها
سملت بشوك فهي عور تدمع

وغلب على ظنه بعد استيقاظه أن سفرى ستموت وفعلاً ماتت. ثم يثبت المقريزي هنا قصة رقيقة عن رؤيته لها في المنام وقد جاءته كهيئتها عندما ماتت، فسألها وهو عارف أنها رؤيا: «الذي أرسله (يقصد الدعاء والاستغفار الذي دأب عليه بعد وفاتها) إليك يصل؟» لتجيبه: «نعم ياسيدي، في كل يوم تصل هديتك إلي». ثم بكت (في المنام) وقالت: «قد علمت ياسيدي أني عاجزة عن مكافأتك»، فقال لها: «لاعليك، عما قليل نلتقي». (وهو مالم يحصل طبعاً بما أن المقريزي عاش فوق الأربعين سنة بعد وفاة سفرى، وعرف على الأقل سول بعدها). وبعد ذلك يصرح المقريزي أن سفرى كانت من خير نساء زمنها، وفي هذه الحاشية شيء من الصنعة، ثم يقول ماعوضت بعدها مثلها، مما يوحي أنه عرف نساء أخريات بعدها وإن كنا لانعرف منهن سوى سول ونعرف أيضاً أنه عندما مات كان وحيداً من دون زوجة أو ولد. وفي ختام الترجمة القصيرة يستشهد المقريزي بالبيتين التاليين للنابغة الجعدي، قبل أن يكرر رغبته بلقائه سفرى في الجنة على طريقة المتقين المتأملين بثواب ربهم:

أبكي فراقهم عيني فأرقها
إن التفرق للأحباب بكاء
مازال يعدو عليهم صرف دهرهم
حتى تفانوا وصرف الدهر عداء

هنا يبلغ المقريزي قمة التصريح بحبه لسفرى ولوعته على فقدها ولكنه يختار شعراً يحمل في طياته أيضاً حكمة وموعظة، ربما للمحافظة على وقاره. ولكنه قطعاً مكلوم لفقد سفرى وراغب بالتعبير عن لوعته من ضمن الأدوات المتاحة له التي تنقل مشاعره وتحافظ على صورته في آن واحد. والشعر في الذائقة العربية قديماً ـ وحديثاً ـ حمال للمعاني ووسيط مثالي في التعبير والتصريح من خلف ستار الصنعة والقافية. والمقريزي، الشاعر المتذوق، ضليع باختيار أبلغ الأبيات من التراث الشعري المتوافر له لنقل مشاعره، الصادقة حقاً، وإن لم يكن بإمكانه التعبير عنها ببساطة المحدثين ومباشرتهم.

والحال نفسه فيما يخص مشاعره تجاه سول، الفتاة الصغيرة التي أدفأت قلب الرجل المكتمل صاحب الحظوة لدى السلطان برقوق الذي أصبحه المقريزي لفترة وجيزة في نهاية ثلاثينياته قبل أن يخسرها لسبب مجهول وتغادره إلى غيره، فهو في الأسطر القليلة التي يخصصها لذكراها يركز على ماعرفه فيها من أدب وعلم وفن، خاصة ضرب الرمل أو التنجيم، وهذا علم اشتهر به المقريزي نفسه وإن كان بعض معاصريه الهجائين

ترجمة أخرى، غير مألوفة
على الإطلاق في ذلك العصر، لسول المولدة،
وهي جارية بكر ذات خمسة عشر ربيعاً اشتراها
من بيت السلطان بعد تسع سنوات
من وفاة زوجته سفرى

كالسخاوي قد انتقده انتقاداً لاذعاً عليه. وهو ينهي ترجمته لسول بالشعر، كما فعل في ترجمة أمه وزوجته، ليبثنا بعضاً من عواطفه بما يتلاءم وماقاله عن علمها وإن كان ينسب قول الشعر لسول لا له، فهي قد «أنشدته»

تعلمت ضرب الرمل لما هجرتهم
لعلي أرى شكلاً يدل على الوصل
فصادفني فيه بياض وحمرة
فعاينتها في وجنة سلبت عقلي
وقالوا طريقاً، قلت يرب للقا
وقالوا اجتماعاً قلت يرب للشمل
وقالوا نقي الخد ذاك معذبي
يجور على ضعفي ويسعى على قتلي

ما الذي يمكننا أن نقراه في هذه الأبيات الغريبة التي لم أتمكن من معرفة قائلها (بل وربما كان المقريزي هو نفسه قائلها)؟ بل وهل يحق لنا أن نقرأ فيها ماتعودنا على قراءته في الشعر الذي نعرف مصدره ومراده وقائله، خاصة بعد الفترة الرومانتيكية حيث أصبح التعبير عن المشاعر الشخصية في الشعر فيها معتاداً ومنتظراً؟ أكاد أجزم بذلك فالربط بين ضرب الرمل الذي مارسه كلاهما وتبادل الوجد والهوى مؤثر ودال. والأكثر دلالة في رأيي هو استخدام المقريزي لهذه الأبيات ليبثنا (أو ليبث سول أو نفسه كما زعم) رغبته في اللقاء وتلهفه على المحبوب الذي فرقته عنه الأيام وأمله بأن يكون الأمر كذلك من خلال مطالعة الطالع الذي يؤمن به كلاهما بما أنهما كلاهما ممارسان للضرب بالرمل (حتى أن السخاوي الساخط والناقم على المقريزي يقول ساخراً أن صحبة ابن خلدون العظيم للمقريزي ابتدأت بعد أن أخذ المقريزي لأستاذه طالعه وصدق تنبؤه). ولعل في معرفة المقريزي بما حل بسول بعد مفارقته لها كما يبدو من الترجمة دليل آخر على اهتمامه بها بل وربما رغبته في استعادتها. وقد تكون هذه الرغبة مشتركة، خاصة أن المقريزي لاينبئنا متى أنشدت سول له هذه الأبيات، ولو أن عبارة «لما هجرتهم» في الشطر الأول قد تكون التعبير الصحيح عن تاريخ الإنشاد. وهو أيضاً لايخبرنا إن كان التقى بسول في مكة التي نعرف أنه جاور فيها مرات عدة، وإن كنا لانعلم ماإذا كانت مجاوراته قد بدأت قبل وفاة سول سنة ١٤٢١ أم لا. (نعرف فقط أنه كان في مكة سنتي ١٤٢٦ و١٤٣١، ولكنه على الأغلب زار مكة أكثر من هاتين المرتين).

ها نحن الآن من موقعنا المعاصر ننظر لهذا الفرد الفذ الذي بذ نظراءه في مجتمعه العلمي من خلال التقيد بأشد قيوده والالتزام بضوابطه والانتهاء عن نواهيه حتى أنه اشتط في ذلك في نهاية حياته بعد اعتزاله. وحاز على اعتراف معاصريه ولاحقيه بالسبق في العلم وفي التاريخ، حتى قال عنه تلميذه النجيب المؤرخ ابن تغري بردي أنه كان «عمدة المؤرخين» و «هو أعظم من رأيناه وأدركناه في علم التاريخ وضروبه مع معرفتي لمن عاصره من علماء المؤرخين» (وهم فعلاً من أهم المؤرخين المملوكيين إن لم يكن الإسلاميين قاطبة). ومع ذلك، فهو في إثباته لمشاعره في كتاب الدرر وغيره متعال عن محيطه الوقور والرزين والمتزمت في نهاية الأمر ومخالف له بعض الشيء، لأنه يفصح عن نفسه في سيرته الإنسانية بالمعنى الأوسع للكلمة. وهو كذلك يحاول من خلال سرد سير أهله وأحبابه طرق تعبيرات لم تكن ضمن المنهج كما يقال وإشراع مجالات جديدة لأنسنة عواطفه بطريقة شخصية، حميمية ربما، ولكنها تبقى في نهاية الأمر مترددة، وجلة، ومعتمدة على طرائق غير مباشرة كالماورائيات والأحلام والاستشهاد بالشعر. ومع ذلك فهذه العواطف صادقة مع أنها فريدة وغير معهودة في وقتها وغير داخلة ضمن السياق الأدبي السائد الذي تعامل المقريزي مع الكتابة من ضمن إطاره. ومن هنا جمالها وحساسيتها ودفئها بالنسبة لنا اليوم لأنها تخاطبنا بلغة نفهمها وإن كانت على الأغلب غريبة على أسماع ومفاهيم معاصري المقريزي. وهي كذلك تزيح لنا الغطاء بعض الشيء عن المرأة، ذلك الكائن الإنساني الصامت عموماً وربما المكمم أحياناً في التاريخ الوسيط، كما ظهرت في ثلاثة أدوار رئيسة في حياة المقريزي: كأم وزوجة وسرية. ولاأعرف أي كاتب مملوكي آخر سوى أبي شامة الدمشقي، الذي صاغ مشاعره تجاه زوجته شعراً يدل على عاطفة جياشة وحب زوجي صريح، بلغ في تعبيره مابلغه المقريزي في درره. فلله دره. ⌘

إشارات الغيطاني



يندرج هذا الكتاب في إطاره العام إلى دفاتر تدوين الغيطاني التي تجمع على نحو فريد بين فن السيرة الذاتية وفن السرد الروائي.. ولكن هذا التدوين يتميز عن غيره من عدة وجوه: ولعل أول ما نلاحظه هو أن البعد الصوفي واضح تماماً في ذلك التدوين؛ مهيمن على سائر فصول الكتاب، وكأن الغيطاني يستعيد هذا المصدر الخصب السائد في الكثير من أعماله السابقة على دفاتر التدوين، وإن اكتسب هنا درجة أعلى من التجريد الذي ينأى به عن أسلوب البناء التقليدي للسرد الروائي الذي يتميز بتراتب الأحداث، فالروح الصوفية تجد هنا الأسلوب الفني الذي يساعدها على التحقق بقوة، وتجد اللغة التي من خلالها تستطيع تلك الروح أن تفصح عن ذاتها.

أما الأسلوب الفني هنا فيلجأ إلى التصوير الذي تتماهى فيه الحدود بين الواقعي والمتخيل، وهذا يتجلى لنا منذ أول فصول الكتاب بعنوان «خرجة»؛ فالخروج هنا هو خروج الصوفي الذي يغادر المدينة وكل شواغلها ليلبي نداء آت من بعيد يدعوه للتخلي والبعد بهدف التأمل في الأصل والمنتهى. ونحن لا نعرف إذا كانت تلك الخرجة قد حدثت بالفعل أم بالخيال والتمني، ولكننا نعرف إن إرهاصاتها قد حدثت على الأقل لصاحبنا غير ذات مرة، ثم تكفل الخيال بملء التفاصيل التي تبدت في عالم الحلم، وعالم ما بين الحلم واليقظة. ولذلك نجد أن هذا العمل يتميز بتداخل الواقع مع الخيال وبتداخل الأزمنة والأمكنة ذاتها؛ إذ كثيراً ما نجد أن اسماً ما يستدعي عند الغيطاني أماكن ومواقف وأحداثاً وذكريات وحكايات.. حكايات كثيرة عن الغجر والمغاربة والسواحين، وغيرهم من المتصوفة والسائرين العابرين للأماكن المقدسة في حضارة مصر القديمة في الجنوب. ولهذا جاء هذا النص غير ملتزم بالترتيب في العرض كما يقر بذلك صاحبه، بل جاء في مجمله أشبه بكتابات المتصوفة أنفسهم، سواء من حيث المضمون أو من حيث اللغة الحافلة بالكثير من المفردات الصوفية. وهناك حكايات طويلة عن تجارب المتصوفة، ارتحالهم وخلوتهم وعزلتهم، بل إن تجربة الغيطاني ذاتها في هذا التدوين هي رحلة صوفية (أو «خرجة» كما يحب صاحبنا أن يسميها) بالمعنى الحرفي والمجازي. وهناك مواضع كثيرة يتحدث فيها عن حاجته للخلوة ولثراء حالة التوحد والعزلة عنده.

«... سعيي وتمامي في الانفراد التام، لا أقيم الوصل إلا إذا دعتني ضرورة لاستكمال فهمي لما بدأته منذ حقب ومدد، آه لو وصلت إلى حال أسعى عنده فلا يبصرني أحد، لا أظهر إلا لمن أرغب، من عرفتهم وأنزلتهم عندي مقاماً جميلاً أصونهم بذكر أسمائهم، أنطقها فيمثلون، أرددها فيكتمل حضورهم، كافة عناصري من تلك الحروف اللوازم، يكفي اللفظ ليتجسد قريب، عزيز، عرفته يوماً، أو استدعى مدينة؛ أو زقاقاً منها، أو جذع شجرة في حديقة غناء، ناصية - واه من النواصي - في بلد نزلته يوماً وربما لن أقصده مرة أخرى، أو مدينة تقوم عندي كما أشاء ولهذا تفصيل سأذكره في حينه...».

وأما اللغة هنا فإنها تفصح عن تلك الروح الصوفية؛ لأنها لغة غامضة تلمح أكثر مما تصرح: الإفصاح في اللغة الصوفية يكون دائماً من خلال الغموض والإخفاء.. أن يبقى هناك دائماً شيء غير مصرح به وكأنه يجب أن يبقى دائماً طي الكتمان، ولهذا قال هيراقليطس (أحد أعظم فلاسفة اليونان السابقين على سقراط، والذي صاغ فلسفته في شذرات): «إن كهنة معبد دلفي تلمح ولا تصرح أبداً».

والواقع أن الروح الصوفية تنظر إلى اللغة نظرة خاصة مغايرة، نظرة تؤمن بأن الكلمة أو الاسم ذاته له قدرة خاصة. ليس المتصوفة فحسب هم الذين يؤمنون بذلك، بل الشعراء والفلاسفة ممن يكون إنتاجهم مشبعاً بتلك الروح الصوفية: لقد كان هناك حال هيدجر (كما سنشير إلى ذلك بعد قليل)، وهو أيضاً حال الغيطاني في ذلك التدوين الذي نحن بصدده الآن؛ ولذلك يقول:

«لذلك لن ألزم الترتيب في هذا التدوين الذي آثرت أن أنجزه بعد أن جرى ما جرى، لعلي أمحت بعد أن لم يتبق مني إلا الاسم، ليس مني فقط، إنما من سائر الموجودات كافة، الطرق والمسالك، الجهات، ما ينبت وما يولد، ما ينتهي وما يرحل، ما يطل وما ينزع؛ ليس هذا كله إلا أسماء، وبقدر قوة الاسم يكون التحقق وحل المشكل وكذا تصور الممكن».

وربما يليق الآن أن نتحدث عن الفكرة الرئيسية المهيمنة على هذا الكتاب أو العمل؛ لأن كل أديب عظيم - كما نبهنا ميرلوبونتي، وكما نؤكد على ذلك مراراً - فكرة أو فكرتان من الأفكار الميتافيزيقية. وبوسعي أن أزعم أن الفكرة الميتافيزيقية المهيمنة على تدوينات الغيطاني أو كتاباته الأخيرة هي سؤال الميتافيزيقا الأول والأخير: سؤال الوجود، وهو السؤال الذي يتردد على أنحاء شتى في تلك الأعمال: فهو على سبيل المثال يتردد أحياناً في تجربة الوجود الأنثوي الذي يجسد روح بقعة ما من العالم، أو في تجربة الرحلة أو السفر باعتبارها تجربة وجودية معيشة، أو في تجربة العدم والمحو في علاقته الحميمة بالوجود ذاته أو في تجربة اللامرئي الذي نطل عليه من خلال المرئي عبر النوافذ، وهو هنا يتجلى من خلال تجربة اللغة، وتحديداً من خلال تجربة الكلمة والاسم.. الاسم الذي يخلق وجوداً. لهذا الأمر ميراث فلسفي عميق عند هيدجر قبل أن يتعين ويصبح مرئياً عند الغيطاني.

وفي ذلك يبين لنا هيدجر أن الاسم ليس مجرد إشارة تعين شيئاً ما: فمثل هذه الإشارات إنما هي الأسماء بمعنى الرموز التي نستخدمها في لغة الحياة اليومية والمصطلحات التي نستخدمها في اللغة العلمية. أما حينما تكون اللغة لغة بحق (كما في اللغة الشعرية أو الصوفية على سبيل المثال)، فإن الأسماء أو الكلمات فيها تستدعي وجوداً أو حضوراً لموجودات بعينها، كما لو كان لها قدرة سحرية أو تعزيمية على استحضار الموجود، فالكلمة هنا لا تشير إلى الخارج، وإنما تجلب الخارج إلى الداخل..

السرن
جمال الغيطاني
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨

كلمة «الرن» الواردة فى العنوان تعنى «الاسم» فى اللغة المصرية القديمة التى تعرف عند أهل الاختصاص والعارفين بلغة الطير، وهى اللغة التى أتقنها ذو النون المصرى أحد كبار الأئمة العارفين من شيوخ التصوف

تجعل الوجود مباطنًا فى الكلمات ذاتها أو بحسب تعبير هيدجر البليغ: «اللغة مسكن الوجود». ولذلك فإنه يتوقف وقفة طويلة عند قصيدة شتيفان جيورجه بعنوان «الكلمة» والمؤلفة من سبعة أبيات.. يتوقف بوجه خاص عند البيت السابع والأخير الذى يقول فيه الشاعر:

حينما تُفتقد الكلمة

لا يمكن لشىء أن يكون

ولقد بينت من قبل أن هذه الرؤية الهيدجرية التى تعينت وترددت أصداؤها عند الغيطانى، هى رؤية لها مصادرها فى الأسطورة والدين: ومن هذه الأساطير ما له صلة وثيقة بالعقيدة المصرية القديمة، فمن المعروف أن أجدادنا من القدماء كانوا يؤمنون بخلود الروح، وأن الروح عندما تفارق الجسد تمر بمراحل من الحساب الذى تترافع فيه أمام الآلهة. فإذا مرت بهذه المراحل تحقق لها الخلاص وعادت إلى الجسد، إلى وجودها وتحققها العينى. ولذلك، فإذا أراد الفرعون أن ينزل العقاب الأبدى بأى شخص كان، فإنه يكفى لذلك أن يمحو اسمه المدون على التابوت الذى يحوى رفاته، حتى إذا ما عادت الروح بعد خلاصها لم تتعرف على جسدها، فتظل هائمة دون أن تبلغ أبدًا كمال وجودها أو تحققها العينى. بل إن هذه العقيدة بقيت حية حتى فى استخدامنا نحن المصريين للغة الدارجة أو العامية حينما يريد شخص ما أن يدعو بالنقمة على شخص آخر، فيقول: «اللى ما يتسمى» أو يقول: «إن شا الله (أى إن شاء الله) ينمحى اسمه»: فالدعاء هنا بأن يفتقد الشخص اسمه؛ ومن ثم يصبح شيئًا غير مذكور، بحيث لا يمكن التعرف عليه، أى يصبح هو والعدم سواء! بل إن كلام الله نفسه يؤكد لنا هذه العلاقة الحميمة بين الاسم والوجود إذ يقول: «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم» (سورة البقرة). تأويلى لمعنى هذه الآية الكريمة أنه ليس من المعقول أن يسأل الله الملائكة عن أسماء الأسماء التى علمها لآدم. لأن الاسم لا اسم له.. الاسم هو الشىء أو الموجود؛ ولذلك فإن معنى «وعلم آدم الأسماء كلها...» هو «وعلم آدم الأشياء كلها...».

والحقيقة إن تجربة هذا التدوين فى مجملها هى تجربة «الاسم» الذى يعين الأشياء والموجودات جميعاً، ويجلبها إلى حالة حضور، وهذا الأمر يتضح لنا باعتباره متأصلاً فى عنوان التدوين نفسه، حينما نعرف أن كلمة «الرن» الواردة فى العنوان تعنى «الاسم» فى اللغة المصرية القديمة التى تعرف عند أهل الاختصاص والعارفين بلغة الطير، وهى اللغة التى أتقنها ذو النون المصرى أحد كبار الأئمة العارفين من شيوخ التصوف الذى تُنسب إليه «المدونات الأخميمية»، مثلما تُنسب إليه حكايات كثيرة من خوارق العادات وطبائع الأشياء.

وفى السطور الأولى من الفصل الثانى الذى يحمل عنوان «أخميم» يشير إلى قوة هذا الاسم الذى يستدعى حضورًا عنده، فى نبرة تذكرنا بأسلوب القرآن الذى تبدأ فيه بعض الآيات بحروف كما لو كانت لها قوة سحرية غامضة لها القدرة على التعزيم واستدعاء المكنون، يقول:

«ألف. خاء. ميم. ياء. ميم.»

ثمة شىء رسخ عندى بمجرد سماع الاسم قبل أن أدخلها أول مرة، ثم أثناء ترددى عليها، حتى استقرارى بها مدة قبل استئنافى فى الخرجة إلى البر القبلى، فى المنطوق شىء، فى التدوين شىء. موقن، واثق بمثوله. قيامه. تحققه فى حيز ما؛ يشق على تعيينه أو تحديده. يغمض على فكيف أصفه أو أتحدث عن سمته؛ غير أن يقينًا ما يؤكد وقوفى يومًا على قبس منه بحلول توقيت معلوم.

أخـــــمـــــيـــــــم

قبل وفادتى تلك نزلته أول مرة منتصف العقد السادس من القرن العشرين الذى قُدر لظهورى أن يكون فيه، بالتأكيد ثمة شىء بدا عندى مع بلوغى لها، ربما عند سماعى الاسم، أرى وضعى إذ أصغى إلى «أخميم»، تتغير وجهتى، تتبدل طلتى، أوجه نفسى صوب ما لا أدريه، ثمة طبقات مبهمة...

ولقد ظل اسم أخميم مقترنًا فى ذهن صاحبنا باسم ذى النون المصرى الذى يسمى أيضًا بذى النون الأخميمى.. انشغل به منذ شبابه، وظل دومًا منشغلاً به قابعاً فى وجدانه: حتى إن رحيله أو خروجه يبدو كما لو كان رحيلاً إليه، أو استدعاء لشىء من تجربته الثرية:

«يهيمن على سيدى ذو النون، بل إن نزوعى إلى أخميم لم يبدأ إلا عبر اسمه، فلو لم يلحق الأخميمى به لما توقفت ولما صارت عندى تلك الشنشنة.

سنوات أتمهل عند مطالعته، أفرق حروفه لأنفرد بكل منها على مهل، أنطقها حرفًا. حرفًا، أسمعه للخواء المحدق بى، مع كل نطق لحرف أزداد معرفة وتنجلى لى غوامض، يتجسد أمامى كائن يصعب تصنيفه، يحدق إلى، نتبادل النظر بريبة. يولى، مرات يلزمنى، أقرأ، أطالعه، يغيب ويعاودنى، يمشى قربى أيامًا محتفظاً بالمسافة عينها، لا أقدر على استيعاب ملمح منه، مرة يطالعنى من إطار لا يحوى شيئًا، لكننى أتمكن من ملامحه كافة، أعاينها لكننى لا أحتفظ بها، يستحيل وصفها...

ذو النون.. ذلك المتصوف الفريد الذى كان يعرف اللغة المصرية القديمة التى كانت تسمى قلم الطير، مثلما يعرف كيف يسمع ويقرأ أصوات الحيتان الصادرة من بعيد، من أعماق المحيطات. ولا شك أن دلالات الأصوات مسألة أساسية فى الكثير من نصوص الغيطانى. ولكنها هنا تكتسب تأثيرًا مغايرًا، وأبعد عمقًا: نتذكر جيدًا نداء سعاد فى.... الذى يشبه صهيل الفرسة: ولكن الصوت هنا يتجاوز كل هذه الدلالات الفردية والجزئية، ويتجه مباشرة إلى صوت اللامرئى، ذلك الصوت الصادر من الأعماق النائية لعله يجد من يفهمه حينما يتردد صداه فيه:

«نواح أقرب إلى العويل، لكنه منفرد، وحيد، صادر إلى نقطة غير محددة، لا يراها، لا يعاينها ذلك الكائن الضخم، هائل الحجم، السارح فى اللامدى، استغاثة ميئوس من وصولها إلى متلق بعينه، إنما.. لعل وعسى، يطول إصغائى، يقوى على حضور ذى النون، خاصة عند انفرادى بمطرية المغيب ليلاً وبدء مفاوضاتنا، أستدعيه بذكر اسمه، أنطقه فيمثل، لم يتقن لغة الحيتان فقط، إنما لغات الحيوان بأنواعها والجماد. ما يخيل إلينا أنه مصمت، لا يوجد فى الكون صامت أصلاً، ليس هذا شطحة من عندى، إنما نطق وإفصاح تسلمته من الشيخ الأكبر ذو النون».

هناك تلاق حميم تتماوه فيه الحدود بين التجربة الصوفية عند صاحبنا والخبرة باللغة المصرية المقدسة وبحضارتها الملغزة المليئة بالأسرار، وهذا ما يتبدى لنا بوضوح فى وقفته الطويلة عند لغز الباب الأخميمى وأسراره كما وردت فى الكتابات التى بقيت عن أخميم وفى المرويات التى يرويها الكبار: فقيل عن هذا الباب الأخميمى الذى يشرف على النيل ولا يؤدى إلى بناء أو قصر، قيل عنه أن من خرج منه لن يعود، وإن عاد فلن يرجع مثلما كان، مصداقًا للحكمة التى وردت فى المدونات الأخميمية: «لا شىء يعود إلى ما كان عليه»، قيل إن هذا الباب مدفون تحت طبقات من الأرض الأخميمية التى توارت عبر الزمن، من مر فوقه أو لامسه تبدل حاله، وفك طلاسم لغة لم يعرفها، وقطع مسافات شاسعة فى الزمن القليل. يظل الباب هنا لغزًا: باب قائم فى الفراغ وحده.. الباب يكون دائمًا بابًا لشىء غيره، مدخلاً له. ولكن هذا الباب يبدو كما لو كان لا يؤدى إلى شىء يواجه الشرق والغرب معًا. ولعل الصلة الوثيقة بين هاتين التجربتين تجتمعان فى روح ذى النون نفسه، ولعل هذا أيضًا هو سر تعلق صاحبنا به.

تلاحم هاتين التجربتين فى هذا التدوين يبدو كما لو كان استدعاء لهما لتجتمعا معًا بعد أن كانتا متشرذمتين متفرقتان تتقاربين حينًا وتتباعدان حينًا آخر: كانت إحدى التجربتين تهيمن على تدوين ما، تاركة للأخرى حيزًا محدودًا تتسلل من خلاله، على نحو ما نجد فى «متون الأهرام» الذى تهيمن فيه تجربة الحضارة المصرية القديمة على ما عداها؛ ولكننا فى هذا التدوين نجد التجربتين منصهرتين تمامًا بحيث لا نستطيع أن نميز بينهما. والأمر المدهش فى هذا التدوين هو أن نتأمل تلاحم هاتين التجربتين من خلال معايشة، بل معاناة تجربة «الاسم».

كل ما فى الخبرة عند صاحبنا أسماء: «أتلقى من الأسماء إشارات تتحول أحيانًا إلى صور، بعضها جلى ومعظمها مبهم، تلوح غمامات، ندف عالقة أو سابحة، وديان هاجعة، بوادر ظواهر طبيعية، منها ما أعرفه ومعظمها لم يدرك بعد، مبان، طرق، نوافذ متطلعة، سلالم خلفية، أبراج منها المسكون والمهجور، هذا شأن حضرموت معى منها المسكون والمهجور، هذا شأن حضرموت معى، منذ سنين تراودنى، لا أعرف متى أصغيت إلى إيقاع الاسم لأول مرة.............

حضرموت.. حضور وموت، من خلاله أقف على بعد سحيق، مسافات طويلة تتخلل بحارًا وعرة وجبالاً تتخللها المضايق...».

يتأمل الغيطانى أيضًا أسماء عديدة، ما تستدعيه عنده، ما تستحضره من وجود مقترن بها؛ ومن هذه الأسماء «بلاد بُنت»، ذلك الاسم المقترن بعالم الأساطير والأحلام: بخور، لبان، أشجار نادرة، وطيور تحلق على ارتفاعات شاهقة ولا وجود لها إلا هناك. ومنها اسم «سوقطرة» كجزيرة تكاد أن تكون أسطورية هى الأخرى، و«درب الأربعين» الذى يتأمله الغيطانى باعتباره جسرًا يصل بين عالمين. ولكنه فى الوقت ذاته عالم خاص أو درب لا يعرفه إلا أهله من مرتاديه بما لهم من طقوس وخبرات خاصة فى تعاملهم مع هذا الدرب. ومنها أيضًا اسم «بخارى» الذى ظل مقترنًا فى وعى الغيطانى بدرجة اللون الياقوتى للسجاد البخارى التى لا نظير لها والتى ظل يحاول الوقوف على سرها دون جدوى!

ومن الوضح أن هناك حضورًا قويًا فى هذا العمل للجغرافيا، أعنى للمكان الجغرافى كما خبره وعاينه الموجود البشرى، كما تمثل فى خبرته وتجربته الحية. عرفت شيئًا من تلك الخبرة وأفصحت عنها فى سيرتى التى كتبتها عن تجربتى فى الخليج. ولقد عرف بعض من الجغرافيين أنفسهم تلك الخبرة وفطنوا إليها، وراحوا يعبرون عنها بطرائقهم العلمية باعتبارها منهجًا فى فهم المكان الجغرافى من خلال صلته الحميمة بالإنسان الذى يقطنه أو يرتاده.

على أن الغيطانى لم يهتم هنا بأسماء الأمكنة فحسب، وإنما اهتم أيضًا بأسماء



الأشخاص، فالاسم هنا فى حد ذاته هو ضالته وبغيته. نعم اسم ذى النون هو المهيمن هنا، ولكن هناك أسماء عديدة بجانبه لا حصر لها. ومن بين هذه الأسماء أيضاً اسم «قطر الندى» الذى يستدعى نطق حروفه عند الغيطانى حالة خاصة من الوجود الأنثوى: إذ إن طلتها رقراقة، وبشرتها تشف عما بداخلها لرقتها ورهافتها، شرابها من لباب الزهور.. حضورها إيماءات، سعيها إشارات، نظراتها حنين دائم وتطلع ومعاودة. كما يقول الغيطانى. كما أن الغيطانى يتوقف وقفة دالة عند اسم «ليلى مراد»، يقترن اسمها عنده بحالة صوتية تأسره وتأخذ بمجامعه، إذ يقول:

«لا يخلعنى منى، ولا يقصينى عنى، لا يأسرنى عندى إلا توالى مويجات صوتها الذى يستنطق كواكب المجموعة فى مدارات وحدتها، أصغى إلى صوتها، فيندلع أمامى اسمها، لا أدرى عندئذ إلى من أتجه، أو كيف أنطق، أفقد قدرتى على التعبير. فلا أقدر على النطق، ولا الإشارة، لا أنظر، ولا أتطلع، ولا ألتفت، ولا أقعد ولا أقف ولا أستقيم ولا أنثنى ولا أنحنى، ولا أكون ولا أتكون ولا أصير ولا أتحول عنها، فى كل مسافة من عمرى أحرص على اقترانها بليلى وبعض مما شدت...».

ولا أدرى ما سر توارد الخواطر بينى وبين الغيطانى فى كثير من المواضع، منها هذا الموضع تحديداً: كان ولا يزال صوتها يشجينى بما له من سحر وتأثير خاص منبعث من قدرته على الانطلاق بقوة فى سلاسة دون أدنى مجهود، فهو يجوب السلم الموسيقى من أدناه إلى أعلاه دون عناء. كنت أحاول البرهنة على هذه الحقيقة لطلابى فى فلسفة الفن بأن يلاحظوا ببساطة وضع شفتيها حينما تغنى: لا تكاد تلحظ انفراج شفتيها حينما تغنى؛ إذ لا تكاد تستبين أسنانها من وراء شفتيها، تغنى كأنها تتكلم، ولكنها فى حقيقة الأمر تشدو بما لا يقوى غيرها على أن ينطقه حتى فى سلاسة.

غير أن اسم «ليلى مراد» لم يقترن عند الغيطانى بمجرد حالة صوتية فريدة، وإنما اقترن عنده أيضاً بحالة من الحضور المقيم: إنه حضور «المثال» بالمعنى الأفلاطونى، إنه الحضور الذى يبقى كصورة وإن تغيرت تجلياتها فى الواقع، تبقى صورة ليلى مراد وإن تغيرت وتبدلت ليلى مراد نفسها على نحو يجافى صورتها التى رسمتها لنفسها أو رسمتها لها الأقدار. ولذلك فإنه يروى لنا أنه أتيحت له فرصة لقائها بعد أن جاءه صوتها عبر الهاتف على إثر اطلاعها على ما كتبه عن تعلقه بابتسامتها التى طالما عُرفت بها، ولكنه لم يشأ أن يدبر لهذا اللقاء، لم يُرد لقاءها؛ أو كما يقول: «لأننى لو اطلعت على نقيضها لولى كل ما حرصت على التعلق به، ذاك أمرى..». والحقيقة أن هذا أمر متكرر عند الغيطانى، أو هى لحظة مستقرة منذ زمن مندثر على حد تعبيره: ولذلك فإننا نتذكر تواتر تلك اللحظة من قبل تدوينه «رشحات الحمراء».. تلك الحمراء التى جسدت معنى الأنثى لديه فى طفولته وصباه، فأراد أن يبقيها فى الذاكرة والخيال، فلا يراها فى الواقع بعد أن تبدل حالها بفعل الزمن.

غير أن هناك فكرة مركزية فى هذا التدوين، وهى علاقة الاسم بالذاكرة؛ ومن ثم بالوجود ذاته: فإذا كان من لا اسم له لا وجود له، وإذا كان أول ما تفقده الذاكرة هو الأسماء كما تعلم صاحبنا وحفظ عن معلميه؛ فإن فقدان الذاكرة سوف يعنى فقدان الوجود برمته، وهذا ما كان منه يخشى ولا يزال:

«.. تواترت أعراض النسيان عندى حتى خشيت أن يكون ذلك أول أعراض الزهايمر، رعبى أن يدركنى، أن أضل عن نفسى، ليس الوجود إلا ذاكرة، وليست الذاكرة إلا أسماء، لذلك نسيانها يعد علامة تآكل حواف الحضور، فإذا تزايد تقدمه يختفى المرء وهو لايزال يتنفس ويتلفت ويستدعى عبثاً ما كان منه فيأتيه فى غير الاتجاه المرجو».

إن العالم الذى يأخذنا هذا التدوين إلى رحابه عالم غرائبى قد يبدو أسطوريا عند من يقبعون خارجه، ولكنهم ما أن يسلمون أنفسهم لنداءاته الخفية، متخلين عن شواغل وتفاهات الحياة، حتى يدركوا ما فيه من حقيقة تتجاوز كل عابر وزائل؛ إذ لا يبقى إلا اسمه الذى يعين رسمه، فإن الاسم هو الوجود، فإن اختفى الاسم أو زال اختفى المسمى أو الموجود. *

(*) ينشر هذا المقال ضمن مجموعة من المقالات للكاتب فى كتاب يصدر قريبا عن دار العين (القاهرة) بعنوان «عالم الغيطانى.. قراءات فى دفاتر التدوين».

الشرعية الفلسطينية مرتبطة عضويًا بمقاومة الاحتلال الإسرائيلى وتحقيق الحقوق العليا للشعب الفلسطينى

شرعية فلسطينية جديدة؟

خالد الحروب


© AFP / Mahmud Hams

* يُقصد بتعبير الشرعية الفلسطينية الفهم التالى: منظومة الأعراف المقاومية والسياسية التى أقرها الإجماع الفلسطينى التنظيمى والشعبى وما نتج عنها من آليات مؤسساتية صانعة للقرار الفلسطينى وللعلاقات الإقليمية والدولية. وهى أيضًا منظومة الأعراف المتضمنة لحمولة رمزية تراكمية انتزعت الإقرار الشعبى بحق تمثيل الفلسطينيين، وصناعة القرار الفلسطينى، وصوغ وجهات المسير الفلسطينى فى المراحل المختلفة. الشرعية الفلسطينية، من ناحية تكوينية، منتزعة من رحم النضال ضد الاحتلال الفلسطينى ووليدته، إذ لا يمكن تصورها منقطعة عنه. ولذلك فهى نشأت وترعرعت فى ظل المقاومة. وعبر تاريخ النضال الفلسطينى الطويل كانت «الشرعية الثورية» هى البنية التحتية لأية قيادة فلسطينية. ثم هى التى أعادت إنتاج نفسها عبر اكتساب شرعيات انتخابية وإقليمية ودولية فى مراحل لاحقة من النضال والتاريخ الفلسطينى.

ربما كان التعريف المذكور موسعا، أو معقدا، بشكل لافت، لكنه يعكس الصيرورة التاريخية التى تولدت عبرها هذه الشرعية، فهى لم تكن شرعية قد تولدت منذ لحظة قيامها عبر انتخابات عامة مثلاً، أو عبر تشريعات قانونية، أو سوى ذلك. لقد كانت عملية طويلة النفس ومعقدة تحدث تحت ظل احتلال عسكرى لا يرحم، ومعمدة بالتضحيات والدماء والصراعات ضد إسرائيل أولاً وضد أطراف وجهات إقليمية ودولية ثانياً. لذلك كانت هذه الشرعية التى تجسدت فى منظمة التحرير الفلسطينية، وما زالت، جوهر الكيانية الفلسطينية، وصانعة بوصلتها، ومستودع تاريخها النضالى.

بناء على التعريف المذكور أعلاه، تكون الشرعية الفلسطينية مرتبطة عضويًا بمقاومة الاحتلال الإسرائيلى وتحقيق الحقوق العليا للشعب الفلسطينى. فمنذ عهد الانتداب البريطانى إلى عهد الانتفاضة الثانية والصراع على التحقق بشروط الشرعية الفلسطينية والتمثيل الفلسطينى من قبل الأحزاب والتيارات الفلسطينية (والرسميات العربية المنافسة أيضاً)، يتقدمه مقدار تضمين مقاومة الاحتلال فى قلب تلك الشرعية المدعاة والتمثيل المتنافس عليه. وكان الشعب الفلسطينى يمنح مقادير الشرعية والتمثيل لهذا التيار أو ذاك بحسب درجة الاقتراب من جوهر المقاومة فكراً وممارسة.

لذلك قوبل انطلاق حركة فتح فى الفاتح من يناير ١٩٦٥ باحتضان شعبى عريض لأن برنامج فتح كان مبنيا على المقاومة بكليته. ومنذ تاريخ انطلاقة فتح ثم تأسس فصائل المقاومة الأخرى وعلى قاعدة المقاومة أيضًا ظل الوجدان الشعبى الفلسطينى والرأى العام يمنح الشرعية لهذه القوى التى تحالفت فى إطار منظمة التحرير الفلسطينية، لأنها قائمة على المقاومة. ثم أصبحت منظمة التحرير هى مآل الشرعية الفلسطينية لفلسطينيى الداخل والخارج. وقد تصلبت هذه الشرعية الفلسطينية المتمثلة فى منظمة التحرير بعد أن انتزعت وحدانية تمثيل الشعب الفلسطينى، فى مؤتمر القمة عام ١٩٧٤، خاصة إزاء أطراف عربية أهمها الأردن الذى كان ينازع المنظمة على هذه الأحقية.

ومع مرور السنوات تكرست الشرعية الفلسطينية مع تواصل انتزاع الاعترافات الدولية بمنظمة التحرير ومساندة حقوق الشعب الفلسطينى التى تتبناها وتدافع عنها المنظمة. ولم تهتز هذه الشرعية وصلابة تمثيلها فى الوجدان الشعبى إلا مع مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ ومن بعده اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، وذلك لأن جوهر تلك الشرعية وهو برنامج المقاومة بدأ يهتز، وعلى الأقل فى نظر كثير من الفلسطينيين. إذ مع وقوع «الحدث الأوسلوى» المفصلى بدأ يتطور لدى شرائح عديدة من الفلسطينيين، وبالتوازى، مع تواصل صعود قوة حماس، أقدار متفاوتة من الامتعاض والتردد فى مواصلة منح منظمة التحرير بقيادة حركة فتح ما تعودوا أن يمنحوه من شرعية بلا حساب. لذلك كان على هذه الشرعية وفى ظل المناخ السياسى والعسكرى والمقاومى الجديد إبان أوسلو أن تعيد إنتاج وتكريس نفسها، على الأقل فى الداخل الفلسطينى، وهذه المرة عبر انتخابات سياسية عامة، نظمت لأول مرة عام ١٩٩٦ وأخذت شكل انتخابات المجلس التشريعى الفلسطينى.

الإسلاميون الفلسطينيون والشرعية الفلسطينية

بناء على التعريف أعلاه للشرعية الفلسطينية لم يكن للإسلاميين الفلسطينيين أى حضور فى فضاء التنافس على تلك الشرعية فى مرحلة ما قبل الانتفاضة الأولى، أى قبل عام ١٩٨٧. إذ قبل ذلك التاريخ الفاصل كانت النظرية السائدة عن التيار العريض للإسلاميين، وتحديداً الإخوان المسلمون، نظرية إعداد الأجيال طويلة النفس من أجل الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة مع إسرائيل. ومع استثناء حركة الجهاد الإسلامى التى بدأت إرهاصاتها الأولى فى أواخر السبعينيات بالتأثر بالتجربة الثورية الإيرانية ثم استقلت عن الإخوان المسلمين فى أوائل الثمانينيات امتعاضاً من تواصل السياسة «الإخوانية» فى عدم مواجهة الاحتلال، فإن نظرية إعداد الأجيال هى التى سيطرت على شرائح

النص الكامل يصدر قريبا فى كتاب بعنوان: مأزق بلا حدود: شرق أوسط للصراع والسياسة والاجتماع



الإسلاميين العريضة في الضفة الغربية وقطاع غزة لعدة عقود. كانت النتائج العملية لتلك النظرية مختلطة. فمن ناحية أولى تمكن الإسلاميون من بناء قاعدة عريضة وقوية ومتماسكة ومنتشرة في المجتمع الفلسطيني. وقد تبدت صلابة هذه القاعدة ومدى انتشارها الأفقي عندما قرر الإسلاميون تغيير استراتيجيتهم والانخراط في الانتفاضة الأولى، وصاروا إحدى أهم قواها خلال فترة وجيزة من الزمن. أي أن حماس تأسست كتنظيم قوي منذ لحظة الميلاد لأنها اعتمدت على بنية تحتية قوية وممتدة تم بناؤها على مدى سنين طويلة. لكن ومن ناحية ثانية قادت نظرية إعداد الأجيال إلى تكرس نظرة سلبية واتهامية للتيار الإسلامي من قبل التيار الوطني العريض ومن قبل خصوم الإسلاميين وذلك بسبب عدم تبني هذا التيار لمنهج المقاومة العسكرية للاحتلال. ولأن المقاومة هي جوهر الشرعية الفلسطينية فقد قاد ذلك إلى ترسخ قناعة واسعة وهي عدم أحقية الإسلاميين في الانخراط في، أو التنافس حول، الشرعية الفلسطينية التمثيلية.

وكان أن احتاجت حماس إلى عشرين سنة تقريباً كي تراكم تاريخاً نضالياً يؤهلها للتنافس على الشرعية الفلسطينية والانخراط فيها من أوسع أبوابها المقاومية والانتخابية. وهي الآن تقف ووراءها ذلك الرصيد الذي أتاح لها أن تصل إلى قمة الهرم الفلسطيني وأن تناكف حركة فتح على قيادة منظمة التحرير الفلسطينية نفسها. لم يكن بإمكان الإسلاميين الفلسطينيين أن يجدوا لأنفسهم هذا الموقع القيادي في المشهد الفلسطيني، ويطمحوا لأن يغيروا شكل النظام السياسي الفلسطيني عبر الدخول في عملية التمثيل الشرعي للفلسطينيين لولا تبنيهم للمقاومة وتخليهم عن نظرية إعداد الأجيال التي قصفت من عمر تيارهم في فلسطين عقدين من الزمان على أقل تقدير.

إن تجربة حركة حماس في الحكم، وكما تبدت في السنة الماضية، ورغم قصرها الشديد والحصار الذي تعرضت له، قدمت فصولاً ثرية حول تداخل الديني مع السياسي عند حماس. كما كشفت عن آليات تقديم السياسي وسيادة النهج الواقعي والبراجماتي عند الحركة، وذلك في سياق حرص حماس على تكريس مكتسباتها السياسية والشعبية وفي سياق صراعها مع فتح وبقية فصائل التيار الوطني على اكتساب شرعية فلسطينية وتمثيلية. وكانت تلك السنة المزدحمة بالمآزق المتلاحقة التي واجهت حماس لأول مرة، والفلسطينيين بعامة، قد أظهرت تجليات البراجماتية السياسية عند حماس وكيفية تبلورها موضوعياً وذاتياً عند كل منعطف حاسم يستلزم من الحركة قراراً استراتيجياً يحدد الوجهة وفق ما يمليه أو يشترطه ظرف الواقع الموضوعي.

ولا تحدث هذه العملية، أي تقديم السياسي وتأخير الديني، في الغالب الأعم بوعي كامل يفرز مكونات ما هو سياسي عما هو أيديولوجي ويقارن بينها بكل وضوح ويقدم بالتالي هذا المكون ويؤخر ذلك المكون بعملية شبه رياضية. إنها عملية معقدة وتدريجية وغير مباشرة، تحدث من دون ترتيبات رياضية مسبقة لكن أهم ما يسمها هو تسلل السياسي فيها إلى أرضية الأيديولوجي عن طريق تأسس قناعات ضميرية وفكرية تسوغ حدوث هذا التسلل بكونه يحدث أو يستحدث في نهاية المطاف لخدمة الأهداف الأيديولوجية الكبرى. وهذه القناعات تتبلور على شكل صيرورات عضوية استجابة لمسارات الواقع الصلب. وهي مسارات تفرض على حماس (أو أية حركة أيديولوجية أخرى) الانخراط في الاتجاهات العامة للطرق المرسومة مسبقاً، مع السماح لها بمحاولة توسيع هذه الطرق أو إنشاء هوامش لها أو إجراء بعض التعديلات عليها، لكن ليس رفضها كلياً والعزوف عن استخدامها بالمطلق. وهكذا، وفي حالة حماس في الحكم، بدا التقديم الأفضل للسياسة الواقعية على التشبث بالأحلام الأيديولوجية مظهراً بارزاً في أداء الحركة خلال عامها اليتيم على رأس الحكومة الفلسطينية.

لكن هذا المظهر البراجماتي لا يفاجئ المطلعين على التكوين الفكري والسياسي لحماس، وعلى تفاعلها مع المحيط الذي تعيش فيه بدءاً من تاريخ انطلاقتها في أواخر عام ١٩٨٧. فبذور الواقعية السياسية موجودة بكثافة في تنظيرات، والأهم من ذلك في ممارسات، حماس السياسية والفكرية. فحماس في نهاية المطاف متأسسة وفق ركنين: واحد ديني إسلامي كواحدة من حركات جماعة الإخوان المسلمين تحمل برنامجها وشعاراتها، وثان وطني مقاومي كواحدة من تنظيمات الحركة الوطنية الفلسطينية هدفها تحرير فلسطين ودحر الاحتلال الإسرائيلي. ومن كلا الركنين، ومن ثنايا التجربة التاريخية للحركات الأم: الإخوان المسلمون من جهة، والحركة الوطنية الفلسطينية من جهة ثانية، طورت حماس فكرا وممارسة تناغيان الأحلام الكبرى، لكن في الجوهر ينتميان إلى مدرسة الواقعية السياسية.

> **من ثنايا التجربة التاريخية، طورت حماس فكراً وممارسة تناغيان الأحلام الكبرى، لكن في الجوهر ينتميان إلى مدرسة الواقعية السياسية**

تقدم السياسي وترسخه

أي رصد لسيرة وأداء حكومة حماس وخطابها وممارساتها في عام حكمها سيقود، في سياق ما تركز عليه هذه المقاربة، إلى نتيجة أساسية (ربما ضمن نتائج أخرى أقل أهمية)، وهي أن حماس تعاملت بتسييس كبير في معظم الملفات، ووضعت كثيراً من الحمولة الأيديولوجية التي اصطبغت بها دينياً وشعاراتياً على مقاعد الاحتياط. لقد كان السياسي هو الذي يقود الديني، وليس العكس كما يظن كثيرون. ويمكن القول وبقدر كبير من الاطمئنان إن حماس انخرطت، وربما رغماً عنها وبحكم فوزها في الانتخابات، في دورة مكثفة للغاية من تسييس محلي وإقليمي ودولي ما كان لها أن تتعلم ما تعلمته خلالها لو بقيت عشر سنوات أو حتى أكثر في مقاعد المعارضة.

لكن قبل الفوز بالانتخابات، يناير ٢٠٠٦، تجب الإشارة إلى أن قرار المشاركة بالانتخابات في حد ذاته كان استراتيجياً، وهو كان قد اتخذ في العام الذي سبق الانتخابات وترافق مع قرارين لا يقلان أهمية عنه هما قرار التهدئة وقرار الدخول في منظمة التحرير. هذه الحزمة من القرارات شكلت منعطفا أساسيا واستراتيجيا في سياسة الحركة، ومهدت بمجموعها العام للتطورات اللاحقة، وأوضحت من ناحية نظرية تفوق البراجماتي على الأيديولوجي في فكر وممارسة الحركة. فبقرار المشاركة في الانتخابات وبقوة ونشاط أسقطت حماس عملياً معارضتها للنظام السياسي الفلسطيني الذي أعيد بناؤه وفق عملية أوسلو واتفاقاتها. وبقرارها العمل على دخول منظمة التحرير فإنها عزمت على وضع الشرعية الفلسطينية نصب عينيها، متكئة على ما راكمته من سجل مقاومي في السنوات التي مضت. أما قرار التهدئة الذي تجدد خلال فترة وجود حماس على رأس الحكومة وتم تأكيد تجديده وتوسيعه في اتفاق حكومة الوحدة الوطنية، فقد عزز من ناحية ثانية واقعية حماس وإخضاعها لكل استراتيجياتها، بما فيها «الجهاد»، لمنطق التقدير السياسي. وهو ما كرره أكثر من قائد في حماس من أن العمل العسكري ليس هدفاً في حد ذاته، بل وسيلة لتحقيق الأهداف.

وقد انعكست «حزمة» القرارات تلك على واقعية برنامج كتلة حماس الانتخابية: التغيير والإصلاح، وهو برنامج يمثل من ناحية نظرية أهم وثيقة أصدرتها الحركة تقطع مع «ميثاق حماس» الذي صدر في آب ١٩٨٨ وكان طافحاً بتصورات خيالية وخطاب مغرق في ذاتيته إلى جانب سطحية وسذاجة أضرت بحماس في لاحق سنواتها (يكفي مثلاً استناد بعض مواد الميثاق إلى الكتاب الملفق «بروتوكولات حكماء صهيون» وتكرار خزعبلاته). قدم البرنامج



وجدت حماس نفسها تغرق فى تفاصيل الحياة اليومية لملايين الفلسطينيين الذين كانوا الضحية الأولى للحصار الاقتصادى

الانتخابى الطموح والمتفائل الذى خاضت حماس الانتخابات بناء عليه صورة جديدة عن حماس، حماس التى تضع نصب عينيها قيادة النظام السياسى الفلسطينى وليس معارضته. فبإضافة إلى التأكيد على صيانة الحقوق الفلسطينية، وتأكيد حق المقاومة، تضمن البرنامج تعهدات كثيرة منها محاربة الفساد، وإصلاح القضاء، والرعاية الصحية، والاهتمام بالشباب، والمرأة، والمواصلات، والبيئة، والتعليم، وأورد تفصيلات والتزامات لا تفترق فى مضامينها عما يورده أى حزب فلسطينى آخر. وبطرح ما لا تزيد نسبته بين ١٠ إلى ٢٠ فى المائة من بعض التعبيرات الدينية والإشارات البلاغية هنا وهناك، فإن ما تبقى من برنامج حماس الانتخابى يتوافق تماما مع أى برنامج واقعى لأى تنظيم فلسطينى آخر. وقد تواصلت واقعية حماس فى كل ما تفعله فى محيط حماس خلال وبعد الانتخابات، وتكرست مع حكومتها.

هذه الواقعية «الحماسية» التى ترسخت خلال سنة أول حكم لحماس، تكونت من ناحية تاريخية على ثلاث أرضيات. أولها الجذر الإخوانى لحماس وما يحاول أن يوفره من مناهج تعامل عملية وبراجماتية مع الواقع تنطلق على أساس إصلاحه وتغييره تدريجيا وليس على أساس التخلص منه ثوريا وجذريا ودفعة واحدة. فالفكر الإخوانى المؤسس لفكر حماس لا يتصف بالثورية الاجتماعية أو السياسية، ولا يقطع مع الواقع ويتعالى عليه بل ينطلق منه. ورغم عدد من الانزلاقات الفكرية هنا وهناك عن هذا المسار العام فى عموميات وشعارات الفكر الإخوانى، إلا أن تفاعله مع الواقع وانصياعه المباشر وغير المباشر لاشتراطاته يسوق بكثير الحمولة الأيديولوجية التى لو حدث أن زاد ثقلها فى فكر وممارسة الإخوان (وحماس) لقاد ذلك إلى انحسار تلقائى وتدريجى لنفوذهم وشعبيتهم. باختصار، تبلور الفكر والقناعة والخبرة الإخوانية (والحماسية) منتج سياسة تعمل على تغيير الواقع من داخله وتبعاً لما يوفره من وسائل عملية وليس من فوقه وتبعاً لما تنادى به الأيديولوجيا من وسائل نظرية.

الأرضية الثانية التى تكونت عليها سياسة حماس الواقعية، كما تبدت خلال العام الماضى، هى اتساع حجم الحركة وامتداد شعبيتها وتشعباتها والجمعيات الخدمية التابعة لها وما يتفرع عنها من التزامات مع شرائح شعبية عريضة، خاصة فى أوساط الفقراء. إضافة إلى ذلك تكثف علاقاتها مع أطراف عديدة، سواء فى الساحة الفلسطينية، أو العربية، أو الدولية، وما فرضه ذلك من ضرورة صوغ خطاب وسياسة مقنعة ومفهومة تكرس مكتسبات الحركة وتزيد منها. ويؤدى اتساع نطاق الحجم والشعبية لتبلور اعتبارات وحسابات دقيقة ضاغطة على أى حركة تدفع باتجاه البقاء فى مربعات الواقعية بهدف الحفاظ على الامتداد الأفقى للحركة وعلى بقاء تواصلها مع قواعدها الشعبية، وللحفاظ على شبكة علاقاتها الخارجية. بمعنى آخر، يمكن القول بأنه كلما اتسع النطاق الأفقى لأى حركة وأصبحت علاقاتها مع محيطها الاجتماعى والسياسى والدولى مركبة كلما أعادت إنتاج نفسها مصلحيا وواقعيا وأعادت تأهيل شعاراتها الأيديولوجية الكبرى وفق معايير جديدة. ومن هنا قلنا أن نلحظ أن التنظيمات الأقل حجماً وتأثيراً والمحدودة الانتشار شعبياً تكون أكثر راديكالية فى تعاملها مع الواقع، وأكثر تحرراً من اشتراطاته، وأشد تشبثاً بما تراه من أحلام وتطلعات أيديولوجية وطوباوية. لكن ينطبق عليها نفس «القانون»، إذ لو ازدادت شعبيتها وتعقدت طبيعة علاقاتها ومصالحها وحساباتها مع الواقع فإن التآكل التدريجى فى يوتوبيا أيديولوجياتها يبدأ فعله شبه الحتمى دافعا الحركة نحو علاقة أكثر جدلية مع الواقع، وقائمة على فكرة تغييره من داخله وبما يوفره من وسائل عملية.

الأرضية الثالثة التى كرست واقعية حماس السياسية هى الظرف الموضوعى المحيط بقضية فلسطين. فهنا احترقت أصابع حماس فى نار السياسة المعقدة التى قلصت خيارات الفلسطينيين (منظمة التحرير وحركة فتح وبقية التيارات الفلسطينية قبل حماس) وحشرتهم فى زوايا بالغة الصعوبة. فاللحظة التى فازت فيها حماس فى الانتخابات وسيطرت على أثرها على السلطة الفلسطينية، هى ذات اللحظة التى تمثل خلاصة تدهور الوضع العربى والإسلامى وتشرذمه، وتراجع قضية فلسطين على الأجندة الإقليمية والدولية لصالح قضايا أخرى (العراق، أفغانستان، الحرب الأمريكية على الإرهاب... إلخ). وهى ذات اللحظة التى ما زال فيها ميزان القوى يميل بلا رحمة ضد الفلسطينيين ولصالح إسرائيل ويجعل هذه الأخيرة لا تشعر بأى ضغط حقيقى للاستجابة حتى لمشاريع الحلول السلمية التى لا تحقق إلا جزءاً يسيراً من الحقوق الفلسطينية.

فى قلب هذه اللحظة الصلدة وصلت حماس إلى الحكم، ولمست عن قرب وعلى أرض الواقع التعقيدات التى تواجه الشعارات الكبرى التى حفلت بها أدبياتها هنا وهناك. وعوض أن تشرع حماس فى تطبيق تلك الشعارات وترسم على الأرض ما يختلف عما رسمه النظام الرسمى الفلسطينى الذى سبقها وكانت تعارضه، وجدت نفسها تغرق فى تفاصيل الحياة اليومية لملايين الفلسطينيين الذين كانوا الضحية الأولى للحصار الاقتصادى الذى فُرض عليهم وعلى الحكومة التى انتخبوها. والمهم هنا هو التأمل فى مقادير الواقعية التى أحاطت بحماس من كل جانب ووضحت بجلاء تعقيدات الوضع الفلسطينى واعتماده على المساعدات الغربية بالدرجة الأولى (وليس العربية والإسلامية)، وكذا تعقيدات الوضع الإقليمى والدولى إزاء المسألة الفلسطينية والإمكانات الفعلية للتحرك ضمن الهوامش الضيقة، وكرست بالتالى واقعية حماس وممارستها.

رهانات الوحدة التنظيمية

مما لا شك فيه أن عددا لا يُستهان به من الاكتشافات الصادمة لم يتح لحماس أن تطبق برنامجها الانتخابى الذى شاركت على أساسه فى الانتخابات التشريعية. لكن تمكنت حماس من أن تجد لنفسها مكاناً رئيسياً فى قلب النظام السياسى الفلسطينى وشرعيته التمثيلية، بفضل الانتخابات والسيطرة على الحكومة وعدم السقوط رغم الحصار، تحولت حماس من حركة معارضة للنظام السياسى إلى جزء منه. بيد أن هذا التحول لا زال فى مراحله الأولى وقد يحمل رهانات خطيرة تتحدى أهم ما تميزت به حماس فى السنوات الماضية وهو وحدتها التنظيمية وعدم بروز انشقاقات فيها. وربما أمكن القول أنه لولا الأرضيات الثلاث التى ذكرت أعلاه والمؤسسة لقدرة كبيرة عند حماس على التأقلم الواقعى ومحاولة اجتراح معادلات حساسة بين ما هو أيديولوجى وما هو براجماتى، لكان مصير الحركة قد آل إلى التمزق والانشقاقات بسبب حدة التحولات التى طرأت على حماس ذاتياً وموضوعياً. من أجل هذا قد لا نجانب الصواب إن اعتبرنا أن النجاح الأكبر لحركة حماس خلال العام الماضى هو مرورها بهذه التجربة الصعبة والمفاجئة من دون أن تتصدع، وبالبقاء موحدة.

ولتوضيح هذا التقدير علينا أن نتأمل فيما يلى: يعد قرار المشاركة فى الانتخابات بحد ذاته افتراقاً استراتيجياً عن الموقف التقليدى لحماس المعارض لاتفاق أوسلو والمؤسسات التى أفرزها بما فيه المجلس التشريعى. وتأكيداً لهذا الموقف كانت حماس قد رفضت المشاركة فى انتخابات عام ١٩٩٦ على اعتبار أنها ناتج من نواتج أوسلو، يهدف إلى تكريس أحد مؤسساته (المجلس التشريعى). فى عام ٢٠٠٦ وضعت حماس كل جهدها للمشاركة فى نفس الانتخابات، رغم أنها حاولت تسويغ ذلك بالقول بأن عملية



فلسطين [illegible]

مع فوز حماس في الانتخابات، ثم تشكيلها حكومة بمفردها، ثم انخراطها في حكومة، نحن أمام تغير كبير في طبيعة وشكل الشرعية الفلسطينية

أوسلو واتفاقاتها قد انتهت وماتت وأن الانتخابات تجرى بعيداً عنها. وفى سياق الدفاع السياسى والدينى عن الموقفين، كل فى وقته، كان بعض علماء الدين القريبين من حماس قد أفتوا بحرمة المشاركة فى الانتخابات الأولى، فيما شددوا على وجوب المشاركة فى الانتخابات الثانية، بما يشير، مرة أخرى، للحاق الدينى بالسياسى عند حماس وليس العكس. المهم هنا أن مثل هذا القرار كان من الممكن أن يخلق توترات كبيرة داخل حماس، خاصة أنه ترافق مع تكرس التهدئة من طرف واحد تقريباً بما يعنى تكبيل الجناح العسكرى عند حماس عن العمل.

بعد فوز حماس وتشكيل الحكومة نشأت تحديات هائلة، أولها فلسطينية داخلية إثر رفض كل الفصائل الفلسطينية مشاركة حماس فى حكومتها، ثم ما تلا ذلك من توترات واضرابات ضد حكومة حماس وصلت فى أسوأ لحظاتها إلى الاحتراب العسكرى وسقوط العشرات من فتح وحماس فى قطاع غزة. خلال فترات هذا التوتر كان قرار حماس موزعاً بين الداخل والخارج، بين قادة حماس فى السجون وقادتها خارج السجون، بين قادة حماس السياسيين وقادة حماس العسكريين: بين من يُعتبرون معتدلين ومن يُعتبرون متشددين، وكان من المحتمل أن يوفر هذا التشتت فى صناعة القرار أجواء «مثالية» للانشقاقات خاصة فى ظل مرحلة العطافية حادة. لكن حماس تجاوزته بنجاح أيضاً.

ثانى تلك التحديات هو الحصار الدولى المضروب على الحكومة، فى ظل ظرف إقليمى بالغ الحساسية حيث التوتر الأمريكى بلغ ذروته فى مناخ الفشل العسكرى والسياسى فى العراق، وعلى خلفية تصاعد النفوذ الإيرانى فى المنطقة. كانت حماس تعمل وسط ظروف كلها شد وجذب بين محورين: المحور الإيرانى - السورى، والمحور المصرى - السعودى. وكان ميلها إلى هذا المحور أو ذاك معناه توترات إضافية داخل حماس، وضد حماس أيضاً، خاصة مع اختطاف الجندى الإسرائيلى شاليط والأهمية التى صار يتمتع بها ملف تبادل الأسرى وفيما إن كانت حماس الداخل أو الخارج هى المسيطرة عليه.

ثالث تلك التحديات تمثل فى الخطاب السياسى الذى شعرت حماس بأنها يجب أن تتبناه لكسر الحصار الدولى أو تخفيفه على أقل تقدير. هنا أيضا كان على حماس أن تقوم بنقلة كبيرة تلتف من خلالها حول الشروط الثلاثة القاسية التى وضعتها عليها اللجنة الرباعية (الاعتراف بإسرائيل، الالتزام بالاتفاقات السابقة، ونبذ العنف). وكانت عملية الالتفاف هذه محفوفة بمخاطر سياسية وتنظيمية كبيرة وتمت بشكل تدريجى وغير مباشر وعبر وثيقة الوفاق الوطنى (المتأسسة على وثيقة الأسرى) ثم ترسخت عبر برنامج حكومة الوحدة الوطنية الذى تم التوافق عليه فى اتفاق مكة. وربما أمكن القول هنا أن هذا هو التحدى الأكبر الذى يواجه حماس الآن: الخطاب والبرنامج السياسى الذى اقترب من برنامج منظمة التحرير ووسع التهدئة لتشمل الضفة الغربية إلى جانب قطاع غزة. فبعض قادة وأفراد الحركة يرون الآن أنها قد قدمت تنازلات كبيرة على صعيد الموقف السياسى، وأنها بإعلانها «احترام» الاتفاقات السابقة فإنها عملياً تندرج فى سياق العملية السلمية واتفاقات أوسلو. وهذا يضيف أيضاً توترات داخلية قد تهدد وحدة الحركة.

وهكذا فإن معالم «المقايضة الكبرى» التى يبدو أن حماس قد انخرطت فيها تتمثل فى تخفيض السقف السياسى والمقاومى والاقتراب من برنامج منظمة التحرير الفلسطينية، مقابل تكريس الوجود السياسى فى قلب الشرعية الفلسطينية التمثيلية. ولأن قبول وجود حماس فى قلب هذه الشرعية ليس شأناً فلسطينيا بحتاً إذ له استتباعات إقليمية ودولية مركبة، فما كان بإمكان حماس أن تحصل على ذلك من دون عملية الالتفاف على الخطاب السياسى، وإقناع أطراف عربية ودولية بأن هذه الخطوة لا تمثل قطعاً جذرياً مع الإرث السياسى والاستراتيجية الفلسطينية العامة التى صارت محكومة بالاتفاقات مع إسرائيل وتحوم فى حدها الأقصى حول مفهوم حل الدولتين، الذى صارت حماس تقبله بلا شروط.

وعلى العموم ومن دون التورط بتوقعات ورسم سيناريوهات مستقبلية يمكن القول إن الاختبار الكبير الثانى الذى تمر به حماس الآن، بعد اختبار السيطرة على الحكومة الذى مرت به فى السنة الماضية، هو اختبار صيانة مشروع حكومة الوحدة الوطنية وإنجاحه. ونجاح حماس سيتمثل فى استمرار الحكومة وصمودها لمدة الثلاث سنوات القادمة. والنجاح الأكبر سيتمثل فى عقلنة الخطاب الفلسطينى وتوحيده على برنامج سياسى وطنى موحد: وجسر الهوة بين الخطاب الوطنى الفلسطينى والخطاب الإسلامى الفلسطينى.

وبكل الأحوال قدمت تجربة حماس فى الحكم ولا زالت تقدم فصولاً ثرية فى مسألة تعامل الإسلاميين الوسطيين مع السياسة. فهنا تنزع الشعارات الكبيرة نحو أن تتواضع وتتخفف من ثقل الأيديولوجيا وبذلك يصبح تنافس الإسلاميين مع خصومهم فى أى ساحة وطنية قائماً على أساس البرامج السياسية وليس الوعود الكبرى، أو استخدام الشعارات الدينية والعاطفية. وهذا كله يعمل على إنضاج التجربة الديموقراطية فى أى حالة من الحالات حيث يتم تجريد الحركة الإسلامية (هنا أو هناك) من سلاح استخدام الشعار الدينى وتوظيفه للحشد الانتخابى، وبالتالى خوض غمار المنافسة على قاعدة التساوى السياسى بين الإسلاميين ومنافسيهم. وهكذا، وفلسطينياً، يصبح اندراج حماس فى مربع السياسة الواقعية مكسباً وطنياً لأنه يحشد الإمكانيات فى إطار ما هو ممكن، عوض أن تظل محلقة فى آفاق بعيدة المنال تقدم مسوغات للعدو أكثر مما تقدم إنجازات للذات.

ومن ناحية أشمل، ولأن حماس هى الحركة الإسلامية الوحيدة فى المنطقة التى وصلت للحكم فى العقود الأخيرة عن طريق الانتخابات الديموقراطية الحرة والنزيهة فإن فصول التجربة وخلاصاتها سترسم علامات استرشادية مهمة يمكن عبرها فهم وتوقع بعض مسارات الإسلام السياسى الوسطى فى المنطقة، خاصة على صعد نوعية البرامج السياسية والاجتماعية المتبناة وسياسات التحالف وبناء العلاقات الإقليمية والدولية، ومصالحة الأيديولوجى مع السياسى البراجماتى، والاعتراف بالآخر والتعامل معه ديموقراطياً، وكذلك إدارة الشأن التنظيمى الداخلى بصورة ديموقراطية وتخطى عقبات الانشقاق أو الوقوع فيها، وسوى ذلك من جوانب تكون آمنة وغير مستثارة عندما تتمتع هذه الحركات بترف العيش فى المعارضة وانتقاد الوضع القائم والدعوة إلى تغييره، من دون أن تتورط فى ذلك عملياً ويومياً.

مع الانعطافة الكبيرة فى النظام السياسى الفلسطينى التى حدثت مع فوز حماس فى الانتخابات، ثم تشكيلها حكومة بمفردها، ثم انخراطها فى حكومة وحدة وطنية، نحن أمام تغير كبير وتحول آخذ بالترسخ فى طبيعة وشكل الشرعية الفلسطينية. فالتغير الذى حدث ليس تغيراً عارضاً، حتى لو لم تفز حماس بالأغلبية فى أى انتخابات تشريعية قادمة. أصبح وجود حماس فى معادلة القيادة الفلسطينية، من ناحية الشرعية ومن ناحية التمثيلية، واقعاً محلياً وإقليمياً ودولياً. وأهم من ذلك يعمل على ردم الهوة بين برنامجين (برنامج المقاومة الحمساوى، وبرنامج الحل السلمى الفتحاوى) اشتغلا على إحداث الضرر المتبادل فترة طويلة من الزمن. وتطرح حكومة الوحدة الوطنية فرصة لتجربة تاريخية قد تنشئ إن نجحت تقاليد جديدة وترسخ شرعية جديدة وبرنامجاً فلسطينياً موحداً يمكن بناء عليه مواجهة إسرائيل بجبهة موحدة (سلماً أو مقاومة)، لكن هذه المرة من دون أن تكون الجهود المبذولة من فتح وحماس كل على انفراد يزرى بعضها بعضاً. ■

حــــدود اللــوبى الإســرائيلى..

"الســـؤال الحـــائر"



محمـــــد حســـنين هيكـــل

في ختام دورة مكثفة عن «سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط» نظمتها «مؤسسة هيكل للصحافة العربية» وحاضر فيها البروفيسور ستيفن والت Stephen Walt أستاذ العلاقات الدولية بجامعة هارفارد، ألقى الأكاديمي الأمريكي المرموق محاضرة عن «جماعات الضغط الإسرائيلية في الولايات المتحدة» وهي المسألة التي كانت موضوعا لمقال اشترك في كتابته مع منظر العلاقات الدولية الشهير وزميله السابق في جامعة شيكاغو جون ميرشايمر John J. Mearsheimer وأثار جدلا واسعا عند نشره في الدورية الرصينة London Review of Book (مارس ٢٠٠٦) قبل أن يصدر في كتاب احتل مكانا بارزا على قائمة New York Times للكتب الأكثر توزيعا.

ترحيبا بضيفه ألقى الأستاذ هيكل كلمة «قصيرة» سبقت محاضرة «والت» في الجامعة الأمريكية بالقاهرة (٢٩ مايو الماضي) تحدث فيها عن السؤال الحائر الذي من شأنه أن يستدعي بالضرورة .. «السؤال الأهم».

«وجهات نظر» تنشر هنا الكلمة.. والمحاضرة.

مرة أخرى نتوجه إلى الجامعة الأمريكية في القاهرة - وإلى رئيسها الدكتور «دافيد ارنولد» بالشكر والتقدير، إذ نجد أبواب هذه الجامعة مفتوحة - مرحبة وحفية دون عائق أو شرط - لمناسبات تخص مؤسسة «هيكل للصحافة العربية».

وهذه الليلة، في هذه القاعة، واحدة من تلك المناسبات، فقد سعدت المؤسسة بدعوة الدكتور «ستيفن والت» لدورة دراسية مكثفة عن «سياسة الولايات المتحدة الأمريكية خصوصا في الشرق الأوسط» شارك فيها أكثر من ستين شابا وشابة من طلائع العمل الصحفي العربي، ثم إن ختام هذه المناسبة يجيء بهذا الاحتفال الذي نسعد فيه بكم مستمعين معا إلى أستاذ مرموق في علوم السياسة الدولية - كتب مع زميل وصديق له دراسة هامة عن جماعات الضغط الإسرائيلية في الولايات المتحدة - وهذه دراسة انطلقت من جامعة «هارفارد» ومازال صداها يجوب آفاق العالم، مستثيرا عقولا وضمائر تبحث عن حق وحقيقة!

حضرات السيدات والسادة

هناك سؤال معلق يملأ آفاق هذه المنطقة منذ ستين عاما وأكثر، وهناك محاولات لم تنقطع لحل لغزه وكشف سره لكن معظم المحاولات طاشت سهاما في الفضاء لم تصب هدفا، ولم تحقق طلبا.

صميم المشكلة - حضرات السيدات والسادة - أننا دائما أمام سؤال لا جواب عليه - ملخصه:

كيف يمكن أن تكون مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط جميعها في حوزة العرب من المواقع إلى الموارد؟ - ثم تكون سياسة الولايات المتحدة في معظمها انحيازا ضد العرب، إلى درجة الجفاء والخصام.

إن هناك قاعدة بدهية - وعلمية في نفس الوقت - تؤكد أن سياسات الدول ترتبط وتسير وراء مصالحها، لكن سياسات الولايات المتحدة الأمريكية تمضي بإصرار على طريق صدام مع هذه القاعدة البدهية والعلمية - بمعنى أن مصالح الولايات المتحدة الكبرى والحيوية في هذه المنطقة عند العرب يقينا - لكن هوى السياسة الأمريكية منجذب إلى ناحية إسرائيل دواما، وبغير تنبه أو توازن يعطي للتصرفات مصداقية المنطق والعقل، وذلك هو السؤال اللغز المعلق!

إن الانحياز الأمريكي الجارف نحو إسرائيل تسبب في إساءات بالغة إلى العلاقات العربية - الأمريكية، ومع ذلك فإن العرب في ارتباكهم - وبالتحديد بعض الكبار من ساستهم - لم يقصروا في لوم أنفسهم، حتى ظهر بينهم من رأوا أن مسئولية هذه الأحوال تقع بكاملها على هذه الناحية، وليس على الناحية الأخرى مسئولية شيء منها، وعليه فإنه - بدلا من الحيرة والارتباك - يكون الأجدى للعرب ترويض الذات وتهيئة المستقبل لعصر يظهر أمامهم زمانا أمريكيا له سلطانه، وله أحكامه!

وكذلك توقف العرب عرايا أمام المرايا للبحث عن العيوب والذنوب، وغاية أملهم صنع مثال لما يتصور بعضهم أن الولايات المتحدة تريد أن تراه فيهم - وهم يتقدمون إلى طلب قبولها ورضاها.

وقد بادر أصحاب ذلك الأمل بإصرار، فأزالوا ما ظنوه تشوها هنا أو ترهلا هناك، وأصلحوا بالحقن ما راود غائرا من حفر الزمان، وعالجوا بالجراحة أنوفا وشفاها حتى تصبح أكثر اتساقا، أو أكثر امتلاء، ورفعوا جفونا وشفطوا بطونا، وجربوا بالأدوية والمساحيق والعطور مما عرفوه - أو لم يعرفوه - لكي يؤثروا ويأسروا، وبالغ الشطار منهم حتى وصلوا إلى حد تغيير الأنساب وإنكار الأصول ليعرضوا أصولا مختلفة بعد أن هيأوا الأسباب لحاضر مغاير! - ووصل بهم الأمر إلى حد إطلاق النار على مراحل من التاريخ العربي، لكي تبين صورتهم المرسومة المستجدة دون خلفيات تشوش على حسنها، وقد ظنوا أن ما صنعوه - سوف يعجب العين الأمريكية ويخطف قلبها.

حضرات السيدات والسادة

إن العرب أضافوا المال إلى الجمال حين رأوا وضع معظم استثماراتهم المادية والإنسانية، الإقليمية والعالمية، تحت تصرف الولايات المتحدة ورهن أمرها، وظلوا صابرين على رأسمالهم المادي وأرصدتهم الإنسانية أكثر من ثلاثين سنة، لم يدققوا خلالها ولم يحاسبوا، وعندما جاءت لحظة حقيقية أمام الكنيست الإسرائيلي، وفي ذكرى نكبة فلسطين يوم الرابع عشر من هذا الشهر (مايو ٢٠٠٨)، اكتشف العرب أن استثماراتهم السياسية والدولية - المعنوية والمادية - نفدت، وأن حسابهم لدى الولايات المتحدة مدين - مكشوف، وعليهم تسوية عجزه والسداد من الجسد الحي للأوطان إذا لَزِم، وإلا عرَّضوا أنفسهم للملاحقة وبعدها العقاب!

حضرات السيدات والسادة

قد ألاحظ بداعي الإنصاف وفي شبه هامش على الكلام - أننا بدأنا بعد طول الانتظار والصبر نسمع من داخل دوائر العلم والثقافة - أصواتا هامسة في الولايات المتحدة - تطرح تساؤلات عن موجبات هذا الانحياز الأمريكي المطلق لإسرائيل، وتحذر من أضراره على مستقبل المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط وعلى سلام هذه المنطقة، وحتى على مستقبل إسرائيل ذاتها - إلا أن هذه الأصوات لازالت عند درجة التمتمة الخافتة، إذا قورنت بدوي ذلك الهدير الصاخب المؤيد لإسرائيل، حتى وإن بان لنا أن بعض الضوضاء ضجة جوفاء بالتصنع، فارغة من الصدق!

حضرات السيدات والسادة

إن ذلك كله مما أطلت فيه - أو اختصرت يضاعف من أهمية السؤال وخطره، وإذا كنا حتى هذه اللحظة لم نعثر على رد مقنع على سؤال مُلح، فلعلنا في هذه القاعة الليلة نصادف مفتاحا يستطيع أن يدور في قفل تراكم عليه الصدأ، فضيفنا هذه الليلة واحد من أبرز أساتذة العلوم السياسية في جامعة «هارفارد» الدكتور «ستيفن والت»، وهو رجل صاحب علم وخبرة، وأهم من ذلك صاحب رؤية، وكذلك أترك له هذه المنصة، آملا أن نسمع صوت «تكة» - ولو خافتة - نعرف معها أن المفتاح يمكن أن يدور، وأن القفل الحديدي قابل لأن يلين، وأن تلك علامة على أن السؤال له جواب. بقي أن أسجل للأمانة أن هذا السؤال الحائر لدينا يستدعي قبله - وليس بعده - سؤالا أهم من الانحياز أو الاستقامة الأمريكية، وذلك هو سؤال المستقبل العربي، وهو مما لا يحق لنا الطلب من صديق - مهما كان علمه - مفتاحا لقفله، لأن جوابه في عهدة ومسئولية أصحاب المستقبل العربي - إرادتهم وقدرتهم - هم وليس غيرهم.

وشكرا لكم.

إن النفوذ الإسرائيلي لم يكن أمراً جيداً أبداً بالنسبة للولايات المتحدة
ولا بالنسبة للشرق الأوسط ولا حتى بالنسبة لإسرائيل

هل تقول واشنطن لا؟

ستيفن والت



■■ أتحدث إليكم عن السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط، وبشكل خاص عن دور ما يسمى باللوبي الإسرائيلي. وأريد أن أبدأ بأن أشرح قليلاً ما هو اللوبي الإسرائيلي، والأهم من ذلك ما ليس هو اللوبي الإسرائيلي، ولماذا يعد ذلك موضوعاً مثيراً للجدل. إن هذه المناقشة برمتها كانت تحدث في الظل خلال عديد من القرون من العداء للسامية، وبشكل أساسي في أوروبا. وكان جزء من ذلك نظريات المؤامرة الغريبة، مثل «بروتوكولات حكماء صهيون»، ومثل هذه الأشياء التي تصور وجود مؤامرة يهودية كبيرة للسيطرة على العالم أو السيطرة على البلاد الأخرى. هنالك كتب وصحف تكرر هذه الأشياء. ويمكنك حتى أن تجد إشارات لهذا النوع من نظريات المؤامرة في مواثيق منظمات عدة. وأريد أن أوضح منذ البداية أن ذلك ليس هو الموضوع الذي سوف أتحدث عنه. فأنا لا أومن بحقيقة نظريات المؤامرة تلك. المسألة أن اللوبي الإسرائيلي ليس نوعاً من المكيدة أو المؤامرة للسيطرة على السياسة الخارجية الأمريكية. أقول باختصار إنه مجرد جماعة مصالح، مثله مثل عديد من جماعات المصالح الأخرى في الولايات المتحدة. لذلك إذا كنتم قد جئتم إلى هنا كي تستمعوا إلى شخص ما يندد بنوع من نظريات المؤامرة الكبرى السرية، فسوف تصابون بخيبة أمل. غير أنني مع ذلك سوف أطرح أن اللوبي الإسرائيلي نافذ في الولايات المتحدة، وله تأثير عميق على سياستنا الخارجية في الشرق الأوسط بشكل خاص، وأن هذا النفوذ لم يكن أمراً جيداً بالنسبة للولايات المتحدة، ولا لبلاد أخرى في الشرق الأوسط، ولا لإسرائيل أيضاً. مرة أخرى: لا توجد مؤامرة هنا، بل مجرد جماعة مصالح مؤثرة، لها سياسات أعتقد أنها خاطئة. ولعل السبب الأساسي أنني وشريكي كتبنا مقالنا الأصلي وكتابنا، هو أننا شعرنا أن هذا الموضوع لم تتم مناقشته بشكل مفتوح، خاصة في الولايات المتحدة، وأنه حان الوقت كي نفتح النافذة، ونسمح بإلقاء بعض الضوء على الموضوع، وأن نقوم بمناقشة حقيقية في الولايات المتحدة حول ما يحدث في المنطقة. ومن ثم، فسوف أتحدث قليلاً حول علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل ثم أصف ما هو اللوبي الإسرائيلي، ثم كيف كان مؤثراً في السياسة الأمريكية خلال الأعوام الأخيرة. دعوني أتحدث قليلاً في البداية حول علاقة أمريكا بإسرائيل. قال رئيس الوزراء الإسرائيلي الراحل إسحق رابين ذات مرة أن الدعم الأمريكي لإسرائيل ليس له مثيل في التاريخ الحديث. وماقاله كان صحيحاً. فإسرائيل هي المتلقي الأكبر للمساعدات الاقتصادية والعسكرية. وهي تبلغ نحو ٥٠٠ دولار في السنة لكل مواطن إسرائيلي، وذلك بالرغم من أن إسرائيل لم تعد بلداً فقيراً. فإسرائيل ترتيبها الـ ٢٩ بين دول العالم من حيث متوسط دخل الفرد. والأهم من ذلك أن إسرائيل تتلقى هذه المساعدات حتى عندما تفعل أشياء تعارضها الولايات المتحدة، مثل بناء المستوطنات في الضفة الغربية. تتلقى إسرائيل دعماً دبلوماسياً متواصلاً من الولايات المتحدة، والأخيرة من جانبها تأخذ جانب إسرائيل في النزاعات الإقليمية طوال الوقت تقريباً. ولا يتم انتقاد إسرائيل أبداً تقريباً من جانب المسئولين الأمريكيين وبالتأكيد لا تنتقد من جانب أي شخص يأمل في تولي منصب رفيع في الولايات المتحدة. عليك فقط أن تنظر الى حملة الرئاسة الأمريكية الراهنة. حيث إن المرشحين الثلاثة الباقين، (أصبحوا الآن اثنين فقط هما جون ماكين وباراك أوباما) وكل المرشحين الآخرين أيضاً، ساروا خطوات طويلة كي يبينوا إلى أي حد هم مخلصون بشكل شخصي لإسرائيل. والسؤال هو لماذا؟ الآن الإجابة المعتادة التي يمكنك أن تسمعها في الولايات المتحدة، هي أن إسرائيل تمثل أصلاً استراتيجياً حيوياً بالنسبة للولايات المتحدة، أو أن إسرائيل هي دولة ديمقراطية تتبنى نفس القيم الأمريكية. لكنك لو نظرت عن قرب إلى هاتين المقولتين، فإنهما لا تستطيعان أن تفسرا لماذا تقدم كل هذه المساعدات، ولماذا تقدمها بطريقة غير مشروطة إلى هذا الحد.

ربما كانت إسرائيل أصلاً استراتيجياً بالنسبة للولايات المتحدة خلال الحرب الباردة. لكن الحرب الباردة قد انتهت. وتستفيد الولايات المتحدة بالفعل من بعض أشكال التعاون مع إسرائيل، لكن في مقابل ذلك، فإن إعطاء إسرائيل دعماً غير مشروط، لا يجعل الولايات المتحدة أكثر شعبية في العالم، ولا يجعل المواطنين الأمريكيين أكثر أمناً خارج الولايات المتحدة. ففي المقابل، فإن التمتع بعلاقات خاصة مع إسرائيل هو في الواقع خصم استراتيجي بالنسبة للولايات المتحدة. وفيما يتعلق بالزعم بأن إسرائيل دولة ديمقراطية تتبنى نفس القيم الأمريكية، فنعم، إسرائيل هي دولة ديمقراطية، لكن هنالك كثيرا من الدول الديمقراطية في العالم، ولا تحظى أيضاً بمثل هذا الدعم، أو بمثل هذه الصلات الوثيقة. إضافة إلى ذلك، فإن طريقة تعامل إسرائيل مع أقليتها العربية، المواطنين العرب، وبشكل خاص الرعايا الفلسطينيين، هي بالتأكيد تتناقض مع القيم الأمريكية، ومبادئ حقوق الإنسان الدولية. أعتقد أنه من الواضح من التاريخ الحديث، بما فيه التاريخ الذي كتبه مؤرخون إسرائيليون، أن كلا الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني ارتكب أعمالاً قاسية في حق الآخر، وإنه من الصعب أن نجادل بأن الولايات المتحدة يجب أن تعطي إسرائيل قدراً كبيراً من المساعدة، لأن سلوكها أفضل كثيراً من أي طرف آخر. ورغم أنني لا أقول أن سلوك إسرائيل هو أسوأ من سلوك كافة الأطراف الأخرى، إلا أنه ليس أفضل بدرجة كبيرة يمكن أن تفسر مثل هذا الدعم الأمريكي. إذاً كيف يمكن تفسير ذلك؟ طرحنا في كتابنا أن السبب الأساسي هو النفوذ السياسي للوبي الإسرائيلي. اللوبي الإسرائيلي هو تحالف فضفاض من الجماعات والأفراد الذين يعملون بشكل صريح في النظام السياسي الأمريكي من أجل دعم العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. في الولايات المتحدة، تقع جماعات المصالح في مركز عمل السياسة الأمريكية. وكان ذلك صحيحاً منذ نشأة الولايات المتحدة. ذلك أن الدستور الأمريكي يكفل حرية التجمع، ويمكن للناس أن يشكلوا جماعات ومنظمات بهدف إقناع السياسيين بعمل ما يريدون. ويمكن لهذه الجماعات عمل أشياء كثيرة للتأثير على السياسيين. يمكنها إعطاء المال للمرشحين للمناصب؛ ويمكنها جعل أفراد يكتبون مقالات وكتباً مؤيدة لوجهات نظرها؛ يمكنها محاولة الضغط على وسائل الإعلام، مما يجعل الصحف والراديو والتليفزيون تقدم معلومات تدعم قضيتها. والعديد من جماعات المصالح تقوم بذلك في الولايات المتحدة، وهو سلوك طبيعي تماما في

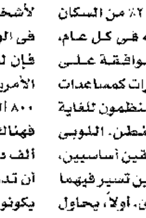
ترجمة: غادة طنطاوي

أمريكا. تقوم بعض جماعات المصالح فى الولايات المتحدة على مصالح اقتصادية، مثل جماعات العمال أو المزارعين أو الشركات أو الأطباء أو المحاسبين، وأولئك يشكلون منظمات تدافع عن مصالحهم. تعبر جماعات أخرى عن الأصول العرقية. ومن ثم فلدينا أمريكيون أيرلنديون يريدون من الولايات المتحدة أن تساند أيرلندا، أو أمريكيون هنود، يريدون أن تقيم الولايات المتحدة علاقة وثيقة مع الهند. ويرجع ذلك إلى أن الولايات المتحدة لديها مواطنون من كل أنحاء العالم، وكثير من هؤلاء مازالت لديهم مشاعر قوية تجاه بلد بعينه، ويعملون بشكل مفتوح داخل النظام السياسى الأمريكى لتشجيع ذلك. وهذا بشكل أساسى هو ما يسعى إليه اللوبى الإسرائيلى. عندما أشير إلى اللوبى وأقول إنه تحالف منظمات، فهو يتضمن جماعات مثل أيباك (لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية) American Israeli Public Affairs Committee، رابطة ضد التشهير Anti-defamation League، والجماعات المسيحية مثل «المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل» وهى منظمة مسيحية إنجيلية. ومراكز الأبحاث مثل معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، وهو يضع مقالات وكتباً تدعم جوانب مختلفة للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية، إضافة إلى مجلات ومطبوعات مثل Weekly Standard أو New Republic واللتين تتخذان مواقف مؤيدة لإسرائيل بشكل متواصل. إذاً اللوبى الإسرائيلى لديه العديد من المكونات المختلفة، والأمر المحورى هو أن كلاً من هذه المكونات يعمل بنشاط فى النظام السياسى أو المجتمع الأمريكى لأجل دعم هذه العلاقة الخاصة. إنه ليس منظمة مركزية، والمجموعات المتعددة التى تكون اللوبى الإسرائيلى لا تتفق فيما بينها فى كل الأمور. إنها بالتأكيد لا تعبر عن نوع من المؤامرة. مرة أخرى، هى مجرد جماعة مصالح مؤثرة، تعمل بنفس الطريقة التى تعمل بها الجماعات الأخرى.

وأخيراً، وهذه مسألة مهمة جداً، إن اللوبى الإسرائيلى ليس مرادفاً للسكان الأمريكيين اليهود. هناك نحو ٢٥٪ من اليهود الأمريكيين لا يبدون اهتماماً كبيراً بإسرائيل بأى شكل من الأشكال. العديد من اليهود الأمريكيين الآخرين لا يدعمون المواقف التى تدعمها المنظمات الأساسية فى اللوبى الإسرائيلى. كما أن بعض الجماعات التى تعمل لصالح إسرائيل فى الولايات المتحدة مثل «المسيحيون الصهاينة» ليست جماعات يهودية. لكن اللوبى يتم تعريفه بواسطة أجندته السياسية، لا بواسطة الانتماء الدينى أو العرقى.

إذاً كيف يعمل اللوبى الإسرائيلى؟ كما قلت فى السابق، جماعات المصالح هى مسألة مركزية فى الحياة السياسية الأمريكية. وفى الولايات المتحدة، فإن المجموعات الصغيرة نسبياً، ولها أجندة مركزية، لها موضوع واحد تهتم به، عادة ما يكون لديها تأثير أعلى من حجمهم، لأنها تهتم بدرجة كبيرة بهذا الأمر. ويستطيع السياسيون أن يحصلوا على دعمهم إذا ساروا معهم. هنالك مثل جيد على ذلك، هو لوبى المزارعين فى الولايات المتحدة. المزارعون يمثلون ٢٪ من السكان الأمريكيين الآن، ولكنه فى كل عام، يصوت الكونجرس بالموافقة على تخصيص مليارات الدولارات كمساعدات للمزارعين، لأن المزارعين منظمون للغاية ولهم نفوذ كبير فى واشنطن. اللوبى الإسرائيلى يسير فى طريقين أساسيين، هما نفس الطريقين اللذين تسير فيهما جماعات الضغط الأخرى. أولاً، يحاول أن يجعل السياسيين المتعاطفين مع وجهة نظره يُنتخبون أو يعينون فى مناصب مهمة فى الحكومة، ثم يحاول إعطاءهم حافزاً واضحاً للقيام بما يريده اللوبى. وإذا أخذنا مثال أيباك، والتى ربما تعد المنظمة الأهم فى اللوبى الإسرائيلى، إنها منظمة تبلغ ميزانيتها السنوية نحو ٥٠ مليون دولار، وهى نشيطة جداً فى واشنطن، وبشكل خاص فى الكونجرس، تساعد فى صياغة مشروعات القوانين، وتقديم معلومات لأعضاء الكونجرس. وبالرغم من أن أيباك لا تمنح الأموال للأفراد الذين يخوضون الانتخابات، فإنها تسأل أى فرد يريد أن يرشح نفسه فى الكونجرس عن موقفه فى قضية الشرق الأوسط، ويعمل ذلك على توجيه المنظمات الأخرى المساهمة فى الحملات، بشأن من تعطيه المال فى الانتخابات. فى الولايات المتحدة تسمى هذه المنظمات، لجان العمل السياسى، وهى منظمات جمع أموال، تقوم بجمع الأموال للسياسيين. ومنذ ١٩٩٢، أعطت لجان العمل السياسى الموالية لإسرائيل أكثر من ٥٥ مليون دولار لأشخاص مختلفين خاضوا الانتخابات فى الولايات المتحدة. وبالمقارنة مع ذلك، فإن لجان العمل السياسى للعرب الأمريكيين، والتى تعد قليلة، قدمت نحو ٨٠٠ ألف دولار، فى نفس الفترة. إذاً فهناك ٥٥ مليون دولار على جانب و٨٠٠ ألف دولار على الجانب الآخر. ويمكنكم أن تدركوا لماذا يميل السياسيون لأن يكونوا أكثر حساسية تجاه الجماعة التى تعطى المبلغ المالى الأكبر. أريد أيضاً أن أوضح أن اللوبى لا يسيطر على كل الانتخابات، فلا يفوز طوال الوقت الأشخاص الذين يفضلهم اللوبى. لكن كل عضو كونجرس، وكل سيناتور، وقطعاً كل مرشح لمنصب الرئيس، يعلم أنه إذا اتخذ موقفاً نقدياً تجاه إسرائيل، فإن فرصه فى الفوز تكون قليلة بشكل كبير. وذلك يفسر لماذا قال بيل كلينتون، حينما كان رئيساً أن أيباك كانت أفضل من أى طرف آخر يمارس الضغط فى واشنطن. نيوت جينجريتش، وهو عضو كونجرس ذو نفوذ، ولم يتفق كثيراً مع كلينتون، قال إن أيباك كانت أكثر جماعات المصالح العامة تأثيراً فى الكون. قال عضو الكونجرس السابق لى هاملتون، الذى ظل يخدم فى الكونجرس لأربعة وثلاثين عاماً، إنه لا توجد جماعة تناظر أيباك، فهى تشكل مرتبة فى حد ذاتها. وقال السيناتور السابق فريتس هارلنجز عندما كان يتقاعد، أنك لا يمكنك أن تتبنى سياسة تجاه إسرائيل سوى ما تعطيه لك أيباك هنا. وهذا ما يفسر قول رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت فى ٢٠٠٦ شكراً لله أن لدينا أيباك، السند والصديق الأعظم لنا فى العالم بأكمله. وربما أضيف أنه أمر مفاجئ أن مقالنا وكتابنا كانا يعتبران مثيرين للجدل، بالنظر إلى أننا فقط كنا نبحث فى موضوع أقره بالفعل صراحة سياسيون كثيرون فى الحزبين السياسيين الكبيرين. وأريد أن أذكركم مرة أخرى أن الأمر لا يقتصر على أيباك حيث يوجد عدد من المنظمات والجماعات بما فيها عدد من المنظمات المسيحية الإنجيلية.

كان ما سبق هو الاستراتيجية الأولى. الاستراتيجية الثانية تقوم على محاولة تشكيل الجدل العام فى الولايات المتحدة، حتى يصبح معظم الأمريكيين يرون إسرائيل بشكل إيجابى. ويميل الاتجاه العام فى الإعلام الأمريكى لأن يكون مؤيداً للغاية لإسرائيل، خاصة فيما يتعلق بالتعليقات الافتتاحية، وكتاب الأعمدة. وإذا ما قارنتم التغطية فى الولايات المتحدة، بالتغطية فى بلدان أوروبية، أو حتى بالتغطية فى إسرائيل نفسها، سوف تجدون أن هناك مجالاً أضيق لتعدد وجهات النظر فى الولايات المتحدة. وإذا نظرتم على سبيل المثال إلى كتاب الأعمدة فى الولايات المتحدة، فى النيويورك تايمز New York Times، أو الواشنطن بوست Washington Post، أو شيكاغو تريبيون Chicago Tribune، لا يوجد أحد يتشابه ولو بدرجة ضعيفة مع آكيفا ألدر، أو جيديان ليفى أو رامايرا



إن اللوبى الإســــرائيلى ليس مـــرادفاً للســـكان الأمريكـــيين اليهـــود. هنـــاك نحـــو ٢٥٪ مـــن اليـــهـود الأمـــريكـيـيــن لا يبـــدون اهتمـــاماً كبيـــراً بإســـرائيل بأى شـــكل مـــن الأشـــكال

هاس، الذين يكتبون جميعاً لصحيفة هاآرتس فى إسرائيل.

مرة أخرى، وجهة نظرى ليست المسألة أن الأشخاص الذين ينتقدون السياسة الإسرائيلية مثل أكيفا ألدر أو جيديان ليفى يتخذون موقفاً صحيحاً طوال الوقت، وأن المعلقين الموالين لإسرائيل دائما مخطئون. ولكن المسألة أن أصواتاً مثل ألدر وليفى تكون غائبة إلى حد كبير فى الولايات المتحدة، فلا يوجد حقاً نظير لهم هناك. والأبعد من ذلك، أنه رغم أن التغطية فى الولايات المتحدة تميل إلى تأييد إسرائيل، فإن جماعات اللوبى تراقب ما يتم نشره، وماذا تبثه محطات الإذاعة والتليفزيون، وتمارس ضغوطاً على هذه المؤسسات إذا ما قاموا بعمل أى شىء ينتقد إسرائيل. ومن ثم فعندما نشر جيمى كارتر كتابه «فلسطين.. سلام لا أبارتيد» قامت رابطة ضد التشهير بنشر إعلان على نطاق الولايات المتحدة كلها يتضمن أرقام تليفونات الناشرين، ودعت الناس الذى رأوا الإعلان أن يتحدثوا إلى الناشر ويعربوا عن شكواهم. وبشكل مماثل، عندما بثت السى إن إن مسلسلا من ثلاثة أجزاء للمقارنة بين الأصولية المسيحية والإسلامية واليهودية، قام مؤتمر رؤساء المنظمات الأمريكية اليهودية الكبرى بحث أعضائه على تناول هذا الموضوع مع أى شركة اشترت وقتًا إعلانيًا فى السى إن إن. وكان الهدف من ذلك منع السى إن إن من القيام بعمل من هذا القبيل فى المستقبل. وأخيراً، كما يعلم أغلبكم، عادة ما تتضمن الجهود لخنق الانتقاد للسياسة الإسرائيلية اتهام الناقدين بمعاداة السامية. لذلك فإن مارتن بيريتس، محرر نيو ريبابليك New Republic كتب أن جيمى كارتر سوف يذهب إلى قاع التاريخ باعتباره كارهاً لليهود. وكتبت صحيفة أخرى موالية لإسرائيل أن كارتر بالفعل متعاطف مع مجرمى الحرب. وبشكل مماثل، فإنه خلال حرب ٢٠٠٦ فى لبنان عندما سجلت منظمة هيومان رايتس ووتش لحقوق الإنسان التى تحظى باحترام كبير ولا تتبع لأى حزب، جرائم الحرب الإسرائيلية، فإن مدير هيومان رايتس ووتش، ويدعى كينيث روث، تم تلويث سمعته بشكل متكرر باعتباره معادياً للسامية، بالرغم من كون روث يهودياً بالفعل، وكون والده لاجئاً هارباً من النازيين الألمان. وكما قد تتوقعون، فإن الاتهامات بمعاداة السامية هى تهمة مشتركة وجهت لى ولشريكى فى تأليف الكتاب، رغم أنه لا يوجد أدنى دليل يدعم هذا الاتهام. وبالطبع فإن السبب الأساسى وراء استخدام بعض الجماعات والأفراد فى اللوبى الإسرائيلى لهذا الاتهام، هو أن القضية التى يدافعون عنها هى ضعيفة للغاية، ولا أعنى قضية وجود إسرائيل، والتى أدعمها، ويدعمها شريكى، ولكن قضية منح أمريكا إسرائيل مساعدات غير مشروطة. ونظراً لأن هذه القضية ضعيفة جداً، فيجب عليهم أن يحاولوا تشويه، أو إسكات، أو نفى المصداقية عن أى شخص يجرؤ على وضع الأمر رهن المساءلة، حتى أفراد يتمتعون بدرجة عالية من اللياقة مثل جيمى كارتر أو الأسقف ديزموند توتو الحاصل على جائزة نوبل للسلام، الذى واجه اتهامات مثيلة. نتيجة ذلك هى أن الجدل الجاد داخل الولايات المتحدة حول العلاقة بين أمريكا وإسرائيل كان محدوداً للغاية، خاصة فى الكونجرس، حتى فى اللحظة التى بات فيها واضحاً لكل شخص تقريباً أن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط قد سارت بشكل سيئ بالتأكيد.

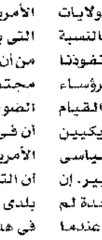
والآن السؤال هو هل نفوذ اللوبى أمر إيجابى أم سلبى؟ وسوف أفحص ذلك بشكل مختصر للغاية عبر الحديث عن موضوعين. الأول هو القرار الأمريكى بغزو العراق عام ٢٠٠٣، ثم ثانياً، سوف أتحدث قليلاً حول الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. وسوف أطرح فى الحالتين أن اللوبى الإسرائيلى كان له أثر سيئ بالنسبة للولايات المتحدة، وكذلك بالنسبة لدول أخرى فى الشرق الأوسط بما فى ذلك إسرائيل نفسها. دعونى أبدأ بالعراق. لو كان اللوبى الإسرائيلى أقل نفوذاً، كان احتمال غزو الولايات المتحدة للعراق فى ٢٠٠٣ سيضحى أقل بكثير. أرجو أن تلاحظوا أنى لا أقول أن اللوبى يتحمل المسئولية وحده عن الحرب. لكننى أجادل بأن اللوبى لعب دوراً رئيسياً فى حدوث الحرب، رغم أنه لم يكن السبب الوحيد. فى الولايات المتحدة، فإن الجماعة الوحيدة التى كانت تدفع بقوة فى اتجاه الحرب على العراق كانت جماعة المحافظين الجدد الموالية لإسرائيل، والذين يحظون بالفعل بدعم جماعات عديدة فى اللوبى. المحافظون الجدد هم جزء من اللوبى الإسرائيلى رغم أنهم ليسوا كل اللوبى. فى واقع الأمر، فإن فكرة غزو العراق برمتها بدأت مع المحافظين الجدد فى منتصف التسعينيات، وكانوا حقاً وحيدين فى الدفاع عن هذه السياسة. ومن المهم أن ندرك أنهم فشلوا فى إقناع الرئيس كلينتون فى استخدام القوة العسكرية للإطاحة بصدام حسين. كما أنهم أيضاً لم يتمكنوا من إقناع الرئيس بوش ولا نائب الرئيس تشينى خلال الأشهر الثمانية الأولى لهما فى المنصب. ثم جاءت هجمات الحادى عشر من سبتمبر، والتى ساعدت المحافظين الجدد على إقناع بوش وتشينى بأن تحقيق التغيير الإقليمى عبر البدء بمهاجمة العراق، هو فكرة جيدة. وبالمناسبة فإنه تجدر الإشارة أيضاً إلى أن القادة الإسرائيليين كانوا فى الحقيقة متشككين فى البداية بشأن جدوى فكرة مهاجمة العراق، حيث إنهم أرادوا من الولايات المتحدة أن تركز اهتمامها على إيران وليس العراق. وبمجرد أن أقنعتهم الإدارة الأمريكية بأنها ستبدأ بالعراق أولاً ثم تولى انتباهها إلى إيران، ساندت الحكومة الإسرائيلية الحرب على العراق. وساعد عدد من المسئولين الإسرائيليين الأساسيين فى تسويق الحرب هنا فى الولايات المتحدة. كما أن عدداً من المنظمات الأساسية فى اللوبى الإسرائيلى ساعدت فى إقناع الشعب الأمريكى بأنها فكرة جيدة أيضاً. فى خريف ٢٠٠٢، صوت مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية والمجلس اليهودى للشئون العامة لدعم الحرب على العراق كملجأ أخير. كتب زاكرمان رئيس مجلس الرؤساء العديد من الافتتاحيات والمقالات التى تدعو إلى الحرب. نشرت الصحيفة التابعة لأيباك والتى تسمى Near East Report، العديد من المقالات فى العام السابق على الحرب والتى تؤكد على الخطر الذى يمثله العراق، والحاجة إلى القيام بشىء إزاء صدام حسين. وفى يناير ٢٠٠٣، صرح رئيس أيباك هوارد كور للنيويورك صن New York Sun بأن أحد النجاحات التى حققتها أيباك خلال العام السابق هو الضغط القوى على الكونجرس من أجل الموافقة على استخدام القوة تجاه العراق. لكنى أريد أن أؤكد على ثلاثة أمور مهمة هنا. الأول أن الحرب على العراق لم تكن لتعبر عن النفوذ اليهودى فى الولايات المتحدة. إذا نظرت إلى استطلاعات الرأى فى الولايات المتحدة، كان اليهود الأمريكيون أقل دعماً للحرب على العراق بمقدار ١٠٪ عن الشعب الأمريكى ككل. فلم تكن المسألة نفوذ اليهود، ولكن نفوذ اللوبى، واللوبى بمن فيه المحافظون الجدد يتضمن يهوداً ومسيحيين. وكما أكدنا فى كتابنا، فإن منظمات اللوبى عادة ما تكون منفصلة عن السكان الأمريكيين الأوسع بمن فيهم اليهود الأمريكيون. المسألة الثانية



جماعات اللوبى تراقب ما يتم نشره، وماذا تبثه محطات الإذاعة والتليفزيون، وتمارس ضغوطاً على هذه المؤسسات إذا ما قاموا بعمل أى شىء ينتقد إسرائيل

التى أود التأكيد عليها هى أن اللوبى ليس نافذاً بشكل تام، ولم يسبب الحرب فى حد ذاتها. كما قلت فى السابق، هم لم يتمكنوا من جعل كلينتون ولا بوش يذهبان للحرب قبل الحادى عشر من سبتمبر. ومن ثم، لو كانت هجمات الحادى عشر من سبتمبر لم تحدث، ما كنت أعتقد أن الولايات المتحدة ستكون فى العراق اليوم. ثالثاً، المحافظون الجدد، والجماعات الأخرى فى اللوبى لم تدفع فى اتجاه الحرب لأنها كانت تعتقد أنها ستكون أمراً جيداً بالنسبة لإسرائيل، لكن سيئة بالنسبة للولايات المتحدة. فقد اعتقدوا بالفعل أنها ستكون أمراً جيداً بالنسبة للولايات المتحدة، وإسرائيل والبلدان الأخرى فى الشرق الأوسط. وقد كانوا مخطئين. ففى واقع الأمر، كانت الحرب بمثابة كارثة بالنسبة للولايات المتحدة، لكنها لم تكن أمراً جيداً بالنسبة لإسرائيل أيضاً. لأنه من هو الفائز الأكبر حتى الآن من الحرب على العراق؟ إنه إيران التى لم تعد تواجه عدواً فى العراق، كما أنها ترى نفوذها ينمو بشكل فائق. مرة أخرى، كانوا مخطئين إلى درجة مأساوية، ولكن ذلك كان يرجع فقط إلى أن الذهاب إلى الحرب فى العراق كان فكرة سيئة من البداية.

والآن دعونى أقول كلمتين بشأن السياسة الأمريكية تجاه الصراع الإسرائيلى الفلسطينى، ثم أختتم بما أرى أننا يجب أن نفعله كبديل عن النهج الحالى. لو كان اللوبى أقل نفوذاً أو كان يدعم حزمة مختلفة من السياسات، لكانت الولايات المتحدة ستستخدم نفوذها لإعاقة بناء المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية ومناطق أخرى ومنح الفلسطينيين دولة قابلة للحياة. بدلاً من ذلك بالطبع، نحن ندعم سياسة الاستيطان ونعطى إسرائيل تأييداً غير مشروط. ولكانت السياسة الرسمية لكل رئيس أمريكى منذ ليندون جونسون هى معارضة بناء المستوطنات، وكل رئيس قدم طلبات متكررة لإسرائيل لوقف المستوطنات. لكن لم يمارس أى رئيس أمريكى ضغطاً كبيراً على إسرائيل للتوقف عن بناء المستوطنات، أو هدد بتعليق المساعدات الأمريكية إذا لم تتوقف إسرائيل عن عملية الاستيطان. إن هذه السياسة ليست جيدة بالنسبة للولايات المتحدة، إن هذا الدمج بين استعمار إسرائيل للأراضى الفلسطينية والدعم الأمريكى لذلك قد أغضب ملايين البشر فى العالمين العربى والإسلامى، ومثلا واحداً من المصادر الأساسية لمشكلة الإرهاب التى نواجهها اليوم. إن ذلك ليس المصدر الوحيد للإرهاب، لكنه أحد مصادره المهمة. ومن دواعى السخرية أن هذا الوضع كان ضاراً لإسرائيل بدرجة عميقة، حيث يدرك العديد من الإسرائيليين الآن أن سياسة استيطان الضفة الغربية كانت بمثابة كارثة بالنسبة لإسرائيل. فقد أدت هذه السياسة إلى تشدد السكان الفلسطينيين، وكلفت إسرائيل مليارات الدولارات وآلاف الأرواح، بل إنها خلقت إمكانية لأن يصبح السكان اليهود فى إسرائيل أقلية يوماً ما فى الأرض التى تسيطر عليها إسرائيل. كانت الولايات المتحدة ستصبح صديقاً أفضل بالنسبة لإسرائيل لو كنا قد استخدمنا نفوذنا لوقف ذلك. لكن أياً من الرؤساء الأمريكيين لم يكن راغباً فى القيام بذلك، لأن أياً من الرؤساء الأمريكيين لم يكن راغباً فى دفع الثمن السياسى الذى يتضمنه مثل هذا التغيير. إن فكرتى هنا هى أن الولايات المتحدة لم تتصرف باعتبارها حليفاً طيباً عندما سمحت للاحتلال لأن يستمر. والسبب الرئيسى فى أننا لم نغير سياستنا هو تأثير اللوبى. لا يصب هذا الوضع فى مصلحة أى طرف، كما أنه يتناقض بشكل جوهرى مع أحد المفاهيم المقبولة بدرجة واسعة حول العدالة واللياقة. تخيلوا للحظة أنه تم عكس الأدوار، وكانت هناك دولة فلسطينية قوية تأخذ الأرض من السكان اليهود فى فلسطين، وتقوم بانتظام بإنكار حقوقهم السياسية. بلاشك كانت ستكون هناك عاصفة من الاحتجاج فى الولايات المتحدة وأوروبا، وكانت ستكون هناك دعوات للقوى الكبرى للتدخل. وكانت ستتم ممارسة ضغوط ضخمة على هذه الدولة الفلسطينية، حتى توقف سياساتها وتعطى اليهود بداخلها دولة خاصة بهم. لكن عندما تحتل إسرائيل الضفة الغربية، وتحول غزة إلى سجن كبير مفتوح، فإن الولايات المتحدة لم تمتنع فقط عن الاحتجاج، بل إنها تستمر فى مد إسرائيل بالمال والسلاح والدعم الدبلوماسى. ومرة ثانية، إن معظم الأمريكيين لا يقدمون الكثير بالطريقة التى ينتقدون خلالها إسرائيل، بالرغم من أن الأمريكيين يحبون أن يروا أنفسهم مجتمعاً أخلاقياً للغاية وأنهم منارة الضوء فى عالم مظلم وأكثر قسوة. غير أن فى هذه الحالة كانت السياسة الأمريكية خاطئة، وأنا أشعر بالقلق من أن التاريخ سيصدر حكماً قاسياً على بلدى يوماً ما بسبب الدور الذى نقوم به فى هذه القضية المأساوية. كيف يمكن أن نتصرف بطريقة مختلفة؟ فقط سأتناول سريعاً قليلاً من النقاط حول ما يمكن أن نسير به من هنا. يجب على الولايات المتحدة أن تعامل إسرائيل باعتبارها دولة عادية لا باعتبارها الولاية الواحدة والخمسين. إسرائيل هى دولة عمرها ٦٠ عاماً، ولديها علاقات دبلوماسية مع كافة دول العالم تقريباً، وهى دولة تتجه نحو الرفاهة بشكل متصاعد. فيجب أن نعامل إسرائيل بنفس الطريقة التى نعامل بها الديمقراطيات الأخرى، مثل انجلترا أو فرنسا أو الهند أو اليابان. فيجب أن ندعم هذه الدول عندما تقوم بأشياء فى مصلحتنا، ونعتقد أنها صحيحة، ويجب أن نبتعد عنها عندما تقوم بأفعال نعتقد أنها ضارة للمصالح الأمريكية، أو ليست فى مصلحة إسرائيل. بالتأكيد لا يوجد سبب قوى لاستمرار الولايات المتحدة فى تقديم دعم سخى وغير مشروط لدولة ثرية إلى حد كبير. يجب أن نكون ملتزمين بحق إسرائيل فى الوجود، لا بمساعيها لاستعمار الأراضى الفلسطينية. فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلى الفلسطينى نفسه، يجب أن تتصرف الولايات المتحدة باعتبارها وسيطاً أميناً وتتبنى سياسة عادلة. يجب أن نقول لإسرائيل بوضوح إن عليها الانسحاب من الأراضى المحتلة والسماح بإقامة دولة فلسطينية قابلة للحياة فوق هذه الأراضى. وضع هذه التسوية موضع التطبيق لن يكون أمراً سهلاً، ويتطلب من الولايات المتحدة والدول الأخرى ممارسة الضغوط على الجانبين. لكننى أعتقد أنه لا يوجد بديل أفضل من ذلك. ولا يتضمن ذلك أن تقوم الولايات المتحدة بالتخلى عن إسرائيل. وعلى العكس من ذلك، أعتقد أن على الولايات المتحدة الدفاع عن وجود إسرائيل فى داخل حدود ١٩٦٧، وربما مع بعض التعديلات الطفيفة، وبالمناسبة يجب أن يتم التفاوض على هذه التعديلات. وكما قلت فى مرات عديدة، إذا تم تهديد وجود إسرائيل يوماً ما، فإن الولايات المتحدة يجب أن تمد يد المساعدة، بنفس الطريقة التى تساعد الولايات المتحدة بها أية دولة صديقة يضحى وجودها محل تهديد. بمعنى آخر، يجب أن نحظى بعلاقة طبيعية مع إسرائيل، وليس علاقات خاصة. ولكن ذلك لن يتحقق حتى يتقلص نفوذ اللوبى الإسرائيلى أو حتى تدرك المنظمات الأساسية فى اللوبى أن السياسة التى ظلت تضغط من أجلها لسنوات عديدة لم تكن تدعم المصالح الوطنية الأمريكية، ولا فى صالح الدول الأخرى فى الشرق الأوسط، ولا فى صالح إسرائيل أيضاً. ■



الدمج بين استعمار إسرائيل للأراضى الفلسطينية والدعم الأمريكى لذلك، قد أغضب ملايين البشر فى العالمين العربى والإسلامى، ومثلا واحداً من المصادر الأساسية لمشكلة الإرهاب التى نواجهها اليوم

❊ تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات. ❊

هل يمكن تطبيق الشريعة؟

جمال البنا

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨ ، ٨٢ صفحة



يختلف كثيرون حول وجوب تطبيق الشريعة، لكن أضعاف هؤلاء الكثيرين يختلفون حول إمكانية تطبيقها. والسؤال الذى يبحث فى إمكانية تطبيق الشريعة هو الأعلى والأكثر إثارة للجدل، وحتى بين الإسلاميين أنفسهم، فإن ثمة انقساماً واضحاً: هل نطبق الشريعة الآن وفوراً بصرف النظر عن معطيات الواقع وظروف الأمة، أم نهيئ الواقع ونحسن الظروف أولاً؟

المؤلف ينطلق من رؤية ثالثة تتعلق بمفهوم الشريعة نفسه، تتجاوز الإطار السلفى الذى يحكم الفكر الإسلامى المعاصر وتنادى به المؤسسة الدينية وتدعو إليه الهيئات الإسلامية، حسب قوله، وهى رؤية تستند إلى القرآن الكريم بوصفه نصاً مقدساً باجتهاد جديد، دون الوقوف عند تفسيرات السابقين الذين اجتهدوا وفق ظروف عصرهم وعلوم زمانهم، ولا تلزم هذه الرؤية نفسها بالسنة التى يرى المؤلف أنها لا تستقل بالتحليل والتحريم، وفيها ما لا يعد تشريعاً وليس لها التأبيد الذى للقرآن.

ويشير المؤلف إلى أنه توصل إلى أمرين فى هذا الإطار، أولهما أن الشريعة فى جوهرها ليست شيئاً آخر غير العدل، الذى يتم تجاوزه أحياناً لدواعى المصلحة، وأن الحرية شرط ضرورى لتحقيق الشريعة لأهدافها، ودون هذه الحرية فإن الشريعة تعجز عن تحقيق مراميها.

ويواصل المؤلف شرح تصوراته، فعملية تقنين الشريعة ستحولها إلى قانون قامع ينفر منه الناس، وليس فكراً يمشى بين الناس فيؤثر فيهم ويتأثرون به، وأما من حيث العقبات والمحاذير فأهمها أن المجتمع غير متهيئ لتطبيق الشريعة الآن، ليس فقط بحكم التطورات ذات الطبيعة المدنية والحداثية التى لحقت به، وإنما أيضاً لأن الاتجاهات السلفية التى تنادى بتطبيق الشريعة اليوم معظمها من السلفيين، الذين لا تصلح أفكارهم عن الشريعة للتطبيق، فهم يقاومون كل اتجاه للإصلاح والتجديد، وأما بقية شرائح المجتمع فتتوزع ما بين الطبقة الجديدة من الأثرياء المحدثين، وفلول الناصرية واليسارية والقومية، من ثم فإن تهيئة التربة لتطبيق الشريعة ليست أمراً هيناً ويحتاج إلى زمن طويل.

ويبدد المؤلف المخاوف من فكرة قيام دولة إسلامية فى حالة تطبيق الشريعة، فالإسلام ليس فيه كنيسة ولا رجال دين، وحكومته مدنية هدفها هو إقامة العدل وتحقيق إرادة الشعب، ويلاحظ المؤلف أن ثمة تداخلات بين العقيدة التى تعنى أساساً بجوهر الإيمان، والشريعة التى تنظم التعاملات الدنيوية بين الأفراد، وأن الشريعة فى تطبيقاتها المختلفة وضعت دائماً مصلحة المجتمع فوق مصلحة الفرد، ويدلل على ذلك باجتهادات عديدة فى موضوع حد السرقة يناقش بعضها باستفاضة، ويطالب فى الفصل الخامس بتعميق العقيدة قبل تطبيق الشريعة، ولكن أى عقيدة، إنها تلك التى لا تجعل من اجتهادات السابقين - وهم بشر معرضون للصواب والخطأ - نصوصاً مقدسة.

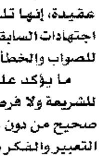
ما يؤكد عليه المؤلف أنه لا حياة للشريعة ولا فرصة لتطبيقها على نحو صحيح من دون حرية، وبالأخص حرية التعبير والفكر بما تنطوى عليه من تأسيس أحزاب ونقابات وجمعيات أهلية وإصدار صحف، وأنه لا حياة لهذه الشريعة من دون توخيها العدل ومصلحة الجماعة، بعيداً عن التفسيرات الحرفية للنصوص.

❊

الرواية ذاكرة مفتوحة

محمد برادة

القاهرة: آفاق للنشر، ٢٠٠٨ ، ١٤٤ صفحة



النص التخييلى كما يعنيه المؤلف هنا، هو ذلك النص الذى يمنح إمكانيات واسعة لإعادة محاورته فى سياقات اجتماعية مختلفة وفى ازمنة متعددة. وهناك نصوص خالدة حملت هذه الإمكانية واشتبك المبدعون مع أفكارها ودلالاتها الاجتماعية والجمالية مثل رائعة الكسندر ديماس «الفرسان الثلاثة»، وكذا محكيات «ألف ليلة وليلة» و«البؤساء» لفيكتور هوجو، و«ثلاثية نجيب محفوظ»، و«مائة عام من العزلة» لماركيز، وغيرها من الأعمال الكبرى.

هذه الإمكانية هى التى تجعل من هذه النصوص «التخييلية» ذاكرة مفتوحة على ذاكرات القراء والمبدعين، ويرسخ إسهامها فى نسج الملامح الأساسية للمتخيل الاجتماعى الجمعى الذى يسهم بدوره فى تشكيل الهوية.

بهذا المعنى يناقش المؤلف رواية «دون كيخوته» لسيرفانتيس، وهى رواية أجمعت كافة التنظيرات والتحليلات النقدية على أنها من النصوص الرائدة التى فتحت الطريق أمام الرواية الحديثة بإشاعة روح الدعابة فى النص، عبر هدمها نمط الكتابة الروائية الذى كان سائداً فى ذلك الزمن، والقائم على القصص الغرامية وقصص الفروسية والقصص التى تعنى بالروح المثالية والعواطف النبيلة، ومع ذلك فإن سرفانتيس - بحسب المؤلف - لم يكن واعياً للثورة التى يدخلها فى عالم الرواية، ولا مدركاً لعناصر الحداثة التى تتضمنها روايته، إنما جرى ذلك اتساقاً مع ما جرى فى التاريخ الأدبى كله، أى استنفاد السائد أغراضه وعدم قدرته على استيعاب ما طرأ على الجمهور من تغييرات وما شاب ذائقته الفنية من تحولات.

وعبر تحليله لعناصر «دون كيخوته» يكشف المؤلف عن الأسباب التى جعلت منها رواية «تخييلية» ملهمة لعشرات المبدعين منذ ظهورها قبل اربعمائة عام وحتى اليوم. وبهذا التصور ايضاً يحلل المؤلف رواية «فلوبير» مدام بوفارى التى كتبها عام ١٨٥٦، والتى صارت منعطفاً بارزاً فى مسار الجنس الروائى، ويقارن بين أسلوب السرد عند بلزاك، والسرد عند فلوبير، فضيما يقوم السرد عند الأول اعتماداً على سارد عليم وكاتب يدس رأيه مباشرة داخل النص الروائى، فإنه يقوم عند فلوبير على تعددية الشخوص، فكل سرد يمر عبر إحدى الشخصيات، وهو غير حريص على توصيل رسالة بذاتها، وإنما يترك للقارئ البحث عن الدلالات داخل النص.

وفى حالة «ثلاثية» نجيب محفوظ، يصر المؤلف على أن تكسير الوصاية الرقابية على قراءتها، وممارسة قراءة حرة متحررة من الاختزالية وما يقلص رحابة النص ويخفف عمقه الفنى، هو ما يمنحها عمراً اطول، ويبقيها فاعلة داخل الحقل الروائى اليوم، وغداً.

❊

أيام الإرهاب فى السعودية

يحيى الأمير

الدار البيضاء: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٨ ، ٢١٥ صفحة



لم يكن الإرهاب فى السعودية نتيجة لأحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، فقبل ذلك بما يزيد على العشرين عاماً، وقعت حادثة الحرم المكى الشهيرة (١٩٧٩)، والتى سبقها انقسام بين موالين وموظفين فى دوائر رسمية دينية وبين معارضين ومحتجين وتكفيريين، ليظهر المحاربون الذين قاموا بعملية اقتحام الحرم، والذين تم قمعهم أمنياً، لكن خلايا التطرف النائمة وجدت لها مرتعاً، فى الخطاب الدينى الموالى غير المجابه، والذى أبقى كثيراً من أفكار التطرف، منطلقاً من أن الحل يكمن فى تلبية الكثير من المظاهر الدينية وفرضها على حياة الناس والبلاد، حتى لا يجد المتمردون ذريعة للخروج على الحاكم، وباختلاف الظروف الإقليمية والدولية ظهر التمرد فى شكل تفجيرات جديدة فى ١٩٩٦ ثم من جديد فى حادث الخبر ٢٠٠٤.

المؤلف يتابع دورات التطرف فى السعودية بدءاً من دورة الإخوان المسلمين الذين سعوا إلى تقويض حكم الملك المؤسس عبدالعزيز فى محاولته تكوين دولة وفق قيم حداثية مدنية.

وجاءت الدورة الثانية للتطرف مع عملية اقتحام الحرم فى ١٩٧٩، وفيها أعلن قائد المجموعة جهيمان العتيبى أن الحكم السعودى فاسد وموال للكفار ويقوم بنشر البدع كالراديو والتليفزيون وعمل النساء، وأعلن عن ظهور المهدى المنتظر وهو زوج أخت عبدالله القحطانى وهو أحد تلاميذ مفتى السعودية الأسبق عبدالعزيز بن باز. وكان الخطأ فى التعامل مع عملية اقتحام الحرم المكى، هو أنه تم التعامل معها أمنياً لا فكرياً، وبالتالى تم القضاء على «الحركة»، لكن بقيت «الفتنة» نائمة حتى جاء من ايقظها مستفيداً من الظروف التى طرأت فيما بعد.

يشير المؤلف فى فصول تالية إلى خطيئة غياب الوطنية والدولة والحضور الطاغى لخطاب التشدد المفضى إلى

التطرف في الثقافة السعودية التقليدية، تلك الثقافة التي تلغي الوطن بوصفه إقليمياً وشعباً وأرضاً لحساب الدين، والذي يرى في ديار الإسلام كلها أرض المسلمين اينما وجدوا، والتي تقف خلف كثير من مظاهر التطرف ضد الوطن ومؤسساته.

ويلاحظ المؤلف في تحليله لأحداث الحادي عشر من سبتمبر عدم قدرة الفقه التقليدي على صياغة موقف سياسي رشيد من هذه الأحداث ومن العلاقة مع العالم في تحولاته.

ويشير المؤلف إلى مشهد بالغ الدلالة من حادث الخبر (شرق السعودية) الذي وقع في مايو ٢٠٠٤ وراح ضحيته ستة عشر شخصاً بينهم ستة أجانب وطفل مصري، إذ دخل أحد الإرهابيين على بعض الرهائن وسألهم: هل انتم مسلمون؟ فأجابوا بنعم واستشهدوا بالمصاحف بين أيديهم، فإذا به يسألهم: إذا كنتم كذلك فأين لحاكم؟

ثمة حوادث إرهابية متعددة يوردها المؤلف في كتابه، دون أن يغفل أن حالة التدين التقليدي السائدة في السعودية تفضي إلى التشدد الذي قد يقود بدوره - مع غياب خطاب ديني وسطي ورشيد - إلى حالات قصوى من التطرف.

❊

روافد سياسية ودبلوماسية

صلاح الدين إبراهيم

القاهرة: دار الآداب، ٢٠٠٨، ٢٨٧ صفحة



قسم المؤلف روافده السياسية الى روافد داخلية وأخرى إقليمية ودولية، وبحكم عمله الدبلوماسي سفيراً لمصر في عواصم عدة، فإنه يقدم لنا خلاصة خبرته التي يستفيد فيها من تجارب دول سبقتنا في مضمار التنمية السياسية والبشرية والاقتصادية، بعضها بدأ مشواره التنموي معنا، وبعضها كان سابقاً علينا وبيننا وبينه الآن فراسخ وأميال حضارية.

يتساءل المؤلف في الشأن الداخلي: هل الديمقراطية لاتزال بعيدة عنا؟ ويجيب بعد بسط تعريفات موجزة للديمقراطية ومتابعة لما أنجزته في المجتمعات الغربية بأن المبادئ الأساسية للديمقراطية واحدة، لكن الاختلافات تنحصر في التقاليد والأوضاع الاجتماعية التي تحيط بأي دولة من الدول، والتي يمكن أن تمثل دافعاً أو عائقاً للديمقراطية، ويرى أنه برغم الخطوات الإيجابية التي حققناها في السنوات الأخيرة، فإن تطبيق الديمقراطية مازال بعيداً عنا، مازلنا بعيدين عن الديمقراطية لأنها في الأساس ممارسة: في البيت والمدرسة والشارع ووسائل الإعلام، وهي جميعاً مرافق وبيئات تعاني فقراً مدقعاً في الممارسة الديمقراطية، وهو ما يجعل نصيب الديمقراطية في حياتنا ضئيلاً للغاية.

وعلى صعيد علاقتنا بالعالم وكيفية التكيف مع الأوضاع الدولية المستجدة، يطالب المؤلف بوقفة مع النفس ومع الضمير العام، مؤكداً على أن الموضوع لا يخص الدولة وحدها وإنما يخصنا جميعاً.

وفي مجال سياستنا الخارجية وتحت عنوان «تصويب سياستنا الخارجية»، يرى المؤلف أن الاهتمام بالعلاقات المصرية السودانية من جهة، والعلاقات المصرية الليبية من جهة أخرى هو الأساس الذي ينبغي أن تبنى عليه أحد أهم روافد سياستنا الخارجية: لأن تجاهل هذين البعدين يعرض الأمن القومي المصري لخطر محدق.

وفي الإطار نفسه، يدعو إلى أن تتجه مصر شرقاً، وألا نكتفي بما فعلته منذ بدايات النهضة الحديثة وحتى اليوم، ويعني به الاتجاه غرباً، وهو يقصد بالاتجاه شرقاً، الاتجاه نحو الصين وكوريا واليابان ودول النمور الآسيوية التي استطاعت أن تصنع من قيم العمل ومن احترام القانون والالتزام بأمانة العمل قواعد أساسية لتقدمها وتطوير صناعتها.. «فالتطوير ليس شطارة أو فهلوة، بل تضحيات ضرورية، فهل نحن مستعدون لقبول هذا التحدي، أم لا يزال الطريق أمامنا بعيداً وطويلاً؟».

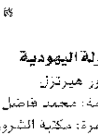
❊

الدولة اليهودية

تيودور هيرتزل

ترجمة: محمد فاضل

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧، ١٢٦ صفحة



يضع الصحفي النمساوي تيودور هرتزل في هذا الكتاب خطته لإقامة دولة يهودية، فقد انتهى إلى أنه لا حل لمعاداة السامية وكراهية اليهود إلا أن يكون لهم وطن قومي، وهذا الوطن لن يقوم إلا بمساندة كاملة من القوى الإمبريالية الغربية التي اضطهدت اليهود، وسيرد اليهود الجميل لمضطهديهم السابقين بأن يعملوا لحسابهم.

ومنذ البداية، يقر هرتزل بأن قضية اليهود - حسبما يراها - لم تعد قضية اجتماعية أو دينية، حتى وإن اتخذت في بعض الأحيان هذه الأشكال، إنها قضية قومية لا يمكن حلها إلا إذا أصبحت قضية سياسية عالمية تتم تسويتها في ظل مجلس تتشاور فيه الأمم المتحضرة.

لم يكن هرتزل متأكداً من أن اليهود جميعاً سيوافقون على اقتراحه بإقامة دولة لهم في فلسطين، خصوصاً أن كثيرين من بين هؤلاء سينظرون إلى الأمر على أنه مجرد انتقال من منطقة متحضرة إلى صحراء جرداء، لكنه كان يداعب حلماً هو حلم اليهود الأول منذ فجر التاريخ... ولكم ترددت على السنتهم عبارة العام المقبل في القدس، والقضية اليوم هي إظهار أنه في الإمكان تحويل هذا الحلم إلى واقع ملموس».

ومن ثم بدأ هرتزل في شرح فكرته وإغراء اليهود الرافضين لها، موضحاً أنه سيبنى لهم بيوتاً أكثر رحابة وجمالاً من تلك التي أقاموا فيها في أوروبا، ولكي تتحقق الفكرة، دعا هرتزل إلى تأسيس هيئة اعتبارية أو شركة يطلق عليها اسم تجمع اليهود، وبالإضافة إليها سيكون هناك شركة يهودية تعمل كجهاز اقتصادي منتج.

وفي الأقسام التالية يبدأ هرتزل في تفصيل فكرته من خلال الشركة اليهودية والمجموعات المحلية وجمعية اليهود.

وهو يوضح في القسم الخاص بالشركة اليهودية الخطوط العريضة لإنشاء الشركة: أنشطتها ومبانيها وعمليات شراء الأراضي ونظام العمل وتوطين العمال، وفي القسم الخاص بالجماعات اليهودية يوضح كيفية إتمام عملية التهجير وتشجيع الناس عليها والفوائد التي يمكن أن تعود عليهم بفعل هذه الهجرة. ويجيب هرتزل عن تساؤل: لماذا صار ذلك الآن ممكناً بعد أن كان مستحيلاً من قبل، بأن الإنجازات التقنية والمال سيجعلان ذلك ممكناً، فضلاً عن الإيمان بالفكرة، يقول هرتزل: هاهي ذي أيها اليهود، ليست خدعة أو خرافة، يمكن لكل شخص أن يختبر حقيقتها بنفسه، لأن كل واحد سيحمل معه جزءاً من الأرض الموعودة، جزءاً من رأسه، وآخر في يده، وثالثاً من ممتلكاته المكتسبة.

وهكذا - على ما يبدو - تحول حلم هرتزل إلى حقيقة.

❊

شبكة كارلايل

فرانسوا ميسان

ترجمة: محمد التبر

بيروت: دار بيسان، ٢٠٠٧، ٢٨٨ صفحة



سمحت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية - بعكس ما أنذر أيزنهاور قبل ذلك بعقود - للبنتاجون أن يضع نفسه بين أيدي شركات السلاح، وهو سيناريو خطير يهدد الديمقراطية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي العالم كله، وقد باتت هذه الشركات هي المهيمن اليوم على مقدرات العالم، هي التي تشعل الحروب في أماكن عديدة فيه وتسوق إلى الموت مئات الألوف دون أن يعرفوا حتى لماذا عليهم أن يموتوا.

أما «كارلايل» فلم تكن سوى - بالنسبة للمؤلف حتى العقد الخامس من عمره - اسم لفندق تقصده النخبة في وسط نيويورك، حتى قرأ مقالاً في «النيويورك تايمز» يقرن الاسم بشركة تتاجر في أشياء كثيرة، منها الدبابات والطائرات الحربية، وتقوم في الوقت نفسه بمشروعات كبرى على طريقة تسليم المفتاح، وتعطي المساهمين فيها أرباحاً تزيد نسبتها على ٣٥٪، وهو ما أثار اهتمام المؤلف، الذي قرر أن يغوص في أعماق الجغرافيا السياسية لهذه الشركة، ولعامين كاملين اعتاد أن يمر من شارع بنسلفانيا حول مقرها، وأن يتابع أخبارها ونشاطاتها بدأب ودقة، وكانت مفاجأة كاملة بالنسبة له، أن يجد عشرات الأسماء من علية المجتمع الأمريكي شركاء فيها: مديرين عاملين لشركات تصنيع السلاح، مسئولين عن شركات المرتزقة التي توفر ما تحتاجه الحروب منهم في أي مكان في العالم، شخصيات كبرى في وزارة الدفاع الأمريكية، أما العدد الأكبر من المساهمين فهم محامون ومستشارون للرئيس بوش في كافة المجالات، وهو ما يعني أن «كارلايل» أكبر بكثير من مجرد شركة استثمار مالي، إنه ناد يضم العديد من المسئولين السياسيين والعسكريين الذين يجمعهم الحرص على تحقيق أكبر قدر من المكاسب في أقصر فترة ممكنة، ولتحقيق هذه

الغاية، اختاروا أسرع الطرق: النفط وتجارة السلاح.

المؤلف، هو الصحفي الوحيد الحائز على جائزة «بولتيزر» وجائزة «البرت لوندر»، وقد تخصص طوال نصف قرن من عمره المهني في إجراء التحقيقات الصحفية، وهو الآن، وقد جاوز الثامنة والستين، وجال في مختلف أرجاء العالم مميطًا اللثام عن أكثر الصراعات عنفًا وضراوة حول العالم، يكشف لنا عن طبيعة الدور الذي تلعبه مجموعة «كارلايل» التي جعلت على رأس أولوياتها الاستثمارية أن يحتل قطاع الصناعات العسكرية مركز الصدارة بين تفضيلات السلطة الحاكمة في واشنطن منذ تولى بوش الابن الرئاسة، وهكذا بدأت المؤسسة المالية تمارس تأثيرات سياسية بالغة الخطورة والأهمية، وقد جرت تنميتها على يد «فرانك كالوتشي» وزير الدفاع الأمريكي الأسبق وأحد أقطاب تيار المحافظين الجدد.

❋

حصاد الذاكرة

أحمد إبراهيم الفقيه

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٨، ١٨١ صفحة



نشرت هذه الباقة من حصاد الذاكرة في شكل يوميات بجريدة «الشرق الأوسط»، وتتنوع اهتماماتها بين الثقافي والسياسي والاجتماعي والفني، وهي في مجملها حصاد انشغال بالشأن العام العربي والإنساني العام. وفي مرات كثيرة يعمد المؤلف إلى عقد المقارنات بين مجتمعاتنا العربية ذات القيم والتقاليد المحافظة، ومجتمعات الغرب التي تعيش عصر ما بعد الحداثة، أو يعقد مقارنات بين ما نحن عليه اليوم، بعد أن صرنا «معولمين» رغم إرادتنا، وما كنا عليه حين كانت تحكمنا قيم العائلة الكبرى والقبيلة الأكبر. وغالبًا ما يفعل ذلك بأسلوبه الأدبي البسيط الذي يجنح إلى الإيجاز والتكثيف، مثلاً نقرأ تلك المقالة التي يحكي فيها عن لقطة بسيطة في إحدى مدن الغرب، حين كان يقف في طابور في أحد المتاجر الكبرى، ولاحظ أن من يقف خلفه لا يحمل سوى زجاجة حليب فقط، فأشفق عليه من انتظار قد يطول حتى ينتهي هو من حساب مشترواته الكثيرة، لكن الرجل رفض هذا الإيثار وأصر على أن يبقى في دوره، وهو موقف - كما يشير المؤلف - له دلالة على قيم الفردانية المتأصلة في المجتمع الغربي، والتي تجعل كل فرد متمسكًا بحقوقه واثقًا في كفاءة النظام الاجتماعي وعدله، فيما تبقى قيم القبيلة وما تحمله من قيم فرعية من نوع الواسطة والتوصية والعشم والنفوذ هي المسيطرة على مجتمعاتنا العربية، وقد تحولت إلى قانون يسود حياتنا يتضاءل إلى جواره أي قانون أو تنظيم.

وينتقل من هذه القضية الكبرى إلى قضية كبرى أخرى، وإن كانت أكثر علاقة بالفرد ذاته وهي قضية السعادة، وهو يدعونا إلى تأمل لحظات السعادة تلك، وتثبيتها في كادر الصورة وتذكرها واستعادتها.. «لا تدعها تمر دون أن تصافحها وتأخذ صورة تذكارية معها: فهي ستبقى زادًا يعينك على عبور الأيام القاسية المضنية».

وفي مقال ثالث يتحدث عن معنى الصداقة، وكيف أن كثيرين ممن نتصور أنهم أصدقاء حميمون لنا، يتبدلون فجأة وتتكشف لنا نواقصهم ونتساءل كيف أننا لم نر منهم هذه العيوب من قبل، وكيف أننا أوليناهم ثقتنا ومحبتنا سنوات طوالا قبل أن نكتشف أنهم ليسوا جديرين بهذه الثقة وهذه المحبة. ويفسر المؤلف ذلك بأن هذه تشبه مرحلة يسميها علماء النفس حالة الكمون التي تنتظر فرصة أن تعبر عن نفسها إلى مرحلة الظهور والتعبير عن الوجود، وأن هذا الصديق الذي أظهر لنا وجهًا آخر لا نريده ولا نعرفه، ليس دليلاً على أن خطأ أصحاب الكون أو أن العالم فقد نواميسه وقوانينه، إنه حالة يكثر أمثالها في كل مكان وزمان.

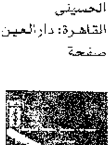
بهذا المزج والانتقال بين الشخصي والعام يبسط المؤلف أمامنا حصاد تجاربه وذكرياته بأسلوب أدبي بسيط.

❋

عندما أسمع كلمة مدونة

جمع وتعليق: محمد كمال حسن - مصطفى الحسيني

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٨، ١٣٢ صفحة



في المدونات لا أحد يتكلم نيابة عن أحد، هي الحرية المطلقة والفوضى العارمة أيضًا. أصوات جديدة طازجة، وآراء تحركها مشاعر تلقائية ولغة بلا محسنات ولا بديع. إبداع يحمل شروطه الخاصة ورؤاه الخارجة عن أي قانون، حوار حميم ودافئ وشرس أحيانًا، بين أشخاص قد لا يعرف أكثرهم بعضهم البعض، لكنهم يصرون على التواصل والبوح والتنفيس، وإشراك الآخرين في خصوصيات كانت تختبئ قبل ذلك خلف جدران عالية من الصمت والخجل.

يجمع هذا الكتاب شذرات من ثلاثين مدونة وقع عليها الاختيار بين أكثر من ٢٥ ألف مدونة مصرية، تغطي تفاصيل هذا المشهد الجديد اللاذع، الذي قدر له أن يلعب دورًا كبيرًا في حياتنا المعاصرة، انتخبها من أعدا الكتاب على مدى خمس سنوات، وهي تكشف عن مواهب في كتابة القصة وطرق مبتكرة في السرد غير معتادة، بعيدة تمامًا عن النمطية، وقريبة جدًا من العصر الذي نعيشه ويعيشه أصحابها: مثلاً في مدونة «البراء أشرف» عتاب من حبيب لحبيبته التي تفعل تقريبًا كل شيء لا يعجبه، حتى إنها أخيرًا قررت أن تعمل لدى محسن الذي نسج حولها شباكه وأوقعها في غرامه وهو يخاطبها في النهاية: عارفة أنا بحبك قوي ونفسي نتجوز بقى، ونقعد نبني في بيتنا ونسدد أقساط أوضة النوم اللي هنشتريها بالتقسيط من المحل أبو اسم طويل ورخم بعد ما محسن بيه اتوسط عشان ناخدها بالتقسيط.

وفي مدونة أشرف توفيق «فيلم هندي» يهزأ فيه أشرف من أحوالنا التي تشبه فيلمًا هنديًا بطله أميتاب باتشان، وكما هي عادة الأفلام الهندية في ذاكرة المصريين جرعة كبيرة جدًا من الرومانسية واللا منطق وتطويل وممل بلا داع ونهايات لا منطقية لأنها أساسًا بنيت على مقدمات غير منطقية، وهي مكتوبة بروح فيها سخرية عالية ودربة وقدرة على الإيجاز تدل على موهبة حقيقية. وفي مدونة «عايزة أتجوز» غادة عبد العال: استعراض خطابها الذين لم تستقر على واحد منهم، وتكشف في مدونتها واحدة من الحكايات التي تجد البنت نفسها سطرًا يلوكه الأقارب والجيران ضمنها دون أن تعرف كيف ولماذا.

لكننا سنجد أيضًا مدونات ذات طبيعة جادة ومحرضة من نوع مدونات خالد الصاوي ومدونة أفندينا ومدونة ملكة حسين ومدونة أحمد فؤاد نجم «الفاجومي»، لكن القاسم المشترك في هذه المدونات جميعًا كما قلنا سابقًا، أنها مكتوبة بلغة حميمة وذكية وبها قدر كبير من الوعي والرغبة في البوح، وأنها ضد المحو والرقابة.

❋

مطالعات في السياسة والثقافة

السيد أمين شلبي

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٨، ٢٦٤ صفحة



قراءات لكتب أعجبت المؤلف، وهو دبلوماسي وعضو بالمجلس المصري للشئون الخارجية، عمل لفترة طويلة في سفارات مصر بالعديد من الدول العربية والأجنبية، إلا أن اهتماماته تتجاوز السياسي إلى الشئون الثقافية والفكرية العامة، فضلاً عن مطالعاته في الأدب العربي والأجنبي.

بين ما يعرض له المؤلف قراءة لكتاب عفاف لطفي السيد «مصر في عهد محمد علي»، هو كتاب «عملاق» في موضوعه، برغم الكتابات الكثيرة التي ظهرت عن هذه الفترة المهمة في التاريخ المصري المعاصر، وتأتي أهمية الكتاب بسبب موضوعيته العلمية الحاسمة، واعتماده على وثائق مصرية لم يسبق لبحث أن نقب فيها واستفاد منها، وكانت النتيجة الأبرز التي توصلت إليها الباحثة، هي أن محمد علي برغم إنجازه غير المنكور، فإنه لم يخترع نظامًا اقتصاديًا كاملاً أقام عليه نهضته الكبرى، وإنما نقح ووسع النظام الذي أقامه المماليك قبله، ومن ثم جاء نظامه استمرارًا للنظم القديمة، أما أصالة محمد علي - كما تقول - فتكمن في أنه تعلم من أخطاء أسلافه وجمع أفكارهم في برنامج متماسك.

يقدم المؤلف أيضًا قراءة لكتاب ديستوفيسكي «مذكرات تحت الأرض»، وفيها ينظر ديستوفيسكي إلى الجانب الأضعف من العالم، ومثل الرجل تحت الأرض أدرك ديستوفيسكي ازدواجية السلوك البشري، واكتشف في البشرية غريزة عميقة تميل للفوضى والنفس والعدمية، هذا يعني أن الرجل من تحت الأرض، هو رجل منقسم على نفسه يعاني انفصامًا: فلا هو خير ولا هو شرير، موزع بين الفضيلة والرذيلة، وقد صدر هذا الكتاب عام ١٨٦٤ وقت أن كان ديستوفيسكي في الأربعينيات، في منتصف عمره ويعاني أزمات فكرية ومادية طاحنة، وفيما بعد كان على العالم أن يعيد اكتشاف صاحب الجريمة والعقاب والمقامر والأبله والممسوسون والإخوة كرامزوف.

كما يعيد المؤلف قراءة تشيكوف من خلال كتاب الناقد السوفيتي «إيليا اهرينبرج» الذي احتوى على دراسة حملت

هذا العنوان «قراءة جديدة لتشيكوف»، وقد كانت قراءة تشيكوف وقدراته المميزة مرجعها إلى ارتباطه بعصره، فلم يتورط في خيالات حالمة. وهذا ما يفسر الحضور الدائم لشخصياته في كل زمان ومكان.

يكتب المؤلف أيضًا عن الكاتب الألماني الشهير هيرمان هسة من خلال ترجمة الدكتور مصطفى ماهر لروايته «لعبة الكرات الزجاجية»، التي أودع فيها هسة خلاصة فكره وفلسفته ورؤيته للعالم.

مطالعات أخرى عديدة في السياسة والثقافة: تحمل رؤى وأفكار مؤلفيها، وتحمل بالضرورة وجهة نظر من يطالعها، ويعيد صياغتها، أعني المؤلف.

※

قيم تربوية في الميزان

حامد عمار

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨، ٢٨٠ صفحة



يضم الكتاب عددا من الدراسات التي كتبها المؤلف الذي يكنَّى دوما في أوساط المتخصصين بشئون التربية والتعليم بـ «شيخ التربويين»، هي مقسمة إلى أربعة أقسام: مفاهيم وقضايا مهنية، في محاولات إصلاح التعليم، قيم تربوية وثقافية هابطة، قيم تربوية وثقافية رفيعة.

وفي موضوع التعليم والتربية تبدو العلاقة بين الفرد والمؤسسة في شتى تجلياتها التي تتأرجح دوما بين القبول والرفض، رفض الفرد لوصاية المؤسسة، وإذعانه في أحيان كثيرة لما تفرضه بوصفها صاحبة الحل والعقد بحكم الواقع والظروف.

لكن شيخ التربويين يرفض بشكل قاطع وصاية المؤسسة، ويطالب بالانتقال من منهج التربية القمعية إلى منهج التربية التحريرية، والأولى لا تمنحنا سوى أفراد وجماعات تطبيقية وأمثلة من الخانعين المتبلدين فاقدي القدرة على التفكير الإيجابي والمبادرة، ويقدم نماذج تطبيقية وأمثلة لما صادفه في حياته العملية التربوية الطويلة، باحثا وأستاذا ومشرفًا على مئات من رسائل الماجستير والدكتوراة.

بين القيم الهابطة في مجال التعليم ما يشير إليه المؤلف بـ «النقل والتزييف في البحث والتأليف» ويقصد به سطو الباحثين على جهود باحثين آخرين دون إشارة إلى المصادر الأصلية التي نقلوا منها، ونسبة جهودهم إليهم دون وازع، ويحكي عن تجربة واقعية شهد بنفسه وقائعها، ومن «بدع الفساد التعليمي» يشير إلى استخدام العنف من قبل المدرسين تجاه تلاميذهم، وهو عنف يصل إلى حد تكسير العظام، أو العنف الذي يمارسه الطلاب ضد مدرسيهم، وهي حالات حرص المؤلف على تحليل أسبابها ودوافعها، وبرأيه فإن الدروس الخصوصية سبب رئيسي في شيوع مثل تلك الحالات لأنها شوهت العلاقة بين طرفي المعادلة في العملية التعليمية، وأضعفت المعلم في مواجهة الطالب، إذ يشعر الطالب بأن أستاذه إما أن يبتزه لإجباره على الدروس الخصوصية، أو أنه يسترضيه ليستقطبه إلى مجموع من يأخذون عنده دروسا خصوصية.

في دراسات أخرى يحلل أسباب انتشار المدارس الخاصة وكذلك الجامعات الخاصة، والانهيار الحاد في التعليم الحكومي الإلزامي والعالي، ويتساءل ونحن معه: من ينحاز للفقراء، بعدما صار التعليم مشروعا استثماريا وابتعد عن كل هدف نبيل.

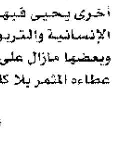
ثمة دراسات أخرى عديدة يتناول فيها المؤلف مخاطر غياب الأنشطة والفنون عن المدارس، والحضور الطاغي لأفكار التطرف والإرهاب بين المدرسين والتلاميذ، وشيوع ثقافة التلقين والتلخيص بديلاً عن إشاعة روح الابتكار والتفكير والتدبر، فضلاً عن مقالات أخرى يحيي فيها عدداً من النماذج الإنسانية والتربوية، بعضهما رحل، وبعضها مازال على قيد الحياة يواصل عطاءه المثمر بلا كلل.

※

تحولات الرواية العربية

مصطفى عبدالغني

القاهرة: كتاب الجمهورية، ٢٠٠٨، ١٨٠ صفحة



يدرس المؤلف روايات عدة عبر فصول الكتاب تطبيقًا لرؤاه حول تحولات الرواية العربية، بادئًا بالعلاقة بين العولمة والفكر الأدبي الحديث. فأي تأثير تركته العولمة بما أتاحته من معارف وروابط وعلاقات وتطور تكنولوجي في الرواية، وخصوصاً عبر ظواهر التشظي وصرعة التفكيكية وعمليات تسليع الأدب، ويستشهد بشهادات للروائي اللبناني إلياس خوري والعالم الدكتور نبيل علي والعالم اللغوي الدكتور حافظ دياب.

ويدرس في الفصل الخاص بتطور الوعي القومي في الرواية عدداً من روايات مبدعي المغرب العربي: «الغربة» لعبدالله العروي، «الطفولة» لعبدالمجيد بن جلون، «المرأة الوردة» لمحمد زفزاف، «اليتيم» لعبدالله العروي، «مجنون الحكم» لسالم بن حميش، «مثل صيف لن يتكرر» لمحمد برادة، «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي، حيث سعى إلى دراسة خصوصية المجتمع المغربي وخصوصية أدبائه، وتنبيههم إلى خطورة المركزية الغربية، وما يحول دون وصولهم بالوعي القومي إلى غايته.

ويلاحظ في دراسته عن الأفكار الأساسية للرواية العربية والتي تدرس فيها روايات للسوري حيدر حيدر واللبناني إلياس خوري والسوري نبيل سليمان والمصري محمد عبدالسلام العمري والسعودي تركي الحمد أن قضايا مثل الديمقراطية والتقدم والوعي بالتاريخ المعاصر هي أهم القضايا التي دارت حولها أعمالهم.

وفي فصل آخر بعنوان الرواية وحقوق الإنسان يدرس رواية الأديب السوداني مروان حامد الرشيد «منكورو»، خصوصاً أن النص يلقي ظلالاً مهمة على الأحداث التي تجري في السودان ومعاناة أهله من الحروب الأهلية المتشابكة بين أبطاله.

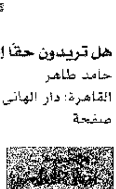
تتعدد فصول الكتاب، وتتعدد النماذج التطبيقية التي يقدمها المؤلف من روايات المبدعين العرب من الشرق والغرب.

※

هل تريدون حقًا إصلاح التعليم؟

حامد طاهر

القاهرة: دار الهاني للنشر، ٢٠٠٨، ٣٤٩ صفحة



يحمل سؤال العنوان استنكارًا أو تشكيكًا في النوايا، فهو يعني أن من يتحدثون ليل نهار عن إصلاح التعليم لا يريدون إصلاحه فعلاً، أو هم في أحسن الأحوال لا يبصرون طريقهم نحو تحقيق هذا الهدف.

قسم المؤلف كتابه إلى أربعة أقسام تضم عشرات المقالات. يتناول الأول منها التعليم من الحضانة لمكتب التنسيق، والثاني عن إصلاح الجامعات والتعليم العالي والثالث عن أحوال البحث العلمي والدراسات العليا، ويطرح الفصل الأخير أفكاراً جديدة لتطوير التعليم.

بين هذه الأفكار مثلاً فكرة التعليم الموازي، ويعني به «التعليم بسعر التكلفة» للقادرين، دون أن يؤدي ذلك إلى إلغاء التعليم المجاني، بل هو في الحقيقة يصب في مصلحته، إذ سيمكن من موارد هذا النوع من التعليم تطوير التعليم المجاني، لكنه يضع ضوابط لهذا النوع من التعليم، فلا يكون الالتحاق به لكل طالب مهما كان مستواه أو مجموعه، بل في حدود ٥٪ أو ١٠٪ أقل من المجموع المحدد للكلية حسب مكتب التنسيق، وفي هذه الحالة نحقق للطالب المتفوق أمله في الالتحاق بالكلية التي يريدها والتي ربما حالت نصف درجة بينه وبينها، كما أننا نحمي الطلاب من جشع بعض الجامعات الخاصة التي تغالي في مصاريفها ولا تهتم إلا بجمع الأموال بصرف النظر عن أهلية الطالب وقدراته.

ويطرح المؤلف فكرة أخرى حول ما يسميه التعليم الابتكاري، وهو يقوم على فلسفة مغايرة تماما لفلسفة التعليم التقليدي. وهذا النوع من التعليم يتجه نحو مخاطبة عقل الإنسان وتدريب حواسه واستثارة خياله ووجدانه، فهذا النوع يجعل الأنشطة الفنية والإبداعية جزءاً أساسيًا في نظام التعليم وليست زوائد اختيارية، وهذا النوع من التعليم برأي المؤلف يشجع التلاميذ على طرح الأسئلة والتساؤلات، ويستثير طاقاتهم وخيالهم، ويجعل فكرة التدريب اليدوي والابتكار جزءاً من اهتمام الطالب الراغب في التفوق، ويبدأ هذا التعليم من الحضانة حتى الجامعة، وفيما يمكن اعتباره محاولة لربط التعليم باحتياجات المجتمع وحاجات التنمية، يقترح المؤلف إنشاء مدارس تخصصية. وتقوم الفكرة على إنشاء كل مؤسسة كبيرة مدرسة متخصصة في تدريب الطلبة على مجال نشاط المؤسسة، وأن توضع مناهج عملية تخدم هذا النوع من التعليم، وهذه الفكرة تحقق هدفين، أولهما ارتباط التعليم ببيئة التنمية، وثانيهما محاربة البطالة، لأن الطالب الذي سيتلقى تعليمه في هذه المدارس التخصصية سيلحق

مباشرة فور تمام تدريبه بالمؤسسة صاحبة المدرسة، وبين الأفكار الطريفة التى يقترحها تدريس الأمثال الشعبية والتى هى فى رأيه خلاصة حكمة الشعب المصرى ومعارفه.

هذه بعض الأفكار التى يضمها الكتاب، والتى تمس مباشرة مستقبل التعليم فى مستوياته المختلفة.

■

نافورة اللهيب

ماهر شفيق فريد

القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٨ ، ٢٩١ صفحة



يضم الكتاب مقالات ودراسات نقدية تتناول العقاد وأمين الخولى وعبدالرحمن بدوى ومحمد جبريل وشفيق مقار وتوفيق عبدالرحمن وصلاح الدين البستانى، ومشكلات الترجمة. ثم دراسات فى آداب أجنبية، وأخيرا ترجمة لمختارات من نقد الشاعر الإنجليزى المولد الأمريكى الجنسية و. هـ أودن (١٩٠٧ - ١٩٧٣)، والذى كان أبرز شعراء عقد الثلاثينيات من القرن الماضى.

ويعرض المؤلف كذلك لعدد من المعارك الأدبية التى تميز بها القرن العشرون، وهى معارك تعكس انشغالاً بالشأن الأدبى والثقافى، كما تشير إلى رجال أفذاذ تحاوروا حول قضايا كبرى، برغم بعض الشطط وغلبة الهوى أحيانا، وهو أمر لا تخلو منه معركة أدبية أو فكرية أو سياسية، من ذلك مثلا تلك المعركة التى اشتدت رحاها بين العقاد وأمين الخولى على صفحات جريدة الأخبار، ثم دراسته عن أمين الخولى وعبدالرحمن بدوى وقد كان كلاهما داعية لتجديد التراث وتنقيته والتمييز بين الجوهرى والعارض فيه، وقد كان عبدالرحمن بدوى هو الذى لفت الانتباه إلى صاحب «المقابسات» أبو حيان التوحيدى ووصفه بأنه أديب وجودى فى القرن الرابع الهجرى، وقارنه بالأديب التشيكى كافكا الذى اعتبر الكتابة ضربا من الصلاة، وقد ضرب الخولى وبدوى «مثلا» لنفخ أنفاس الحياة فى التراث وبعث جمراته الخامدة ورؤيته من منظور معاصر.

ويكتب المؤلف عن شفيق مقار الذى يعتبره واحداً من كبار الأدباء والمترجمين والمبدعين الذين ضربوا بسهام إبداعهم فى مجالات عدة، وهو أديب جاوز الثمانين يعيش الآن فى غربى استراليا.

ومن المعاصرين يكتب المؤلف عن رواية محمد جبريل القصيرة «كوب الشاى بالحليب»، ويرى أنها تنم عن دلائل قدرة فنية فائقة تميز بها جبريل منذ «تلك اللحظة» (١٩٧٠) حتى «مواسم الحنين» (٢٠٠٦)، وهو يجمع بين كثافة النسيج الواقعى ورهافة الجمالى الذى يستخدم الرمز والصورة والمجاز بقصد وحساب، وهو من القلائل الذين تبرأ أعمالهم من الحشو والتزويد، ويتابع من كتابات جبريل «أيضا» كتابه «سقوط دولة الرجل» ورواية «البحر أمامها» ورواية توفيق عبدالحميد «أيام حياتنا» وفى الأدب العالمى يكتب المؤلف ويترجم عن قضايا وأشخاص ومناسبات بعضها نعرفه، وبعضها يكشف هو النقاب عنه للمرة الأولى.

■

المخطوطات الألفية

يوسف زيدان

القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٨ ، ١٩٥ صفحة



المخطوطة اصطلاحا هى ما خُطَّ باليد، أي أنها عكس المطبوع. لكن ليس كل ما خُطَّ باليد على ورق أو ما شابه يمكن اعتباره مخطوطًا، فالمخطوطة تكون فى علم من العلوم أو فرع من المعارف، وقد تكون جامعة لأكثر من علم، كما أن بعض المؤلفين وضع أكثر من علم فى المخطوطة الواحدة بحيث إذا قرأت طوليا كانت فى علم ما، وإذا قرأت عرضيا كانت فى علم آخر. ومنه كما يقول المؤلف ما كتبه القاضى شرف الدين إسماعيل بن المقرئ اللمنى، إذ كتب خمسة كتب من تأليفه على نحو شبيه بالكلمات المتقاطعة وجعلها بعنوان: الشرف الوافى فى الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافى.

أما المخطوطة الألفية فهي تلك التى مضى عليها ألف سنة، ونظرا للتفاوتات بين التاريخين الهجرى والميلادى، فقد اعتبر المؤلف أن المخطوطات الألفية هى تلك التى كتبت حتى سنة ٤٥٠ هجرية وما قبلها ولا تزال باقية إلى اليوم. ويحصرها المؤلف فى المخطوطات العربية، ويستدل على ألفية المخطوطة من تاريخ نسخها. وإن كان بعض النُساخ قد اعتاد نقل تاريخ النسخ الموجود فى النسخة الأقدم على الكتاب (أى يقوم بنسخه: إما عن جهل بأهمية التوثيق أو عمداً لإضفاء قيمة اكبر على المخطوطة. ولذلك فإن مؤشرات أخرى توضع فى الحسبان لمعرفة تاريخ المخطوطة منها نوعية الورق الذى كتبت عليه وطبيعته وعلامته المائية، وطبيعة الحرف العربى الذى كتبت به المخطوطة وضبطه وشكله وغيرها من الشواهد التى توجد فى آخر المخطوطة.

وللمخطوطات الألفية قيمة أثرية كبيرة. فضلا عن قيم أخر: مضافة اكتسبتها بانتقالها عبر رحلتها الألفية من خزانة إلى أخرى ومن عالم إلى آخر، وأن تدوينات كثيرة تضمها حوافها على شكل هوامش أو حواش، وهى بهذه الإضافات تسمح بقراءات متعددة وروايات مختلفة للكتاب الواحد.

ثمة قيمة مضافة أخرى للمخطوطة تتعلق برصدها لتحولات الكتابة العربية التى انتقلت من الخط الكوفى الجامد إلى أنواع أخرى أكثر ليونة. فضلا عن التطورات فى ضبط الحروف ونقط الكلمات وتنسيق الفقرات. بالإضافة إلى نوعية الورق المستخدم.

ويحصر المؤلف فى الكتاب المخطوطات الألفية فى الخزانات الخطية فى دول العالم جميعها شرقا وغربا. ويقدم فى الفصل الثالث إطلالة على مخطوطات الإسكندرية الألفية المحفوظة ضمن مجموعة بلدية الإسكندرية، ويخصص الفصل الرابع للمخطوطات التى هى فى طريقها لأن تصبح ألفية، وفى الفصل الخامس عرض لبعض المخطوطات الألفية الموزعة فى مكتبات العالم ويقدم فى الختام نماذج مصورة منها.

■

نشيد الأنشاد

عزمى بشارة

بيروت - الدار البيضاء

المركز الثقافى العربى



تعبير عن النص، وعن الروح بملكات التعبير الفني وبالصورة الأدبية، الشاعرية، وبجمالية اللغة والصورة معاً.

هذا ما يراه عزمي بشارة في «نشيد الأنشاد الذي لنا».

نص أدبي نسج بهذه الخصوبة، أي بالتعبير الجمالي الحسي الراقي لغة وصورة.

إنه إيقاع يصور ويعبر عن مشاعر وهواجس إنسان على لسان عاشقة في علاقتها مع محيطها الإنساني والطبيعي، بما فيه من مشروع شخصي وعام وفجيعة شخصية وعامة، وبما فيه من تفاصيل الحياة.

يرتبط المؤلف بها متأثرا متابعاً للتفاصيل عارفاً بكل ما تحمله.

هذا ما فعله بشارة أيضاً في عمليه الأدبيين السابقين، الصادرين عن المركز الثقافي العربي: «الحاجز» و «حب في منطقة الظل».

يستخدم الكتاب إيقاع اللغة وجماليتها للتعبير عن حالات حنين، وحب وعشق، وحلم وخيبة، ووقفات مواقف وجودية أخلاقية... وكلها على لسان الحبيبية في العلاقة مع الذات والمحب من تفاصيلها الصغيرة اليومية الى التسامي الذي يلامس المقدس الى اقتحام الطارئ الغريب وولوج الاغتراب الى عالم المحبين وتكيف النفوس والمجتمعات الميتة مع الظلم والكذب.

والأداة لهذا كله هي معارضة أدبية جمالية لنص كنعاني قديم يكاد يكون أغنية أفراح حسية شديدة الارتباط بطبيعة المكان بين أغاني الرعاة وردود المزارعين تستحضر روح الإله تموز الذي ورثته التوراة في سفر تحت عنوان «نشيد الأنشاد الذي لسليمان».

ولا يخفى هنا ما يحمله هذا العنوان «نشيد الأنشاد الذي لنا» من إحالة على نشيد سليمان وترجمة الحالة الحسية في العلاقة مع طبيعة نفس البلاد الى صراع أجيال مع ذلك النص الذي يعتبره المؤلف من تراث البلاد وليس من الكارثين عليها.

فهو يتصارع معه ويترجمه الى حالة روحية وحسية بلغة حواس عصرنا فاتخذت الحياة الحسية أبعاداً أخرى في الروح.

هذا نص أدبي إيقاعي (إيقاعية!! كما يقترح المؤلف في البداية)، إنه حوار الذات مع ذاتها، ومع الموجودات، والايقاع نص يقاوم التشظي والغربة والاغتراب في علاقة حب ترتب الحلم والأسطورة على مكان يتجدد في بقائه.

■

■ ■ العلاقة بين الزعامة وإدارة السلطة مثار بحث عميق من منظري علمي الإدارة والسياسة لكن المفكر الأمريكي الشهير جوزيف ناي راح يمزج ما بين تلك المقاربات عن الزعامة ومواصفات القيادة وبين القوة الناعمة والقوة الخشنة وهو صاحب إسهامات مهمة في تطوير مفهومي القوتين في العقود الأخيرة بما يضعه في مصاف الكبار في علم السياسة والعلاقات الدولية. ولم يكن مستغرباً أن يأتي الباحث الكبير في عام الانتخابات الأمريكية ليطل على المشهد السياسي بمؤلف غير عادي، على حد وصف برينت سكوكروفت المستشار السابق للأمن القومي الأمريكي، يجتاز حدودا عدة ليقدم مقاربة هي بمثابة مقدمة في دراسات الزعامة لم تحدث من قبل. وهو يسعى إلى الإجابة عن أسئلة حيوية: كيف يظهر الزعماء؟ وكيف نميز بين الجيد والسيئ من الزعماء؟ وكيف يمكن

أن كل المرشحين الثلاثة المتبقين وهم هيلاري كلينتون وباراك أوباما في الصف الديمقراطي، وجون ماكين مرشح الحزب الجمهوري، أعضاء في مجلس الشيوخ. ورغم أن المشرعين من نواب الكونجرس يتمتعون بالعديد من المهارات القيادية، إلا أن قدراتهم الإدارية غير مؤكدة في الأغلب. ويلفت النظر إلى أنه يعمل تحت إدارة عضو مجلس الشيوخ حوالي مائة موظف، وقد يصل عدد العاملين ضمن حملته الانتخابية إلى عدة مئات آخرين. ولكن هل يستطيع عضو مجلس الشيوخ أن يدير فرعاً تنفيذياً يضم الملايين؟ هذا هو سؤال «ناي» المبدئي عن أي رئيس سوف يصل إلى البيت الأبيض في يناير ٢٠٠٩. ويقول في المقدمة إن ثلثي الشعب الأمريكي اليوم يشعرون بأن بلادهم تعاني من أزمة قيادة وهم لا يثقون في زعمائهم سواء كانوا سياسيين أو رؤساء عمل أو رؤساء جامعات أو قادة رأي عام

المديرين بأنهم هؤلاء الذين تتلخص مهمتهم في تبني مسارات عمل محددة والسعي إلى تحقيق الاستقرار، بينما يتحمل الزعماء المجازفة ويحدثون التغيير. والمؤسسات تحتاج إلى «الزعماء» و«المديرين». غير أن الزعماء أكثر أهمية. وطبقاً لتعبير أحد الخبراء فإن الائتلاف بين المديرين الأكفاء والزعماء الفاشلين لن يقود إلى النجاح. يعمل الزعماء الناجحون على تكوين الفرق التي تجمع بين هذه الوظائف؛ ويحرصون على الاستعانة بمرؤوسين يمكنهم التعويض عن النقائص الإدارية لدى الزعماء. منذ عهد قريب تجدد الاهتمام بالزعماء كمديرين. حيث البصيرة بلا تنفيذ لا تشكل أية قيمة. والزعيم يحتاج إلى القدر الكافي من المهارات الإدارية لضمان وضع الأنظمة في المكان الصحيح، وعلى النحو الذي يسمح لها بتوفير المعلومات اللازمة لاتخاذ القرارات السليمة وضمان

الجديدة. على سبيل المثال، ومن التحليل المتعمق والذي يحمل مفارقة واضحة، يكشف ناي أن جورج دبليو بوش، وهو أول رئيس للولايات المتحدة يحمل درجة الماجستير في إدارة الأعمال، كان في هذا السياق أضعف من والده، الذي كان يعرف كيف يدير مجموعة متميزة من المستشارين. في هذا السياق أيضاً، سبق أن وصف ستيفن هادلي، مستشار الأمن القومي الثاني للرئيس بوش، فترة ولاية بوش الابن - الأولى - بالقول «إن إدارتنا تستحق درجة جيد جداً في ابتكار وتنمية السياسات، إلا أنها تستحق درجة ضعيف في تنفيذ هذه السياسات».

يزعم الخبراء أن الأنظمة جيدة التصميم تشبه الإخراج المسرحي لقصة ما. فهي تشجع الممثلين على الدخول والخروج بشكل سليم ودون توجيه مباشر. إلا أن الإخراج المسرحي لا يكفي. إذ إن الناس يحاولون دوماً تطويع الأنظمة

الزعامة.. وفقدان الزعيم

للزعماء في عالم اليوم إعلاء قيمة الابتكار والتجديد بما يجعل المرؤوسين أكثر رغبة في اتباعهم؟

وينبع البروفسور ناي - الذي يقوم بتدريس منهج السياسة في القيادة في كلية جون كنيدي للحكومة بجامعة هارفارد - مسلكاً جديداً في تقديم كتابه إلى القراء. فهو يقدم مقاربة نظرية بالغة الرشاقة في كتابه ثم يجري تمارين عملية في مقالاته الأخيرة المنشورة في عدد من كبريات الصحف الأمريكية حول ما يحيق بالولايات المتحدة من أزمة زعامة أو قيادة سياسية واعية في ظل الرئيس جورج دبليو بوش الذي سيغادر في غضون ستة شهور البيت الأبيض بعد ثماني سنوات من القيادة المفتقدة لبوصلة الإدارة الجيدة، فيما يحلل قدرات المرشحين الحاليين عن الحزبين الديمقراطي والجمهوري. وفي سبيل ذلك، يشرح جوزيف ناي أنه للمرة الأولى منذ عقود سوف يتولى رئاسة الولايات المتحدة أحد أعضاء مجلس الشيوخ. إذ

في وسائل الإعلام. لكن مأزق القيادة أو الزعامة لا يقتصر على الولايات المتحدة وحدها فالنتائج نفسها خرجت من بلدان أخرى ولكن الجديد هو وجود الأزمة الراهنة فيما يحدث تحول كبير في سياق الزعامة والسلطة في عالم اليوم. فالمعرفة قوة، والكثيرون من المواطنين اليوم لديهم معلومات ومعارف أكبر كثيراً من أي فترة زمنية سابقة في تاريخ البشرية حيث الوقت قد حان لإعادة تعريف القيادة أو الزعامة في القرن الواحد والعشرين. ولم تعد القيادة هي ذلك السياق العتيق الذي عبر عنه الرئيس جورج بوش قائلا «أنا من يقرر، وأنا أتخذ ما هو أفضل من القرارات».

يتكون كتاب THE POWERS TO LEAD أو «قدرات من أجل القيادة»، وبتعبير آخر «سلطان الزعامة»، من خمسة فصول هي القيادة، والقيادة والسلطة، وأشكال ومهارات، وذكاء السياق، والزعماء الجيدون والسيئون.

في التأسيس النظري يقول ناي: تميل النظرية المعاصرة في الإدارة إلى التمييز بين الزعامة والإدارة، وتحمل دور الزعماء قدرا أكبر من الأهمية. بوصف

التنفيذ الفعّال. ويضيف: إن الزعيم المؤثر يعمل على إدارة وصياغة بيئة اتخاذ القرار من خلال تأسيس وصيانة الأنظمة المصممة بإتقان. وتتلخص المهارات التنظيمية في القدرة على إدارة الهياكل الوظيفية والمعلومات، ومكافأة الأنظمة التابعة لمؤسسة أو مجموعة ما. ويونو ناي إلى رصد ٢٢١ تعريفا للزعامة أو القيادة في المدة ما بين العشرينيات من القرن العشرين وسنوات التسعينيات من القرن نفسه لكن تعريفه الشخصي للزعيم هو: القادر على مساعدة مجموعة من الأفراد على خلق وتنفيذ أهداف مشتركة.

ويتولى الزعماء إدارة مرؤوسيهم بصورة مباشرة، كما يلعبون هذا الدور الإداري بصورة غير مباشرة من خلال تأسيس وصيانة الأنظمة اللازمة لمؤسساتهم، وهذا يتضمن تشجيع المستويات الزعامية الأدنى في مؤسساتهم.

ويمكن القول إن الزعيم الناجح هو القادر على تولي إدارة حاشيته الداخلية من المستشارين من أجل ضمان تدفق المعلومات بدقة وفرض نفوذه على الفرع التنفيذي. ويتعين على الزعيم أن يتجنب الوقوع فيما يسميه جوزيف ناي بـ «فخ الإمبراطور»، وهو الفخ الذي يجعله لا يستمع إلا إلى الكلام الذي يطربه مثل الحديث عن وجاهة ملابسه

لتحقيق أغراضهم الخاصة، والزعيم الناجح يلعب دوراً حاسماً في صيانة استقامة الأنظمة العاملة تحت إدارته. وإذا لم يراقب كبار الزعماء أنظمتهم من أجل ضمان التدفق الكامل والدقيق للمعلومات، فلسوف ينحرف عمل الأنظمة، في الأغلب، بفعل أكثر التابعين قوة. على سبيل المثال، كان برنت سكاوكروفت، مستشار الأمن القومي للرئيس جورج بوش الأب، حريصاً على تمكين الوزراء الأقوياء في الحكومة من الاتصال بالرئيس على نحو كامل ومباشر.

وتحت إدارة بوش الابن، ظل عدد كبير من نفس الشخصيات القوية يمارس دوره، إلا أن التشوه أصاب النظام الذي يحكم عمل مجلس الأمن القومي، الأمر الذي أدى إلى انقطاع تدفق المعلومات. وكان رئيس هيئة الأركان تحت إدارة وزير الخارجية كولين باول، يصف الموقف بأنه مختلس وسري ومموه بسبب العجز الذي أصاب عملية اتخاذ القرار الرسمي. أو طبقاً لكلمات الجنرال العسكري واين داونينج، الذي عمل في البيت الأبيض: «بمرور السنوات أصبح النظام بين الهيئات جامداً وعاجزاً عن أداء وظيفته إلى حد كبت قدرة حكومة الولايات المتحدة على تطبيق صلاحياتها وسلطاتها الواسعة في وقت حدوث

THE POWERS TO LEAD
(قدرات من أجل القيادة)
Joseph S. Nye JR.
Oxford University Press, USA
2008, 240 pages

المشاكل والأزمات. ويستطيع المراقب منا أن يدرك هذا العجز فى التنسيق حين يتأمل عملياتنا فى العراق وأفغانستان، أو يستعرض سياستنا الخارجية أو استجابتنا لإعصار كاترينا المدمر.

ويجب ألا يحدث خلط بين المهارات التنظيمية المطلوبة فى شخصية الزعماء والمديرين، وبين كفاءة أو حسن تنظيم عمل المؤسسات. ولا ينبغى أن تقتصر هذه المهارات على المنظمات البيروقراطية ذات التسلسل الهرمى فى القيادة. إذ إن زعماء الحركات الاجتماعية والمجتمع المدنى أيضاً يحتاجون إلى إدارة تدفق المعلومات، سواء نحو الداخل أو نحو الخارج. وفى هذا السياق العريض يدلل حسن التنظيم والإدارة على قدرة الزعماء على ضمان التدفق الدقيق للمعلومات اللازمة لاتخاذ القرارات وتنفيذها. وهنا يكون التأثير والفعالية أشد أهمية من الكفاءة.

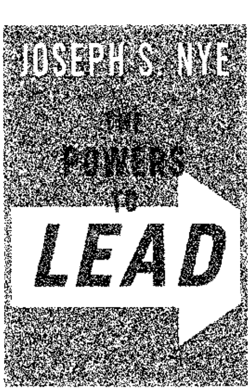
يعود جوزيف ناى إلى ضرب الأمثلة فيقول: كان فرانكلين روزفلت، على سبيل المثال، يدير منظومة غير فعّالة تتداخل فيها الصلاحيات والمسئوليات. وكان ذلك مكلفاً على أكثر من صعيد، إلا أن ذلك ضمن له تدفق المعلومات من جهات عدة وعلى نحو تنافسى بين العاملين تحت إمرته. ولم يتصور الرئيس روزفلت على الإطلاق أن هيئات العاملين تحتكر عملية إصدار التقويمات أو إدارة المعلومات، وكان من المعروف عنه أنه يسعى إلى الحصول على المشورة من أى شخص: الوزراء، ونواب الكونجرس، والكتاب الصحفيين، وجماعات المصالح، والمواطنين، وحتى الأصدقاء من حوله.

أما دوايت أيزنهاور فقد أدار رئاسة عالية التنظيم تصور البعض فى ذلك الوقت أنها تفتقر إلى الزعامة، إلا أن المؤرخين اكتشفوا فيما بعد أن أياديه الخفية كانت وراء أغلب القرارات المهمة. وكان رونالد ريجان يمارس أسلوب التفويض على نحو مفرط، ولقد نجح ذلك بسبب تمكنه من تشكيل فريق ذى قدرات عالية، إلا أن الأمر تحول إلى كارثة حين تولى الأمر مساعدوه الكبار دونالد ريجان، وجون بويندكستر، وأوليفر نورث. ورغم أن ريجان كان يتمتع ببصيرة ثاقبة، فضلاً عن براعته فى الاتصال وذكائه العاطفى، إلا أنه كان يفتقر إلى مهارات الزعامة كإدارة. فالزعيم الناجح يجمع بين هذه المهارات على النحو الذى يجعل الأنباء السيئة تصل إليه دون غربلة، الأمر الذى يمكنه من التعامل مع الأمر بسرعة.

وفى تعريف جوزيف ناى فإن القوة الناعمة هى القدرة على التوصل إلى الغاية المطلوبة من خلال جذب الآخرين، وليس باللجوء إلى التهديد أو الجزاء. وهذه القوة تعتمد على الثقافة، والمبادئ السياسية، والسياسات المتبعة. وإذا تمكنت من إقناع الآخرين بأن يريدوا ما تريد، فلن تضطر إلى إنفاق الكثير بتطبيق مبدأ العصا والجزرة لتحريك الآخرين فى الاتجاه الذى يحقق مصالحك. أما القوة الخشنة، التى تعتمد على الإكراه، فهى تُستمد من القوة العسكرية والاقتصادية. وتظل لهذه القوة أهميتها الحاسمة فى عالم يزخم بدول تهدد الآخرين، ويعج بالمنظمات الإرهابية. لكن القوة الناعمة ستكتسب المزيد من الأهمية فى منع الإرهابيين من تجنيد أنصار جدد. وفى تحقيق التعاون الدولى الضرورى لمواجهة الإرهاب. وبتعبير كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية فى بداية الفترة الثانية لجورج بوش: «حين استخدم تعبير «القوة» فإننى اقصد المعنى العريض للكلمة، وذلك لأن هناك قوى أخرى مثل قوة الأفكار والمثل العليا وقوة الأمل تأتى فى المقام الأول من الأهمية حتى قبل القوة العسكرية والقوة الاقتصادية».

وفى شأن العلاقات الدولية: سبق أن وجه جوزيف ناى اللوم للخبراء عما يسميه الخطأ، فى كثير من الأحوال، فى تحليل موقف أميركا فى العالم. على سبيل المثال، منذ عقدين من الزمان، ساد مفهوم تقليدى رأى أصحابه أن الولايات المتحدة كانت فى انحدار. وبعد عقد من الزمان، مع انتهاء الحرب الباردة، كان المفهوم التقليدى السائد يرى أن العالم كان عبارة عن هيمنة أمريكية أحادية القطبية. حتى أن بعض المحللين من المحافظين الجدد استنتجوا أن الولايات المتحدة كانت من القوة إلى الحد الذى يسمح لها بأن تقرر أن ما تراه هو الصحيح، وأن الآخرين لابد أن يتبعوا رؤيتها وهو ما سمى بـ «الأحادية الجديدة». وأثرت هذه الرؤية بشدة على إدارة بوش حتى قبل هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، ويؤكد أن الأحادية الجديدة كانت مبنية على سوء فهم عميق لطبيعة القوة فى السياسة العالمية. فالقوة هى القدرة على التوصل إلى النتائج التى يرغب فيها المرء. وسواء كان امتلاك الموارد اللازمة من شأنه أن يؤدى إلى مثل هذه النتائج فإن الأمر يعتمد على السياق المحيط بالقوة. على سبيل المثال، قد تكون الدبابة الحديثة الضخمة مصدراً للقوة إذا كانت الحرب تدور فى بيئة صحراوية، وليس فى مستنقعات، كما اكتشفت أمريكا فى فيتنام. فى السابق، كانت القوة العسكرية قادرة على الفصل فى أغلب القضايا، إلا أنه فى عالم اليوم، أصبح السياق الذى يحيط بالقوة مختلفاً إلى حد عظيم. وهذا السياق هو إحدى الركائز المهمة فى بناء تصور وقدرات جديدة للقيادة أو الزعامة فى الكتاب.

وقد كتب ناى منذ فترة مقالا شهيرا قال فيه: إن توزيع القوى فى عالم السياسة اليوم أشبه برقعة شطرنج ثلاثية. على الرقعة العليا - التى تمثل العلاقات العسكرية بين الدول - سنجد أن العالم أحادى القطبية حقاً، ومن المرجح أن يظل على هذه الحال لعقود من الزمان. ولكن على الرقعة الوسطى - حيث العلاقات الاقتصادية - فسنجد أن العالم قد أصبح متعدد الأقطاب بالفعل، ولا تستطيع الولايات المتحدة فى هذا السياق أن تحرز



النتائج التى نرغب فيها دون أن تتعاون مع أوروبا، واليابان، والصين، وغيرها من القوى الاقتصادية. وعلى الرقعة السفلية، حيث القضايا المتخطية للحدود القومية والتى تقع خارج نطاق سيطرة الحكومات - بما فى ذلك كل شىء من تغير المناخ، إلى الأوبئة، إلى الإرهاب الدولى - تتوزع القوى على نحو فوضوى، وليس من المنطقى أو المفهوم على الإطلاق أن تزعم أمريكا لنفسها الهيمنة فى هذا السياق. مع ذلك فإن أعظم التحديات التى نواجهها اليوم ناشئة على هذه الرقعة السفلية. والسبيل الوحيد إلى استيعاب هذه المشاكل يتلخص فى التعاون مع الآخرين. ففى هذا السياق لا وجود لحل عسكرى بسيط قادر على تحقيق النتائج التى نرغب فيها.

وينشغل جوزيف ناى كثيرا هذه الأيام بالبحث فى شخصيات المرشحين للرئاسة فى الولايات المتحدة وقدراتهم على تطوير مهارات الزعامة والقيادة فى ضوء السياقات السابقة الداخلية والخارجية، فيقول: لو نظرنا إلى أعضاء مجلس الشيوخ الثلاثة المرشحين للرئاسة الأمريكية، فلسوف نجد ان جون ماكين يتمتع بخلفية عسكرية، الا أنه كان ضابطا ولم يكن قائداً. وسوف نصل إلى خلاصة مفادها أن هيلارى كلينتون (خرجت من السباق) كانت «تعايش» عملية اتخاذ القرار فى البيت الأبيض ولكن ليس باعتبارها صانعة قرار. أما باراك أوباما فهو يتمتع بخبرة الحياة فى خارج البلاد والعمل كمنظم مجتمعى فى شيكاغو، الا أنه لم يعمل فى الفرع التنفيذى للحكومة الأمريكية من قبل. وباعتبارهم من المشرعين المنتخبين، أظهر المرشحون الثلاثة ذلك النوع من مهارات «القوة الناعمة» التى اجتذبت الآخرين إليهم ودفعتهم إلى التصويت لصالحهم. أما فيما يتصل بقدراتهم كزعماء «إداريين» فإن الأمر لم يحسم بعد.

ويضع ناى مجموعة من المحددات التى تفرق بين القوى الناعمة والقوة الخشنة فى مسألة القيادة فيقول إن القوة الناعمة التى توفر حالة من الاستلهام للتابعين تتضمن ثلاث خصائص رئيسية وهى: الذكاء الشديد الحساسية أو الانفعالى ويشمل القدرة على تنظيم العلاقات والكاريزما والإدراك والسيطرة الذاتية والأمر الثانى هو العلاقات الاتصالية وتشمل استخدام التعبيرات والكلمات والرموز والنماذج لإقناع الآخرين سواء القريب منهم أو البعيد، والأمر الثالث يشمل الرؤية من حيث الجاذبية للتابعين ومدى التأثير (تحقيق التوازن ما بين المثل العليا والقدرات)، وبالنسبة للقوى الخشنة، هنالك طريقان أساسيان هما: القدرة التنظيمية وتشمل تنظيم أنظمة الإثابة والمعلومات وتنظيم الدوائر الداخلية والخارجية (نوع من القيادة المباشرة وغير المباشرة) والطريق الثانى هو المهارات الميكيافيلية والتى تشمل القدرة على التنمر أو المراوغة والسراء والمساومة، وكذلك القدرة على البناء والمحافظة على تحالف الفائزين فى الصدارة. فى الوقت نفسه، هناك الطريق الثالث ما بين الناعم والخشن وهو القوة الذكية التى تجمع ما بين الاثنين السابقين من خلال ما يسميه ناى بـ «ذكاء السياق» الذى يشتمل على فهم المتغيرات المحيطة ببيئة القيادة والاستثمار فى الاتجاهات، وضبط إيقاع احتياجات السياق الحالى واحتياجات التابعين للقيادة.

The Egyptian Economy
(الاقتصاد المصري)
Hanaa Kheir-el-din
American University in Cairo Press, 2008, 320PP, 27.50$



يشهد الاقتصاد المصري العديد من محاولات الإصلاح منذ أوائل التسعينيات، ولكن تلك المحاولات بدأت في التزايد في الفترة الأخيرة، وكان أهم تلك المحاولات التحول إلى سعر صرف مرن للعملة المحلية، وتحرير التجارة، وتعديل هيكل التعريفات الجمركية، وتطوير قانون ضريبة الدخل، وإعادة هيكلة القطاع المالي وخصخصة العديد من الشركات المملوكة للدولة.

في هذا الكتاب محاولة لتقييم أثر تلك السياسات الاقتصادية الأخيرة على الاقتصاد المحلي وتسليط الضوء على المجالات ذات الأولوية على المستوى الاقتصادي الكلي والمؤسسي، هذه المجالات منها معدلات النمو وتوزيع الدخل والحد من الفقر، والسياسة النقدية وأثر تحرير سعر الصرف، والبطالة وخلق فرص عمل جديدة، ونظام المعاشات والتأمينات.

الكتاب الذي يشارك فيه العديد من الخبراء، يحاول تقديم اقتراحات يكون من شأنها خلق فرص عمل، وتنشيط النمو، ومعالجة قضايا الفقر وتوزيع الدخل.

أيضا يركز الكتاب على قطاع الطاقة والصحة مقدما تقييما شاملا لها على ثلاثة محاور هي: التمويل والتنظيم وإدارة السياسات.

※

Napoleon's Egypt
(مصر نابليون)
Juan Cole
Palgrave Macmillan, 2008, 304PP, 16.95$



في هذا الكتاب التاريخي، جون كول يحكي قصة غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨، موضحا الأسباب التي حدت بالجنرال الشاب إلى قيادة البعثة الموجهة لمصر، وموضحا سحر نابليون وولعه بالشرق، كما يغوص في أعماق جيشه الجبار ومعاشيته، راسما صورة للحياة اليومية لجنود الحملة وكيف كانوا يتخيلون مصر قبل مجيئهم وكيف اختلفت تخيلاتهم عن الواقع الذي وجدوه.

يصف جون كول أيضا المعارك العسكرية التي خاضها الجيش الفرنسي في مصر، ومقاومة المصريين لهم، في أولى المحاولات الحديثة لغزو العالم العربي.

※

Naguib Mahfouz
(نجيب محفوظ)
Rasheed El- ElEnany
American University in Cairo Press, 2008, 194PP, 17.95$



نجيب محفوظ هو الكاتب العربي الوحيد الحائز على جائزة نوبل للأدب، مؤلف ثلاث وخمسين رواية وأكثر وخمس عشرة مجموعة من القصص القصيرة، وخمسة وعشرين سيناريو لأفلام والعديد من الاعمال النقدية، بالإضافة إلى أكثر من خمسمائة قصة قصيرة مستوحاة من أحلامه.

أدب نجيب محفوظ كان مؤثرا بشكل كبير على عدة أجيال من الأدباء العرب، كما ترجمت كتبه إلى أكثر من أربعين لغة.

في هذا الكتاب رشيد العناني يلقي نظرة على حياة الكاتب الكبير وعلى أعماله، مقيما لمجموعة أعماله واصفا لها بأنها الميراث الضخم المصري والعربي للأدب العالمي وواصفا نجيب محفوظ بأنه كاتب أزال الحدود اللغوية والثقافية وانتشر في جميع أنحاء العالم.

※

The Last Campaign
(الحملة الأخيرة)
Thurston Clarke
Henry Holt and Co., 2008, 336PP, 25.00$



عندما قرر السيناتور روبرت كيندي الأخ الأصغر للرئيس الأمريكي الراحل جون كيندي دخول الانتخابات الرئاسية خلال عام ١٩٦٨، كانت الفوضى تلوح بالأفق، فالسياسة الأمريكية الخارجية كانت غير مقبولة لدى الشعب بسبب حرب فيتنام، كما أن السياسة الداخلية كانت قد أعيت المواطنين الأمريكيين.

الكتاب يتحدث عن جراءة روبرت كيندي في حملته، ومحاولاته لإيقاظ ضمير المجتمع والوعي الأخلاقي له، كما يتحدث عن خطط كانت لدى كيندي لمساعدة الفقراء والمضطهدين.

على الرغم من جراءته عاش كيندي في قلق دائم بأن تنتهي حياته بسبب العنف، حتى أنه قد صرح يوما في ربيع ١٩٦٨ قائلا: «أخشى أن هناك مسدسا بيني وبين البيت الأبيض».

اثنان وثمانون يوما فقط هم عمر حملته الانتخابية، أقنع خلالها ملايين الأمريكيين بأنه رجل عظيم، إلى أن تم اغتياله في يونيو ١٩٦٨.

※

Just How Stupid Are We?
(كم نحن أغبياء؟)
Rick Shenkman
Henry Holt and Co., 2008, 304PP, 25.00$



انهيار السدود في نيو أورليانز، الجيش الأمريكي على حافة الفوضى في العراق، سوق العقارات يترنح وعلى حافة الانهيار، الأمريكيون من كافة التيارات السياسة ينظرون إلى الانتخابات الرئاسية هذا العام، وفي الصورة اعتقادهم أن هناك شيئا ما خطأ بالسياسة الأمريكية.

الديمقراطيون يلومون الجمهوريين والجمهوريون يلومون الديمقراطيين، والشعب يلوم المديرين الجشعين للشركات، والصحفيين الفاسدين، وآلات التصويت ذات العيوب، ومقاولي الدفاع.

الشيء الوحيد الذي اتفق عليه الجميع أن الشعب الأمريكي غير ملام، ولكن «ريك شينكمان» يرى في هذا الكتاب أن الشعب الأمريكي يتحمل المسئولية الأكبر، فالحقيقة أن الديمقراطية الأمريكية هي في أزهى عصورها، ولكن الشعب صاحب القوة السياسية هو من يسيء استخدامها، ويتنازل عن حقوقه السياسية، فالأمريكيون يعطون اهتماما أقل للسياسة في وقت يجب أن يكون اهتمامهم الأعظم بالسياسة.

※

Sail
(الإبحار)
James Patterson , Howard Roughan
Little, Brown and Company, 2008, 400PP, 27.99$



منذ موت زوجها وآن دون، وأبناؤها الثلاثة يعانون كل بطريقته، وفي آخر محاولاتها لإنقاذ أسرتها، تخطط آن لرحلة إبحار لتجمع أفراد أسرتها سويا ثانية، ولكن على بعد ساعة فقط من الميناء، بدأ كل شيء في السير في الطريق الخاطئ، فابنتها «كاري» المراهقة تخطط لإلقاء نفسها في المياه، وابنها «مارك» يتعاطى المخدرات، وابنتها ذات العشرة أعوام، مصابة بالإغماء التخشبي.

الأم تحاول أن تحافظ على رباط العائلة، ولكن ما إن يقترب الجميع من الإحساس بالعائلة من جديد، إلا وتحدث كارثة.

الرواية مكتوبة بعناية شديدة ومليئة بالمشاعر القوية بين الأم وأبنائها.

※

Churchill, Hitler, and "The Unnecessary War"
تشرشل، هتلر والحرب غير الضرورية
Patrick J. Buchanan
Crown, 2008, 544PP, 29.95$



هل كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية ضروريتين وحتميتين؟ وهل كانت الصراعات الأكثر دموية وتدميرا خارج نطاق تحكم البشرية؟ أم كانت نتيجة للإخفاق الفاجع في الحكم الصحيح؟

في هذا الكتاب الضخم «باتريك بوكونان» يناقش سبب تلك المأساة، ويناقش كيف أن أخطاء رجال الدولة البريطانيين وأولهم تشرشل كانت هي السبب الرئيسي في تلك الكوارث، وهي السبب في انهيار الإمبراطورية البريطانية، وهي السبب في نصف قرن من الخراب والدمار والقتل والقهر، وهي ما جعلت العالم يئن تحت حذاء الاستبداد الشيوعي.

يرى الكاتب أن أكبر أخطاء الإدارة البريطانية كانت معاهدة فرساي عقب

الحرب العالمية الأولى التى تركت ألمانيا هزيلة، متجرعة للمرارة وأوضاعها قابلة لظهور شخص مثل هتلر، وكما يرى أيضا أن استسلام بريطانيا للضغوط الأمريكية إلى قطع التحالف الأنجلو يابانى كان أحد أكبر الأخطاء البريطانية، وهو ما دفع اليابان إلى النزعة العسكرية. أيضا يشير الكاتب إلى مرسوم ١٩٣٥ الذى جعل ايطاليا تنضم مباشرة إلى المحور مع هتلر.

Say You're One of Them

(قل إنك منهم)

Uwem Akpan

Little, Brown and Company, 2008, 368PP, 23.99$



فى هذه المجموعة القصصية يشخص الكاتب أخطار الفقر والعنف الذى يحيط بدول أفريقيا، تروى أحداث القصص جميعا على لسان أبطالها، وهم من الأطفال، فإحدى هذه القصص تروى على لسان فتى فى الثامنة من عمره، يعيش هو وعائلته فى أحد شوارع العاصمة الكينية نيروبى، كل ما يريد هو نقود لشراء كتب الدراسة ولدفع مصاريف مدرسته. قصة أخرى تروى على لسان فتاة صغيرة تصور الصراع القبلى فى رواندا، وتحكى عن المشاكل المحيطة بالفتاة وأخيها، وصراع أبويها فى الدفاع عنهما.

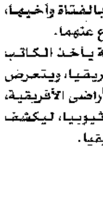
فى هذه المجموعة يأخذ الكاتب القارئ فى رحلة عبر أفريقيا، ويتعرض للمآسى التى تجتاح الأراضى الأفريقية، مارا بنيجيريا وبنين وإثيوبيا، ليكشف كيف يعيش أطفال أفريقيا.

War Journal

يوميات الحرب

Richard Engel

Simon & Schuster, 2008, 400PP, 28.00$



ريتشارد انجيل رئيس مكتب الشرق الأوسط لـ: إن بى سى يقدم فى هذا الكتاب تأريخا لخمس سنوات أمضاها فى العراق، لتكون فترة خدمته هى الأطول بين الصحفيين الأجانب على الإطلاق فى العراق. انجيل استطاع الوصول إلى كل القادة العسكريين الأمريكيين، والمتمردين السنة والميليشيات الشيعية وعائلات عراقية، بل واستطاع الوصول إلى الرئيس الأمريكى جورج بوش.

فى هذا الكتاب يحكى انجيل عن العراق قبل الحرب وأثناء الحرب وبعد الحرب، يحكى عن العمليات الخاصة الأمريكية فى العراق، عن عملية اختطاف لأحد الجنود من قبل المقاومة فى مدينة الرمادى ومحاولات إنقاذه من قبل القوات الأمريكية، عن النفوذ الإيرانى فى المدن الشيعية، ودور الحكومة العراقية فى الشارع.

يصف الكاتب أيضا الشارع العراقى إبان الانتخابات، ويتعرض لآثار تأخر القيادات الأمريكية فى فهم طبيعة العراق وشخصيتها.

The End of Food

(نهاية الغذاء)

Paul Roberts

Houghton Mifflin, 2008, 416PP, 26.00$



الاقتصاد العالمى يقارب على عدم الوفاء بالاحتياجات الأساسية من الغذاء فى الفترة المقبلة، فهناك نقص كبير يجتاح العالم فى المواد الغذائية وتزايد ضخم فى عدد المستهلكين، وانخفاض عام فى جودة المحاصيل، وتزايد الأمراض التى تحيط بالغذاء التى كان آخرها أنفلونزا الطيور.

أيضا توزيع الغذاء فى العالم يراه الكاتب بأنه ليس عادلا بالمرة، فعلى الرغم من أن هناك بليون شخص يعانون من البدانة، فإن هناك على المقابل بليونا آخرين لا يجدون قوت يومهم، وهو ما أدى إلى أن هناك بعض المناطق تعانى من نقص لفيتامينات معينة، فهناك مناطق بأفريقيا يندر أن تجد فيها غذاء يحتوى على فيتامين ايه مما أدى إلى وجود أكثر من خمسة ملايين طفل مصابين بالعمى نتيجة نقص فيتامين ايه لديهم.

أيضا أساليب الزراعة الميكانيكية والكيميائية مرهقة جدا للتربة، مما قلل من جودة وإنتاجية المحاصيل الغذائية بصورة عامة، وأيضا دخول شريحة جديدة من المستهلكين الأثرياء إلى سوق الأغذية أدى كذلك إلى ارتفاع أسعار الغذاء فى العالم. هذا الكتاب بمثابة إنذار عام للعالم ورؤية لمستقبل قريب، قد تندلع فيه الفوضى بحثا عن الغذاء.

كتاب الزاوية

فى العلاقة بين الفنون والعلوم

رفاعة الطهطاوى

الفنون الأدبية المسماة بعلوم العربية وهى النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والخط والعروض والقوافى وقرض الشعر والإنشاء والمحاضرات ولاسيما اللغة وكل ما يعين على تحسين العبارات العلمية كلها آلة للعلوم الحقيقية عقلية أو نقلية، فبالتمكن من الفنون الأدبية يقتدر الإنسان على التعبير عما فى الضمير بأحسن عبارة وأوضح إشارة ويحصل على ملكة تأدية العبارات العلمية بما يقتضيه الحال من اختصار أو بسط، فمن هذا يفهم أن المعارف الأدبية والعلوم الحقيقية متعلق بعضهما ببعض لكمال ما بينهما من الروابط والمناسبات وأن كلا منهما متوقف على الآخر وإذا نظرنا إلى ما سبق من التقدمات العلمية فى البلاد المتمدنة كبلاد اليونان وبلاد الرومانيين وبلاد الإسلام وجدنا أن دراسة الآداب فى مدن آسيا وروما وبغداد ومصر وغيرها حسنت دراسة العلوم الحقيقية وإن دراسة العلوم الحقيقية كست المعارف الأدبية حلل البهجة والرونقة وزادتها تحسينًا وتكميلاً.

فكل من النوعين العلميين اقتبس من الآخر ما زاده بهجة وكمالاً ولما كانت بهجة اليونان لم تكمل إلا بالجمع بين النوعين سعدت بذلك وتمتعت بفضل الحكمة والآداب واشتهرت بذلك أكثر من غيرها وصارت العلوم الأدبية والعلوم الحكمية متقارنة فى التمكن والتقدم خصوصًا فى مدينة أثينا وهى مدينة حكماء اليونان، وكذلك الرومانيون فكانت فى زمن القيصر أغسطوس أدبياتهم وحكمياتهم على حد سواء فى التقدم والتكامل لاسيما فى مدينة روما.

ترحب «وجهات نظر» بما يرد اليها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

حسن.. والقاعود

قرأت باستغراب ودهشة تعقيب الكاتب السورى جميل حسن على مقالة أستاذى الدكتور حلمى محمد القاعود، فوجدت فيها مغالطات وإساءة غير مستحبة لكاتب كبير وعالم جليل، لم أر منه فى أثناء دراستى إلا النموذج والقدوة فى علمه وسلوكه وأخلاقه واعتداده بنفسه وإخلاصه فى عمله وحبه لوطنه، ولم يكن لائقاً من المعقب الذى وصف نفسه بأنه من مؤسسى حزب البعث أن يتحدث عن المجلة المحترمة بصورة توحى بمفهوم المخالفة برأيه فى الكاتب لمجرد أنها نشرت له رأيا خالف رأيه أو لا يحب أن يقرأ الناس هذا الرأى، والدكتور القاعود علمنا دائماً أن الحكم لا بد له من دليل ومن مرجع، وقد ذكر فى مراجعه ما يشير إلى ما اعتمد عليه بالنسبة للطائفة النصيرية أو العلوية، وما لم يقله الدكتور القاعود، ربما للمواءمة، أن هذه الطائفة خانت الإسلام والمسلمين فى أثناء الحروب الصليبية، وانضمت إلى المهاجمين الغزاة مما دفع الإمام ابن تيمية إلى محاربتها والانتصار عليها ثم تكفيرها، ويمكن للسيد جميل أن يرجع إلى الكتب الآتية ليرى فيها ما هو أقسى مما قاله الدكتور وما أكدته وقائع التاريخ التى أجمع عليها معظم المؤرخين: الجذور التاريخية للنصيرية العلوية للحسينى عبدالله، دار الاعتصام القاهرة ١٤٠٠، ١٩٨٠م، الملل والنحل للشهرستانى (طبعات متعددة) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، دار الكتب العربية، القاهرة د. ت، رسائل ابن تيمية (رسالة فى الرد على النصيرية)، الباكورة السليمانية فى كشف أسرار الديانة النصيرية لسليمان افندى الأذنى، بيروت ١٨٦٤م، تاريخ العلويين لمحمد أمين غالب الطويل، اللاذقية (عاصمة دولة العلويين التى أقامها الفرنسيون) ١٩٢٤م، خطط الشام لمحمد كرد على، دمشق ١٩٢٥م، ٣/٢٦٥، ٢٦٨، ٦/١٠٧، ١٠٩، دائرة المعارف الإسلامية: مادة نصيرى، إسلام بلا مذاهب لمصطفى الشكعة، دار القلم، القاهرة ١٩٦١م، الأعلام للزركلى، بيروت ١٩٥٦م، ٢٥٤/٢ دراسات فى الفرق لصابر طعيمة، مكتبة المعارف الرياض ١٤٠١، ١٩٨١م.. واكتفى بهذا القدر من المراجع التى تؤكد ما ذهب إليه مقال القاعود.

ثم إنى لا أريد أن أتحدث عما تفعله الطائفة الآن وهى تحكم الشعب السورى بالحديد والنار، ولا تقبل - مجرد قبول - أن يجتمع بعض المفكرين فى صالون أحد المنازل ليفكروا فى شئون وطنهم، فتعتقل كبار السن والمرضى دون شفقة أو رحمة.

إن الكاتب يدافع بالدرجة الأولى عن النظام، لأنه يعلم أن الطائفة العلوية، وهى أقلية لا يزيد عددها على ١٠٪، حققت حلم حياتها بحكم عاصمة الأمويين عن طريق الانقلاب العسكرى، أما حكاية السلام مع العدو الصهيونى، فالمصريون فى أغلبيتهم الساحقة مازالوا يؤمنون بفلسطين السليبة وضرورة تحريرها، ويرفضون التطبيع مع المحتلين، وقد لقيت جماعة غرناطة وجماعة كوبنهاجن ما تستحق فى حين قد لا ينكرنى الدكتور القاعود الآن، فقد واصلت دراستى فى مكان آخر.

ولكنى أردت أن أحيى الرجل المترفع عن الشهرة الذى لم يرحل إلى العاصمة كدأب غيره من المثقفين بل استمر يقيم فى أعماق الريف مع أهله الفلاحين البسطاء.

د. كمال على
الإسكندرية

الشيعة والسنة

فى عدد يونية ٢٠٠٨ وعلى صفحات الوقورة (وجهات نظر) كتب الدكتور رضوان السيد مقالا خاصا بالشيعة والسنة.. وصادف هذا المقال أننى كنت فى حالة قراءة لكتاب يتناول أيضاً موضوع الشيعة والسنة. ثم جاء المقال المذكور مكملاً لسياق الحالة.

كثيراً ما يطرح التساؤل التالى إلى متى سوف يظل هذا الصراع المذهبى بين مذهبين من أكثر مذاهب الإسلام انتشاراً خاصة أن جميع النتائج المحلية والدولية لهذا الصراع لا تصب إطلاقاً فى مصب المصلحة الوطنية لأى من الطرفين بل إن حصيلة الجميع من هذا التناحر هى الخسران البين.

الخلفيات التاريخية والسياسية لهذا الانقسام معروفة ولا مجال للحديث عنها فى هذا المقام وليس هذا محل حديثنا الآن ولكن ما أود أن أشير إليه هو أن هذا الصراع (السنى - الشيعى) له علاقة بطبيعة تكوين البنية الثقافية والذهنية لدى عموم المسلمين أكثر مما له علاقة بطبيعة الخلاف ذاته... بمعنى أن مرجعيات هذا الصراع حتى الآن ليس لها علاقة بالأزمة المشهورة بين (على ومعاوية) ولكن ترجع للأزمة المشهورة بين (العقل والعاطفة) بل إن التفكر والتدبر بروية فى استمرار هذا الصراع حتى الآن قد يؤدى بصاحبه فى نهاية الأمر أن تصيبه حالة من الضحك المتواصل ... لكى يتواصل هو بدوره مع (النسق العام) الذى يؤجج استمرار هذا الصراع التاريخى.

.. من نكد الزمان علينا أننا قد ابتلينا بأئمة يجيدون حديث القلب أكثر مما يجيدون حديث العقل ويعشقون حكى خصومات التاريخ وصراعاته أكثر من عشقهم لسرد مصالحاته وهؤلاء المتصدرون للمشهد السياسى العام لا يزالون يمارسون هذا الدور بكفاءة واقتدار... المأساة هنا أن نتائج هذا الصراع لها أبعاد سياسية وليس لها فقط أبعاد مذهبية أى أن هذا النوع ليس من نتائجه أن ينفصل أصحاب كل مذهب بما يتذهبون وينعزلوا عن أصحاب المذهب المخالف بل إن من أشد نتائجه وطأة هو هذه الحالة من التناحر وكل هذا الكم من الكراهية المتبادلة بين أصحاب مذهبين هم فى حقيقة الأمر ينتمون لنفس الدين!؟!

ذكرت فى أسطر سابقة أن مرجعيات هذا الصراع تعود إلى أزمة الصراع بين العقل والعاطفة وهى الأزمة (النسق) التى نعيش جميعاً فى ظلها أيا كان الموضوع الذى نحن بصدده... وهذه بديهية اجتماعية نلاحظها جميعاً، فلو أعملنا العقل قليلا فى أسباب استمرار هذا الصراع لوجدنا أن غالبية إن لم يكن جميع هذه الأسباب إما وقد طواها النسيان أو تجاوزها الواقع وتقدم عليها فكر الإنسان المتحضر.. ولكن وقود هذه الحالة لا يزال فى باطن أراضينا وما زلنا نمتلك منه أكبر رصيد من الاحتياطى العالمى... والوقود الذى أعنيه هنا هو هذه الحالة العجيبة من التلذذ باجترار أسباب الكراهية والنفور أكثر من الرغبة فى تجاهل أسبابها. ويبدو أن هذا الأمر له علاقة باستمرار الزعامة السياسية.. ولنا أن نتصور أن الضمير الإسلامى العام رفض استمرار هذا الصراع الطائفى فما هى الحالة التى سوف يصبح عليها أئمة الجانبين؟ وما سيعانونه من فراغ (خطابى) وجوده يملأ نفوسهم إشباعاً وكيف يعطيهم هذا الصراع فرصة لديمومة الظهور والتواجد على جميع الساحات الجماهيرية.

لقد انتهت بالفعل أسباب الصراع (السنى - الشيعى) ولم يعد لشيعية (على).. وجود ولا لأتباع (معاوية) حضور لقد تغير الزمان وتبدلت الأقوام ولكن ما لم يتغير وما لم يتبدل (تشيعنا) جميعاً للانسياب العاطفى المدمر أكثر من لجام العقل البناء... ولله فى خلقه شئون.

محمد عبد الفتاح السرورى

شيف روبرتو
يعزف بتميز فى بانه فينو



أكثر من عشرين عاماً من الخبرة الايطالية موضوعة على مائدتك فى بانه فينو. . وهو قليل من كثير يحمله لكم الشيف الايطالى روبرتو بوجيوا بالإضافة إلى الكثير والكثير من الأسرار والخلطات لأشهر أنواع الباستا والبيتزا يقدمها لكم بنكهات إيطالية خالصة. . .فقط فى بانه فينو. . .فقط إيطاليانو.

مفتوح يومياً من ٦.٠٠ ظهراً وحتى ١.٠٠ صباحاً بالطابق الثاني
للحجز اتصل: ٢٧٩٧١٨١٨ - ٢٧٩٥٧١٧١ داخلي: ١٩٥٦
أو زوروا موقعنا: www.intercontinental.com

سميراميس
انتركونتيننتال.
القاهرة